يوما
ما..
و عن خرافة شهر الرحيل ديسمبر
توليب عوض

اهداء

إلى اللذين سلكُوا طريق الخذلان الأول و الآن يُمشطون شعر الخيبة الكُبرى و يدندِنون معهَا
إلى الخيبة الكبرى و الخُذلان الأول .
إليّك ..

قطرات مطر غزيرة تطرق نافذتي برقة مصحوبة برياح عاتية تشبه قلبي ، و ملائمة تماما لحياتي برمادية لونها و بمطرها الغزير، ملائم تماما لبدايتي و نهايتي و قدري أيضا. فهذا يجري ليختبئ تحت المتجر خوفا من أن يتبلل ،و هذا يستغله لخلق جو حميمي مع صديقته، و هذا يقف تحته و يستمتع به كأنه الشيء الوحيد المبهج في حياته .. ألف وجه و وجه و لكل وجه ألف حكاية.

أما أنا فلست أشعر بأي شيء ، لا المطر، و لا الأشخاص ،و لا حتى الشعور نفسه.. لا شيء سوى الفراغ، الفراغ الذي غلف قلبي حتى لم يبقى فيه سوى ذكرى للقاء أنفُض عنها الغبار كل يوم ، و حبٌ لمطرٍ كان يوما ما كل الحياة لقلبي.

لا طالما كان النسيان هو الشيئ الوحيد الذي نستطيع به المضي و التجاوز .. لا طالما كان و سيبقى تلك النعمة النادرة التي تأتي لقلة من الأشخاص، نعمة التخطي في طرق جديدة .. فاليوم يوافق حدثين زعزعا روحي ، حدثين جعلهما ديسمبر يدونان في تاريخ حياتي ، حدثين لم تطالهما يد النسيان و لم ترتطم بهما زخات التجاوز.

ديسمبر الذي مت فيه مرة و عشت فيه مرة أخرى.. ديسمبر الذي كنت اقدس فيه اللحظات العابرة و تفاصيل اللقاءات الاولى .. ديسمبر الذي عشت فيه مرتدية ثوب الرحيل و الغياب، و في الأخير ودعته بقلب متعب لم يكن يرجو سوى النسيان .. ودعته بقلب لم يكن يريد سوى أن يرفق به ديسمبر و الحياة.
و ها هو ديسمبر قد اتى مرة أخرى ليذكرني به.

فهو بقي راسخا في حياتي لا يغادرني و لا يغادر ايامي ، و لا ينفك خياله المشوش يراقصني على الحان خاوية أؤلفها ليلا اكثر من نهارا ، كيف و هم يقولون أن الحب ما هو إلا سعادة و تحليق بجناحين حالمين لرؤية الحبيب، و أنا تألمت منه و من حبه حد انقطاع انفاسي و حد تبخر احلامي .. كيف أنساه و هو من جعلني شخص رخويٌ لا يستطيع الاحساس و ما ينفك يتذكر يوم لقائنا كأنه حدث أمس؟

كيف أنسى و أتناسى ماضي بعيد يغلفه قصة حب جمعتنا كانت خيالية اكثر منها واقعية.. كاذبة اكثر منها حقيقة.

كنت اتأرجح بين قلب اخبرني ما لم يقله احد و بين عقل كنت اخاله يفهمني اكثر من نفسي، فإذا بذلك القلب و العقل قد جعلا مني نصف شخص.. نصف حب.. و نصف قلب كان يؤمن بأنه يستطيع فعل المستحيل كالتحليق او امتلاك قلب من أحَبه.

كان لدي يقين انني سأجد من يكملني بعده وأنه يجب علي أن أضعه في غياهب النسيان و المرور لأنها تجربة كئيبة مؤقتة ولا بد من التعلم منها ، تجربة علي أن اتخطاها بقلب متألم.

إلا انني لم أكن أعلم أنني سأبقى عالقة بذكراه .. عالقة في قاع التجربة، و أنني لم أنسى و أتناسى و أخالني لن أنسى أبدا ، فهو ما زال يملئني و يملئ ثقوب قلبي.

فبعد كل شيء انا ما زلت في القاع مع خياله أراقصه و احلم بحكاية مكتملة بطلها جعل من البدايات التعيسة نهاية لا تكتمل الا بوجودها و بطلة تؤمن بحب افلاطوني يجعل من النهاية حياة اخرى ما زالت قيد الكتابة ليعيشاها.

لقد كنت اعلم انه البطل الآسر و المميز الذي يقلب حياة البطلة رأسا على عقب لكنني لم أكن أعلم أنني لم اكن يوما البطلة بل كنت ذلك الهامش الذي يحب بصمت و بدون صدى.

لكنها كانت مشكلتي من الأساس انني آمنت و توقعت و صدقت انني سأكون معه كنهايات القصص الخرافية ، لقد آمنت أن القدر سيكون معي هذه المرة لأنه وضعه أمامي بدون حتى أن ألتقط أنفاسي ، لقد آمنت لكنه في الأخير ابعدني عنه كأنه يخبرني بأنه قد حان الوقت للتريث و لتنظيم أنفاسي.

لقد كان الوحيد الذي عشت معه تفاصيل الحب الأول ، الحب الذي حلقت فيه عاليا ، في عالمٍ بعيد عن الواقعية و السوداوية ، عالم فيه من الحب ما يجعله ورديا حالما و لا يوجد فيه سوى أنا و هو فقط.

لكنني لم أكد أنغمس و أتعمق فيه حتى تبعثر حلمي كتبعثر أوراق الخريف و انكسر جناحيَّ كإنكسار زجاجٍ بالي، فإرتطمت بالواقع الكئيب لأجد الخيبة و المرارة بإنتظاري، فتجرعت منهما حد الثمالة و ما زلت للآن لم أستيقظ لأثرهما المسكر.

لقد كنت أرجو أن تحبني الحياة و لو قليلا و تعوضني عما خسرته، أن يشفق علي القدر،و ينتشلني من حالة البؤس التي أعيشها.. لكن أنَّ له أن يخرجني من الذي انا فيه و هو قد أعطاني درسا قويا لم و لن انساه ابدا، كيف و هو كثير التناقض.. تارة يعطيني حد السخاء و تارة يأخذ مني كل عزيز.

لقد كان مليئا بالتناقض للحد الذي جعلني كثيرة الإفراط في مشاعري و توقعاتي حد ايذاء روحي و جعلُها خاوية مليئة بالندوب. ففي الأخير عرفته بدون مشاعر ، بدون قلب و بدون

ادنى فكرة عن هذا الذي يسمى حب ، لكنه جعلني أؤمن و أصدق أن اللهفة الأولى و نبضة القلب ما هي الا سعادة اخرى سأكتشفها مع مرور الوقت.
فإذا بإكتشافي حطمني و جعلني اعود أدراجي لنقطة الصفر او اقل منها.

ها قد أسدل الليل ستائره ، ليعلن توقف أفكاري و توقف المطر أيضا، فرحت أتأمل المكان حولي كأني أشاهده للمرة الأولى، بيت بسيط مكون من غرفة معيشة، مطبخ و حمام و غرفتين و لا سيما مكاني المفضل الذي أطل عليه على العالم لأرى أحواله ، و أيضا صديقتي الوحيدة التي سمعت شكواي و لم تعترض و تقبلت ضعفي و لم تتحدث.. صديقتي التي كتبت فيها رسائل معلقة لم تصل .

كل زاوية ، كل ركن ، حملت معها سيل ذكريات عميقة متربة مليئة برائحة الحنين التي كانت و لازالت في قلبي.

فنفضت عني هذه الأفكار و ذهبت للمطبخ لأعد شيء أسد به جوعي، فوجدت قطعة رغيف و بعض من الجبن، أعلم أن هذا كاف لإطعام معدة عصفور ، فكيف بمعدتي، فأنا أصلا لست من النوع الأكول الذي يحب الطعام حبا جما ، يكفي فقط ما يسكت عصافير بطني و أن أبقى على قيد الحياة لا أكثر.

انتهيت من وجبتي البسيطة، فإذا بالساعة تشير لمنتصف الليل، فذهبت إلى غرفتي و استلقيت لعل النوم يداعب عينيَّ اللتان نسيتا الراحة منذ مدة، فأنا منذ أيام لم أنعم بنومٍ يملئني و عيني حد التخمة، فتلك الأفكار كانت ولا زالت تؤرقني ، ولا سيما تلك الأوهام و الآلام التي أبت أن تتركني .

فذهبت بي ذاكرتي إلى ذلك التاريخ من شتاء ديسمبر و بالتحديد في الأول من شهر الرحيل و اللهفة الأولى من عام الحنين ٢٠٠٨ ، و أنا لست من هواة حفظ التواريخ فهي بالنسبة لي حاصل تحصيل لا تستدعي مكوثها في البال لأن ليس لها لا وقع ولا استثناء ، لكن هذا اليوم أعتبره يوم البداية و النهاية .. يوم بداية النبضة الأولى و نهاية حياتي .. يوم بداية التجربة و لهفة الحب المختبئ.
يوم لعبه القدر و أجاد ممارسته ، فكانت و كما تعودت في صغري بدايةٌ لخسارة لشيئ ما توقعت انتصاره رغم هتافي و تشجيعي المستمر و يقيني بالفوز .
يوم بداية الاندثار و تلحين توليفة الحزن التي راقصتني طويلا.

شتاء ديسمبر
٢٠٠٨

خرجت من الباب الواسع للمبني و لففت وشاحي الأحمر حول عنقي، و أحكمت إغلاق أزرار معطفي الرمادي ، ثم هممت بالذهاب للمنزل بعد يوم طويل و شاق، و ما زاده شقاء سوى البرد القارص و الرياح القوية .

سرت و أنا أتذكر كل ما مر بي في هذا اليوم، لا شيء جديد بالتحديد ؛ فهو ككل يوم، الاستيقاظ في السابعة صباحا، أغاني الزمن الجميل المنبعثة من الراديو القديم، دندنة أمي و نظرتها الحنون ، الأمان المحيط بأبي، و الوصول للعمل متأخرة بخمس دقائق بسبب زحمة المرور، تذمر مديري في العمل، نميمة زملائي، يليها عمل.. عمل..عمل ، حتى الخامسة, لأتنفس الصعداء، لأن يوم ممل آخر قد مر هكذا كان يومي روتيني و ممل.

فمنذ أن كنت صغيرة حلمي كان أن أعمل في دار نشر محاطة بالكتب، فدرست.. و درست..و درست ، لم أستمتع بطفولتي كباقي الأطفال بلعبة الدمية أو البيت، بل كانت لعبتي الوحيدة هي الكتاب ، هنا وجدت متعتي و تسليتي، و لم أحيا حياة المراهقين كالوقوع في الحب أو تكوين صداقات، بل كان حبي الأول و صديقي الوحيد هو الكتاب و الكتب .
هكذا أمضيت طفولتي و مراهقتي و حتى حياتي الجامعية وحيدة ، مليئة بالكتب و قليل من الصداقات السطحية و علاقات الاعجاب العابرة، فكل ما كان يهمني الدراسة و الكتب. فتوالت الأيام و تحصلت على شهادة الثانوية العامة بتقدير جيد ثم درست في الجامعة و كنت اتأرجح بين رفع راية الاستسلام و تحقيق حلمي الوحيد.

لكن بالرغم من الصعاب التي واجهتني لم استسلم و كان حلمي قد استقر في طيات قلبي ليهزم كل دخيل مستحيل ، فتغلبت بدوري على كل شيء في سبيل تحقيق حلم كاد يكون واقع، فتخرجت في الاخير و كانت فرحتي برؤية فخر والديَّ اشد فرحا من اقتراب تحقيق حلمي.
و كانت الحياة بدورها سخية جدا معي لأنها اعطتني كل ما املك، و ان كانت اشياء عادية. والدان محبان يعطيان ابنتهما الوحيدة عقد من النجوم اذا طلبت ، قليل من الذكاء الذي ساعدني طيلة مشواري الدراسي، و نفحة من جمال ان كان يبدو لي عاديا و بسيطا.. حتى حلمي قد تم تمهيده و تسيير سبل الوصول اليه ، فحققته و صرت أعمل في أشهر دار نشر في البلاد محاطة بالكتب من كل جانب، كتب من الصباح حتى المساء .

لكني لم أكن أعلم حينها ان الاحساس بالملل قد بدأ بالتسرب داخلي شيئا فشيئا، فتيقنت أن الرغبة في شيء ما لدرجة الجنون، يليها فقدانُ شغف به مع مرور الوقت، فأنا لم تعد لي طاقة لا في الكتب ولا في العمل ، لا أدري هل المشكلة تكمن في الروتينية و الملل؟ .. أو في كره زملائي و نميمتهم عني؟..أو في مديري الذي ما ينفك يوبخني على أتفه الأشياء؟..أم المشكلة في أنا؟.

قطع سيل أفكاري قطرات رقيقة من السماء أيقظتني من شرودي، فكل ما كان ينقصني في هذه اللحظة بالذات إلا المطر ! ،و الأسوء لم أحضر معي مظلتي! فتحولت القطرات فجأة الى خيوط قوية ترسل حملها للأرض، و لم يكن عندي حل أفضل من الحقيبة، فهممت بوضعها على رأسي، و رحت ألتهِم الطريق لأصل في الوقت المناسب لرجوع والديَّ ، و في خضم غضبي من المطر اللعين لم انتبه للجسم الصلب الذي ارتطمت به حتى كدت أقع، ففي اللحظة الأخيرة تم إمساكُ يدي قبل السقوط المحتم . و فجأة كان المطر قد اختفى و لم أعد أشعر به، كل ما شعرت به وقتها ملمس يدٍ دافئة على يدي المتجمدة، فلم أشعر لا بالمطر ، و لا الرياح، و لا حتى البرد، لا شيء سوى ملمس يده على يدي.

- أنا أعتذر.

قلتها بإرتباك و خجل دون النظر اليه و الى من يكون هذا الغريب الدافئ، فلم أتلق جوابا منه وكان سكوته هو خير جواب، فرفعت رأسي اليه و نظرت له للمرة الأولى فوجدته يحدق بي كأنه كان بإنتظاري ليضع عسليتاه في عيني، فأحسست كأنه يغوص في أعماقي ليكتشف ما لا يجب اكتشافه .

ثم أخرجني صوت عميق جذاب من شرودي :

- لا عليكِ.

هكذا قالها بإقتضاب و برود ، فبالرغم من أن صوته كانت باردا الا انه جعل قلبي يتراقص دفئاً و طربا، فتعلقت عيناي بعينيه و هو مازال ممسكا بيدي، فتوقف قلبي للحظة و شعرت أن الزمن و المطر أيضا توقفا، و معهما الرياح و الكواكب و دوران الأرض، توقف كل شيء عند هذه اللحظة .

كانت لحظة فاصلة بين الخيال و الحقيقة .. بين الواقع و الحلم لحظة شعرت فيها بكل ما يشعر به الإنسان منذ ولادته حتى لحظة وفاته، كأن هناك ألعاب نارية في عقلي، أم قلبي؟ ربما .. لا أدري ! كل ما شعرت به وقتها أنني لا أريد إبعاد عيني عن هذا الغريب الجذاب، و لا إفلات يده التي تبعث الدفيء لجسدي و قلبي على حد سواء.

لكن لكل شيء نهاية في هذه الحياة، حتى تلك الثواني القليلة، فلقد عاد تساقط الأمطار و عادت الأرض للدوران ، و عادت عقارب الساعة لوضعها المسالم، و عاد البرد يتسلل لسائر جسدي بتركه ليدي.. كل شيء عاد لطبيعته، حتى أنا عدت للعالم الذي أعيش فيه .
حين أدركت ذلك كنت مبللة من رأسي لأخمص قدمي، أما هو فبإمساكه ليدي سقطت مظلته و حاله لا يختلف عن حالي. يا إلهي! لقد تأخرت لا بد أنهما قلقة ! فتمتمت بعبارات الإعتذار مرة أخرى لتبلله بسببي و لإرتطامي الغبي به ، و لم أنتظر سماع رده، فتركته و جريت كما لم أجري من قبل كأنني في سباق الماراثون و لو كنت هناك لإحتللت المركز الأول،حسنا! فبسببه اكتشفت انني بارعة في الركض و هذه ميزة جديدة .
لكن بعثرة الرياح لشعري الأسود قد اعاقت رؤيتي نسبيا، فلم انتبه لوشاحي المفضل الذي اخذته الرياح معها لكنني لم أهتم به و لم ألتفت حتى كل ما كان يهمني حقا سوى أن أعود للبيت.
أو أن ما يهمني كان شيء آخر؟.
لا أدري.

***

خرجت من الحمام و أنا أحمل منشفة أجفف بها شعري، فوضعت يدي على عنقي و تذكرت الوشاح المفضل عندي و الذي أعطته لي جدتي رحمها المولى عندما كنت صغيرة، و الذي خسرته بسبب غبائي و ارتباكي , حين حملته الرياح لمكان لا يعلمه إلا الله .

لقد عدت و أنفاسي لا تكاد تملئ رئتاي لأنني تأخرت فطرقت الباب و لم يجب أحد، فعاودت الكرة لا مجيب، لكن لحسن الحظ ابي دائما يخبئ مفتاح احتياطي تحت المزهرية لحالات الطوارئ مثل هذه، فحملته و فتحت الباب، فإذا به غارق في الظلام، لوهلة ظننت أن يكون هناك لص قد اقتحم البيت و قتلهما أو وحوش متعطشة للدماء، فحتى في هذه المواقف دائما ما يبدأ عقلي بتأليف أفكار خيالية صعبة التصديق.

فنفضت عني هذه الأفكار الطفولية و أشعلت الضوء لينير البيت بأكمله، فجلت ببصري في أنحائه و أنا أتساءل .. أين هما ؟! انها السادسة مساءا لكن لم أعر للأمر إهتماما كبيرا، فذهبت لآخذ حماما ساخنا يزيل عني تعب الطريق و برده و ينعش أوصالي المتجمدة.

و ها أنا ذا أسرح شعري أمام المرآة، وأنا أرى انعكاس وجهي، فأنا لست بفائقة الجمال أو بالقبيحة البشعة، كلمة " عادية " هي الأقرب لوصفي، بشرة خمرية، عينان سوداويتان كبيرتان مع أهداب طويلة، و أنف مدبب و فم صغير، لا شيء مميز، لعل ما يميزني هو شعري الأسود الطويل و المجعد، فدائما ما كنت محط غيرة الفتيات بسببه.. ليس بسببه فقط بل بسبب عاديتي فهم يرونني تلك المميزة الآسرة و هم لا يعلمون بأن تلك الآسرة عاشت وحيدة بقدر ما نبذوها و شعروا بالغيرة منها.
فجأة تسلسل ذلك الغريب لأفكاري، أو كما سميته منقذي الغامض.. أعلم إنني طفولية جدا ! لكن تفاصيله المميزة مازالت راسخة في ذهني كأنني أراه أمامي... تلك التفاصيل التي جعلتني أغرق في عينيه .. أغوص و أغوص لكن لا أمل في النجاة ، تلك العينين التي تجعلك تهتدي بعد ضلالك الدائم و تحيا بعد مماتك الأزلي.. و ذلك الشعر الليلي المصفف بعناية و الذي يجعلك تريد دخوله رغم ظلامه الدامس، و صوته الرجولي العميق الذي أطرب قلبي كل أذني ، كمعزوفة اجتمعت فيها جميع الألحان العذبة، ناهيك عن تفاصيله الأخرى التي لم أنتبه لها ، فما شدني اليه كان صوته و عينيه .

فأنا لم أرى في حياتي شخصا بهذه الهالة القوية و الباردة , فوجهه ليس به تلك الوسامة التي تجعل الرؤوس تدور و القلوب تذوب، لكن به تلك الجاذبية و الغموض الذي يجعلك تريد التعرف على أعماقه و استكشافه مهما كانت الأخطار محيطة به.
ببساطة هو من ذلك النوع الذي يجعلك تخاطر و تضحي بكل شيء لديك في سبيل كلمة أو نظرة منه.

لكنني نسيت أهم شيء أنه غريب، نعم غريب عني، لا أعرف عنه أي شيء سوى ملامحه المميزة، فتلك الثواني جعلتني أعرف أنه ليس بالنوع السهل اللين.. لا أنكر أن وقعه في قلبي كان قويا و مربكاً ، لكن هل من الممكن أن يكون حب من النظرة الأولى؟ لا، لا أظن! بالنسبة لي أعتبره ضربا من الخيال و وهم لا ينفك الساذجون تصديقه ، كيف يمكن للشخص أن يحب الآخر دون معرفة أعماقه الداخلية ، أو بالأحرى من النظرة الأولى.

فالحب بالنسبة لي هو تلك النبضة الأولى و الارتباك الخجول، أنا لا أنكر أن ذلك هو بداية التهاب المشاعر و لهفة القلب.. لكن أن تحب شخصا دون أن تضربك أمواجه العميقة و دون أن تعرف متى تكون تقلبات طقسه فأنت انبهرت بالبحر دون الغوص فيه ،و أنت بعيد كل البعد عنه.
ببساطة ما شدك اليك هو زرقته الدائمة و أمواجه الهادئة التي تسر ناظريك ، أما أعماقه فيدخلها كل محب يريد الاكتشاف و الاستطلاع، لتقبله أو الفرار منه دون رجعة.. فالقرار في الأخير يعود لك.

فما الإعجاب الا الانبهار الأول بالتفاصيل مع تقديس اللحظات العابرة , أما الحب فيكون بين المد و الجزر .. بين الانطفاء و التوهج .. بين بداية الارتباك و التعلق و ما يليها تكون تلك التقلبات الكئيبة بين نسيانٍ صعب و البقاء رغم التعاسة فتقودك في الأخير الى الاختيار بين البقاء ألما أو الهـُروب.

ابتعدت من أمام المرآة و ذهبت للمطبخ لأجد ماذا أعد للعشاء، فأنا أقر بأنني لست مثل بعض الفتيات اللاتي يجدن الطبخ ، فأمي كما كان يقول أبي عنها أنها الأولى في العالم و في قلبه في الطبخ .
لقد كانت دائما تخبرني بأنني يجب أن أتعلم من أجل الزواج بعريس اللقطة ، الا أنني لم أعر للأمر أهمية كبيرة لأنني لست مهتمة لا بالزواج ولا بالحب بحد ذاته , لذا تركت لها هذه المهمة فكل ما استطعت فعله هو مساعدتها و كل ما تعلمته منها هو كيفية إعداد الأرز بالخضار لأنه المفضل عندي، لذا و بما أنهما غير موجودان سأفاجئهما وأطبخ لأول مرة طعامي المفضل.

بعد انتهائي رحت أعد الطاولة و أنا اغني بشجن مع صوت فيروز في اغنية "سألتك حبيبي" المنبعثة من الراديو القديم :

"انا كل ما بشوفك"
" كإني بشوفك لأول مرة حبيبي"
"انا كل ما تودعنا كإنا تودعنا لآخر مرة حبيبي"

فأنا لا طالما عشقت فيروز و الأغاني العربية القديمة ، لطالما عشقتها وعشقت معها كل ما هو كلاسيكي و قديم ، الأشعار .. الموسيقى.. و الأشخاص .. و حتى الحب نفسه, فالحب قديما كان يقتصر على تلك الرسائل المكتوبة بحروف اللهفة لتكون شاهدة على حكايات الحب جميعها، السعيدة منها و التعيسة، الخيالية منها و الواقعية.. كأنه الشاهد الوحيد على جريمة تسمى " الحب " .

تلك الرسالة التي ما ان يفتحها العاشق حتى تلمسه تلك الرائحة المليئة بالشجن و الحنين فتُقرأ تلك الكلمات بالقلب قبل العين، فتكتمل الجريمة ما ان تصل المشاعر و تستقر في المكان الذي تنتمي إليه من الاول ،فيسكت العقل و يسكت كل شيء، إلا واحد لا شريك له واحد له كل الحق في الكلام، واحد هو مخطط الجريمة الكاملة و هو المسبب و السبب الوحيد الذي تحيا به الحياة.

فالعاشق يعد على اصابع يديه و قدميه و الثواني و الدقائق و الساعات و حتى أشهر لرؤية وجه من نبض له القلب عشقا لمدة لا تتعدى دقيقة .. ثواني و ساعات و أشهر من الشوق و الانتظار لتلك الدقيقة.. دقيقة يتجدد فيها الحب مع سيمفونية عالية يلحنها القلب .
هكذا كانت معادلة حب الزمن الجميل .
اما حب الحاضر فهو شيء آخر، شيء بعيد كل البعد عن الجمال و الحنين، تلك الرائحة التي دخلت عليها تكنولوجيا الهاتف لتقلص المسافات البعيدة ،والتي استولت على رائحة الشوق .. لا وجود للعد، و لا للانتظار، و لا للحب، العد ذهب مع ذهاب الحب و الشوق ذهب مع ذهاب الانتظار المؤلم ، فكل شيء متاح في هذا الزمن حتى الرسائل الورقية اختفت و تم استبدالها بذلك الجهاز الذي يسمى الهاتف و الذي جعل الحب يتنفس أنفاسه الأخيرة و يحتضر تحت ما يسمى تكنولوجيا.
و كما كان الحال فقد استوطن على الحب و جعله روتيني مليء بالملل.

فالحب يكمن في حماسة البدايات و ذكاء المسافة ، أن تجعل كل شيء في وقته جميلا و ذو قيمة ، أن لا تتحمس كثيرا فتفقده و ألا تقترب كثيرا فتحترق ، و ألا تبتعد كثيرا فتنطفئ.

في المنتصف بين حماسة التوهج و الإنطفاء .

انتهيت من اعداد الطاولة ثم ذهبت و وقفت أمام النافذة و أنا أستمع إلى صوت قطرات المطر و هبوب الرياح القوية، فانتبهت الى رجل غريب مار يهمهم بكلمات غير مفهومة غير مبالي لا بالمطر و لا بالرياح و لا حتى بالقطط التي تحوم حوله طلبا الطعام، غريب أمر هذا الرجل كيف أنه غير مبالي هكذا ، أم أنه فقد الشعور بكل من حوله؟ فحتى تلك القطرات لم ترحمه و جعلت من الرياح بردا هز أوصاله هزا. مسكين اتمنى ان يجد مكان يحتمي فيه .

فصرفت نظري لأضواء السيارات العابرة التي تأتي و تذهب غير عابئة بالسيول القوية و لا الرياح العاتية ، و أنا أشاهدها و أتمنى من كل قلبي ان تكون احداهما سيارة والديَّ..
فابتعدت من أمام النافذة، و رحت أشغل نفسي بتنظيف و ترتيب البيت محاولة مني لعدم التفكير.
و بعدها لم أشعر الا و انا احمل هاتفي و أتصل بأمي ، فإذا به يرن و أنا أنتظر و أتمنى أن يجيبني الصوت المحبب لقلبي فإذا بأمنيتي تجاب و سمعت صوتا يعادل صوت أجمل الأشياء :
- زهرتي.
- أمي لماذا تأخرتما ! إنها السابعة مساءا . قلتها بصوت حاولت جاهدة اظهاره طبيعيا قدر المستطاع.
- أعلم يا توليب فأنا و والدك كنا في الشركة و كان لدينا عمل ضروري و نحن في طريقنا .
- اااه اذا سأنتظركما على العشاء يا امي لا تتأخرا ، و ابلغي سلامي لأبي .
- حسنا يا زهرتي اهتمي بنفسك و كوني بخير.
- حسنا يا امي و قودا بحذر فالمطر شديد.

***

ان أكثر الأشياء ارباكا هي متابعة دقات الساعة وهي تتحرك بحركة رتيبة روتينية تتابعها و أنت تنتظر المجهول, فتنتظر و تتمنى أن يظهر لك اي منفذ ليخرجك من افكارك التي تتدفق كتدفق المياه الجارية.

فمنذ حديثي مع امي و أنا تارة أتابع دقات الساعة و تارة اخرى النافذة المطلة على الطريق، و بين هذا و ذاك انقضت ساعة و دقيقة، فدوامة القلق و الأفكار السيئة بدأت تعصف بعقلي وصولا لقلبي، فأبت أن تفارقني كظلي الملتصق ، فحملت هاتفي و اتصلت بأمي فإذا بها تلك الغبية تخبرني أن الهاتف خارج نطاق التغطية، حسنا! ربما فصل شاحنه و انطفأ، سأتصل بأبي ، لكن تلك الغبية أخبرتني نفس الجواب . اهدئي يا توليب ! حتما من الممكن أنه انطفئ أو هما في مكان لا يوجد به تغطية و من الممكن أن عملا آخر مهم قد طرأ ، لا تقلقي ،لكن هيهات فكلماتي لم تستطع مواساة قلبي فكان وقعها أشبه بالتحدث لشخص أصم، لماذا تأخرا؟!

فمن المفترض أن يتصلا و يخبراني ، فأخذت الأفكار تعمل عمل السحر داخلي تأتي و تذهب دون مفارقتي و سيئها أكثر من جيدها.. فكانت القشة التي أفاضت قلقي حين وصلت لنهاية الأفكار بحدوث شيء لهما، فطفقت لبالي فكرة أن أذهب إلى هناك ، لكنني استبعدتها اولا خشية ان يأتيا و لا يجداني و ثانيا لسوء الطقس و غزارة مطره .
يا إلهي ما العمل أكاد اجن !

فأنا لا أعلم كم مر من الوقت و أنا في مكاني لا اتحرك وحدها افكاري من كانت تجوب و تعصف داخلي, هل مرت دقيقة أم ساعة ؟ لماذا أشعر ان الوقت يمر ببطيء؟ و لماذا أشعر أن الدقائق ساعات و أن الساعات أشهر، و الأشهر أعوام فما بالي و ما بال الوقت لا يمر و أنا على حافة الجنون لا أتقدم و لا أتراجع في المنتصف لا أدري ماذا أفعل.

كل شيء أصبح باهت و عقلي يدور و يدور دون التريث لثانية، و جميع الأحداث تقفز الى ذهني دون أن تعطيني فرصة للتنفس, في المنتصف أنا تحاوطني أفكاري و أسئلتي البعيدة مع عقلي المضطرب الذي كاد يأخذني لحافة الجنون لولا أنني استجمعت شتات نفسي ، فأنا لم و لن أستسلم لها .
فعادت لي تلك الفكرة الأولى في الخروج و البحث عنهما، لا أعلم أين بالضبط لكنني يجب أن أفعل شيء فأنا لن أقف مكتوفة الأيدي !

فنهضت و ارتديت ملابسي و حملت المظلة و خرجت للبحث ، نعم خرجت في الليل أمشي في الطرقات الكئيبة التي كانت خالية من أي كائن حي ، وحدها القطرات من كانت ترتطم بها و بمظلتي برفق، فلم أعلم إلى أين أذهب بالتحديد، لكن الذي أعلمه أنني لو

بقيت دقيقة واحدة سأفقد عقلي من التفكير ، فرحت أجوب الطرقات الخالية ليلا علي أجدهما ، مشيت و مشيت حتى وجدت نفسي أمام مركز الشرطة ، فرحت أفكر هل أقدم بلاغ أم لا ؟ فحسمت أمري و دخلت يجب أن أفعل شيئا ما!.

***

-مرحبا أود أن أقدم بلاغ اختفاء .
قلتها و أنا بالكاد أستطيع التقاط أنفاسي ، و بالكاد أيضا أحافظ على هدوئي وعلى نبضات قلبي ،فسمعت صوت رجل يقارب للخمسين يتمتم :
- من الذي ستبلغين عنه ؟
- سأبلغ عن اختفاء والديَّ ، أرجوك يا سيدي أن تساعدني فأنا لا أعرف ما الذي أفعله أو سأفعله.
هنا فقدت رباط جشأي و بدأت أتحدث بهيستيرية ،لا أعلم لماذا لكنني أشعر أن شيء سيئ قد حصل لهما.
- يا آنسة اهدئي ارجوكِ و أخبريني لماذا تريدين التبليغ عنهما . فشرعت احكي له منذ لحظة تحدثي معهما وصولا لهنا.
- اسمعي يا آنسة من المحتمل ان يكونا قد تأخرا بسبب زحمة المرور أو ان لهما طريق آخر لا تقلقي .
- أنا أعلم لأنني وضعت كافة الاحتمالات الممكنة ، لكن لماذا هاتفهما مغلق ؟ أنا أعلم والديَّ فهما دائما يتصلان ليطمئناني فهما يعلمان انني حساسة و قلقة جدا فعقلي لا يكف عن تأليف مشاهد سيئة ، عوضا عن انني خائفة عليهما ، فماذا تريدني ان أفعل ، فهذا هو الحل الوحيد الذي وجدته امامي .
- أنا اعلم يا انسة انك خائفة، فمن الممكن ان يكونا في مكان لا يوجد فيه تغطية ، فكل شيء وارد الآن لكن اعلمي اننا لا نستطيع تقديم بلاغ و التحرك الا بعد مرور ٢٤ ساعة هذه هي القواعد.
فأطرقت رأسي بأسى و أنا أشعر أنني سأبكي في اي لحظة.
- لا تقلقي يا أنسة سيكونان بخير ، اعطيني رقم هاتفك و اذا حدث شيء سأتصل بك .
فخرجت و أنا أجر أذيال الخيبة في طريقي للمنزل ، منكسة الرأس و دموعي تهدد بالسقوط و ما زادها الا المطر الغزير الذي يرتطم بالمظلة بقوة ، فرفعت رأسي للسماء و بحركة سريعة و برضى تام أنزلت مظلتي و المطر يربت على رأسي كأنه يخبرني بأنني لست وحدي و أنه لأجلي ، صحيح بأنني ابدو كالمختلة تماما لكن شعور بأنه هناك من معي رغم غربة

الطريق و برده أشعرني لا ارادیا بالدفء , فالبرغم من البرد القارص و الرياح القوية إلا أنني كنت ممتنة لأن الطقس و على الأقل يشبهني.

دخلت للمنزل و المطر كان قد نال مني, فذهبت مسرعة لأغير ملابسي و لمحت المائدة و الارز الذي طبخته لأول مرة و قلبي يواصل انقباضاته, و الخوف كان قد تمكن مني كل التمكن فلم أعد أعرف هل اصدقه ام افنده ككل مرة .
لكن هذه المرة كان هناك شيء داخلي يخبرني أن هذه المرة مختلفة .. حتما مختلفة .

ثم ذهبت الى مكاني المفضل في غرفتي و الذي اطل عليه على الشارع الكئيب اترقب و افند كل دقة في قلبي و أنا أتابع بعينين ملتاعتين اثرهما المختفي و كلي انتظار لكن ما الذي أنتظره بالتحديد؟ امي و ابي ؟ ام فرحة رؤيتهما ؟ام ارتياح عدم تحقق شعوري المقلق ؟ ام عذاب سيغير حياتي و يقلبها رأسا على عقب ؟ .

قطع حينها شرودي صوت الهاتف فحملته بلهفة متوقعة أنهما والدي فرأيت أن الرقم غير مسجل ، فتعجبت للحظة لأنه نادرا ما يتصل بي رقم غير مسجل .
-الوو!
- هل معي ابنة السيدة ياسمين و فخر الدين ؟
فأجبت و التعجب و الخوف قد طغى على صوتي و جعله مهتزا هامسا:
- نعم أنا هي ، لكن من انت ؟
-لقد أخبرتك أنه إذا حدث شيئا لوالديك سأتصل بك .
فتذكرت ذلك الشرطي الذي أعطيته رقمي ، فقلت بلهفة و قلق بنفس الوقت :
- اااا اذا انت هو الشرطي من المرة الماضية ، هل لديك اخبار عن والدَّي ؟.
فسكت لبرهة قبل أن يقول ما كانت دقات قلبي تخبرني به :
-يؤسفني أن أخبرك أنه حدث لهما حادث مرور و هما الآن في العناية المركزة .
و بعدها فقدت الإحساس بكل شيء ، لم أشعر لا بصوت الرجل في الهاتف و لا بقلبي ، و لا بصوت الرياح و الأمطار لم أشعر بشيء إلا و الأرض تميد بي و بظلام يحيط بي من كل جانب و بصوت ذلك الشرطي يتردد من بعيد .
- آنستي هل أنت بخير .؟!

***

شعاع شمس لطيف تسلل ببطء و أخذ يداعب وجهي برفق ، ففتحت عيني قليلا و اذا بصداع قوي يداهمني و بألم حاد في رقبتي وفي ظهري ، فتحاملت على نفسي و نهضت و أنا لا أتذكر أي شيء ، فتساءلت أين انا؟ و لماذا أنا نائمة هنا؟, فتذكرت ذلك الكابوس الذي راودني ليلة أمس، و الذي كان قريبا للواقع أكثر من كونه حلم.

فلمحت المكان حولي فإذا بي أجد اول أرز طبخته في حياتي و الذي كان في الحلم ولاحظت أن ملابسي نفسها أيضا ، لحظة واحدة ! ..هل يعقل أن ؟!! ، فنظرت للهاتف المنطفئ بجانبي و حملته فإذا ببطاريته نفذت ، فذهبت سريعا و وضعته على الشاحن لأتأكد إذا كان الكابوس حقيقة أم لا، فذهبت إلى قائمة الاتصال، لأجد أن آخر من اتصل بي كان رقم غير مسجل و عدد المكالمات منه تجاوزت العشرة فعاودت الاتصال به و بأيدي مرتعشة ضغطت على زر الاتصال و كلي ترقب و انتظار فاذا بصوت رجل اجش يقول لي :

- آنستي هل أنت بخير ؟

- من أنت؟! .. هل تعرفني ؟

- اهدئي قليلا و اسمعيني هل تتذكرين ماذا حدث بالأمس؟

- هل هناك شيء يجب أن أتذكره و الأهم من أين أتيت برقم هاتفي ؟

- آنستي هل تتذكرين الشرطي الذي أتيت إليه للإبلاغ عن والديك ؟

فرحت أسترجع ذاكرتي فبدأت الصورة تتضح شيئا فشيئا و الكابوس بدأ تجسد أمامي فقلت بصوت مهزوز و مرتعش :

- هل تخبرني أن و الد...

- للأسف حالتهما خطيرة و هما الآن في العناية المركزة ، أنا أعلم أنك في صدمة الآن، لكن إهدئي قليلا .

ما الذي يقوله هذا المعتوه، كيف يخبرني أن أهدأ ؟! ، كيف يخبرني و عقلي لحد الساعة لم يتقبل الفكرة بعد ؟ كيف و هما الوحيدان المتبقيان لي و الآن يصارعان الموت و الحياة ، كيف يخبرني هذا الغبي أن أهدأ و قلبي يأبى الهدوء .

لكنني في الاخير تحاملت على نفسي و صمدت أمام الأهوال التي ضربت قلبي دفعة واحدة فلملمت شتات روحي و قلت له بصوت خالي من الحياة :

- في أي مستشفى ؟.

***

كل شيء انتهى.. ها قد أسدل ستار القدر و ارتفع تصفيق الحياة مستمتعة استمتاع الجمهور بالمسرحية .. مسرحية استطاعت تحطيمي و بعثرة قلبي إلى أجزاء.

هل هذه هي الحياة ؟ هل هي نفسها الحياة التي يتقاتلون عليها ؟ هل هي نفسها أم أنني أنا من أعيش في حياة أخرى ؟ كيف امكنها قتلي بهذه الطريقة البشعة ؟ و أي طريقة ؟! .. أن تسلب مني عزيزا قلبي و روحي و أن ترديني قتيلة بدون أن يرف لها جفن، لقد قتلتني بضربة واحدة، ضربة أوقفتني عن التقدم.

لقد كان كل شيء بسببي ، فأنا لليوم ألوم نفسي على ما حدث لهما ، لقد كنت السبب في انهما ذهبا لشراء كرة ثلج زجاجية لأنها أعجبتني يوما ، لذا قررا شراءها لي و مفاجأتي بها . و في الأخير تفاجأت أنا.

فأنا مازلت عالقة في ذلك اليوم و تلك المكاملة ، المكالمة التي أوقفت الزمن و قلبي عن الإحساس بالحياة .
فقد مر أسبوع كامل و أنا ما زلت في نفس اليوم الذي توفيا فيه والديَّ ، بالنسبة لي قد توقف الزمن قبل أسبوع من الآن ، اسبوع و أنا اقضم يدي ندما .. اسبوع و انا أتألم بصمت و لا أغادر غرفتي .. اسبوع و لم تسقط قطرة واحدة من عيني، كل ما استطعت فعله هو تذكر الذكريات في الواحدة بعد منتصف قلبي و أتألم، أتألم بصمت، كمخلوق لم يعرف الإحساس مرة و لم تصل السعادة لقلبه يوما .. اسبوع كامل و أنا مشتتة بين العودة للحياة و بين الابتعاد أكثر وأكثر.
و لكني على الأقل كنت محظوظة لأنني لم أكن وحدي ، و الا لانتهى بي الأمر في الأخير الى الجنون.
فمنذ ذلك اليوم و لحد الساعة و خالتي تلازمني و لم تتركني وحدي أبدا، هي التي كانت دائما بجانبي و ما تنفك تخبرني بأنه ليس ذنبي ، فبالرغم من صمتي الدائم و انعزالي عن كل شيء إلا أنها كانت و بطريقة ما تخفف عني، و معها يشعر قلبي بقليل من الراحة لأنها كانت تفهم صمتي على انه حديثنا اليومي ، و لم تكن تنزعج و لو قليلا بل على العكس كانت في كل مرة تحبني و تحاول أن اخرج من عزلتي.
لذا باختصار هي كانت شعاع الأمل الصغير الذي يضيئ قلبي و يمنعه من الإنطفاء تماما.
قطع حبل أفكاري دخول خالتي و هي تقول بصوتها الرقيق :
- ما الذي تفكرين به؟!
- لا شيء مهم، مجرد أفكار تأتي و تذهب.

فتنهدت و قالت بأسى :
- إلى متى ستبقين على هذه الحال يا توليب ، هاه! أخبريني، لقد مضى اسبوع و أنت على هذه الحال منزوية و مقصية عني ، بالكاد أراكي تبتسمين ، ما مضى قد مضى و لا داعي للتفكير فهو ليس ذنبك ولا خطأك فهذا قضاء و قدر فلا تحملي نفسك اكثر مما ينبغي .. أين ذهبت تلك التي لا تفارق الضحكة وجهها ، أين ذهبت تلك المفعمة بالأمل و الحياة ؟ ، بالكاد أراكي تأكلين و تشربين، و بالكاد ألمح ظلك ، أنا أقول لك هذا في مصلحتكِ يجب أن تذهبي إلى معالج نفسي لكي تتغلبي على صدمتك ، فلقد حان الوقت لكي تتجاوزي و تكملي حياتك إلى متى ستب..
- خالتي يكفي !!
قلتها بانفعال و غضب ليس منها ، بل من نفسي لأن كل ما قالته صحيح, إلى متى سأبقى على هذه الحال؟ الى متى سأبقى منفصلة عن الواقع ؟ الى متى سأبقى عالقة في دائرة الذنب ؟
فندمت فور رؤيتي لتعابير وجهها الحزينة ، فقلت بعدها بأسف :
- أنا آسفة يا خالتي لم يكن يجدر بي أن اصرخ عليكِ فمعكِ حق في كل ما قلتِه سامحيني.
- لا تتأسفي يا زهرتي ما كان يجب علي أن أتحدث معك في الموضوع من المرة الأولى و أنا أعلم أنك حساسة تجاهه ، لكن ما الذي أفعله و أنا أراكي تذبلين كل يوم و منطفئة تماما.
فأجبتها بصوت منخفض و بشرود :
- لو كنت أستطيع لغيرت من نفسي يا خالتي لكنني عاجزة و بالتحديد عالقة ولا قوة لي للتحرك أو الاستمرار, أنا عالقة.

***

فتحت عيني بتثاقل و شعاع شمس رقيق أضاء غرفتي المظلمة ، فنهضت من السرير و إذا بصداع قوي يفتك برأسي، و هذا بعد معركة طويلة ليلة أمس في تمام الساعة الثالثة فجرا بيني و بين أفكاري .

ها قد استيقظت في تمام الساعة السابعة و كأن أمي برحيلها تركت لي عادة الاستيقاظ باكرا للذهاب للعمل .. العمل !؟ فتذكرت كيف أن بعد وفاة والديَّ ب ثلاثة أيام كيف اتصل بي المدير ليخبرني أنه علي العودة لأنه هناك عمل كثير يجب القيام به ، فتذكرت نبرته المتجهمة و أنا أخبره بعدم إمكانية ذهابي .
- أنت تعلم بأنه لم يفت على وفاة والديَّ أربعة ايام كيف تخبرني أن أعود ؟

-انا أعلم لكن أنت تعلمين طبيعة العمل ، و غيابك غير المبرر هذا سيقضي علينا !
-غيابي غير مبرر ؟! كيف تخبرني بأن غيابي غير مبرر يا هذاا !
-كيف تجرؤين على مخاطبتي هكذا ؟ من أنتِ أصلا لترفعي صوتك على مديرك من اليوم أنت مفصولة و تعالي لأخذ أشيائك غدا !
لم أدري بشيء إلا و أنا في مكتبي أجمع أشيائي وسط نظرات زملائي .. وسط نظرات التشمت و الاستغراب و الشفقة ،و انا واقفة بينهم بكل كبرياء وتخلي .

من يقول أن الكلمات وحدها تقتل فأنا أقول أن نظرة واحد فقط قد تكون كافية لتقتل أكثر من ألف كلمة و ألف فعل .. فاضطراري للتخلي عن حلمي الذي تعبت من أجله و الذي أصبح يشعرني بالرتابة في آخر الأيام قد جعل مني شخص لا يدري هل يشعر بالراحة أم لا .
شخص ما بين الراحة و التعب.
فأيقظني من تفكيري صوت خالتي و هي تصيح :
- هيا أيتها الكسولة اسرعي فاليوم لديك يوم طويل لقد اعددت الفطور، اذهبي و اغتسلي و أنا سأنتظرك لنفطر سويا!.
- خالتي لماذا كل هذه الجلبة و لماذا لدي يوم طويل ، هل أنا ذاهبة لمكان ما؟
- هل نسيت بسرعة ، لقد قلت لي البارحة انك مستعدة للذهاب لمعالج نفسي .
- ماذاااا !! انا لم أخبرك هذا أبدا يا خالتي .
- لكنك وافقت مبدئيا و سكتت و السكوت علامة الرضا .
لا أعلم خالتي كيف فسرت موقفي لكن الذي أعلمه أنني لا أريد الذهاب لأي طبيب .
- خالتي أنا لست مستعدة و انت تعلمين بأنني لا أريد الذهاب .
فحاولتُ اعطاء حجتي دليلا ليبرهن رفضي :
- و حتى لو أريد الذهاب يجب البحث عن طبيب ماهر اولا ، فمعظم الأطباء لا يعرفون سوى نهب الأموال لمصلحتهم الشخصية ، و بعدها يجب أن نأخذ موعد.
ففاجأتني بإبتسامتها الرقيقة و التي أبرزت غمازتيها :
- لحسن الحظ ان صديقتي تعرف طبيب نفسي ماهر و سبق و اخبرتها عنك و هي حددت موعدا معه اليوم .
فصمتت و كأن جميع كلمات العالم أجمع قد اختفت ، فلم أشعر إلا بيدها و هي تدفعني للمطبخ و هي تثرثر بسعادة.. و لا تعلم شيئا عن الحرب و الفوضى التي أقامتها داخلي.

لطالما تساءلت هل الأموات يعرفون ما يحل بنا ؟ هل يشعرون حين تكون قلوبنا متألمة و بدموعنا حين تتساقط؟..
لطالما تساءلت هل الأموات أموات في الحقيقة؟
لكني عرفت حين فقدت والديَّ أن الأموات ما هم الا أموات الجسد فقط ، أما ارواحهم فستظل دائما تطوف حولنا و تحرسنا ، او نجوما متلألئة تزين سمائنا و تؤنس ليلنا الطويل، فعرفت أن ذلك الموت ما هو إلا موت أصغر هامشي أما الموت الأكبر فهو يكون حين ننساهم.
نحن نموت حين ينسانا من فتحنا لهم قلوبنا و جعلناهم خالدين في ارواحنا.

فحين رأتني أمي ابكي على جدتي في عمر التاسعة قالت لي أن الأموات ما هم إلا نجوما تأتي لزيارة الأحياء حين يشتاقون إليهم ، و منهم من يأتي حين يشعرون أن أحبائهم يتألمون و ايضا ليتأكدوا من عدم نسياننا لهم ،ثم نظرت بحنان إلى النجوم و قالت لي " فما النجوم إلا أرواحٌ انتهت مهمتها في الأرض و ستبدأ الآن مهمتها الأخرى في السماء ".

جل ما فهمته من كلامها وقتها ان جدتي رحمها الله اصبحت نجمة من نجوم السماء لكنني حين كبرت فهمت ان النجوم تبقى نجوما في الاخير لكنها ستبقى تذكرنا بالأرواح التي غادرتنا بهدوء.
فمع الوقت ستُفتح بوابة تلاشينا و موتنا ببطئ.. رويدا نموت لكن لا أحد يلاحظ ، رويدا نتألم ، رويدا يغلف الظلام قلوبنا حتى تستحيل التفرقة بين الظلام و النور ، رويدا يبدأ النبض في التلاشي ، رويدا يبدأ القلب بالتوقف.. حينها يأتي الموت الأصغر ليأخذ روحا شوهتها الأيام.
يأتي ليأخذ رفات ما بقي منا و يرحل و معه أرواح تآكلت قلوبها قبل أجسادها .
-توليب عوض !!
أيقضني صوت رقيق من هذه الأفكار التي ما تنفك و تأتيني ، فنظرت بشرود للممرضة التي نادت اسمي ، فتساءلت ما الذي أحضرني لهذا المكان المليء برائحة المجانين ، ما الذي جعلني اوافق خالتي في هراءها .
صحيح أنني وافقت مبدئيا لكنني لم أكن أعلم أنني سأشعر بهذه الطريقة شعور لم أفهمه ، و لم أستطع تفسيره بالكامل ، شعور كمن يريد الموت لكنه ينتظر انتظار اليائس لحبل الأمل لينتشله من البؤس الذي يغلف روحه الهشة .
و فوق هذا كله لم اجعل خالتي ترافقني لكي أستطيع الهرب في اي لحظة,فنهضت و حملت حقيبتي لمغادرة المكان على الفور فإذا بالممرضة تعيد :
-هل توليب عوض هنا ؟

فنظرت إليها و إلى حقيبتي و ظللت أنقل نظري بينها و بين حقيبتي و العديد من الافكار تدور داخل رأسي ،ثم حزمت أمري اخيرا و تنهدت ثم قلت بصوت منخفض كمن جاء على ارتكاب ذنب لكنه في آخر لحظة عدل عن الأمر .

- أنا هنا!

فذهبت معها و كأنني ذاهبة إلى حتفي ، كزهرة ذابلة تنتظر يدا يائسة لكي تقطفها.

فأنا لم أكن أعلم أني بدخولي من هذا الباب ستنقلب حياتي رأسا لا عقب فيها و لا نجاة.

لو علمت لما استمعت لكي يا خالتي.

***

هل هذا حلم؟
هل هذا وهم أم حقيقة ؟ هل هما نفس العينين اللتان قابلتهما قبل أسبوع ؟.هل هو بطلي الغريب و نفسه الذي شغل تفكيري؟ يالجمال الصدف و جمال القدر الذي حطمني ؟. لوهلة نسيت السبب الذي قادني الى هنا , فهذه المرة لم يكن القدر هو من جاء لي ، بل أنا من ذهبت إليه بقدمي هاتين .
فأنا لطالما تعودت على البحث و التمسك بالأشياء التي أحبها ، أتمسك بها خوفا من ألم جديد و خوفٍ من فراغ ينتج وراء غياب موحش.. لطالما كنت ألهث وراء الأشياء التي أحبها ، أبحث عنها بيأس حتى يتعب قلبي و تتهالك يداي.

لكنني في الأخير علمت أن المحاولات ما هي إلا بحث عن فراغ مجهول يجعل من القلب اسيرا للبدايات الخادعة ، فتركت و تعلمت أن اليد التي لطالما تمسكت بطرف القدر ما هي إلا محاولة أخرى لصفعة جديدة و تجربة اخرى .
لهذا تركته للقدر و لم أفكر كثيرا، و هاهو القدر نفسه يأخذني إليه .
قدر مناسب في الوقت الخطأ.
- هل أنت توليب عوض ؟
أيقظني من أفكاري صوته العميق و الذي كان سببا في إنهيار أسوار قلبي ،فمنذ دخولي إلى مكتبه و أنا كالبلهاء أحدق إليه كالتي انبهرت بلوحة أو اغنية أو بيت شعر قديم ، فتمالكت نفسي و أجبته بصوت منخفض:
- نعم أنا هي .
هل يتذكرني ؟ .. هل تعرف علي ؟ ام أنه رآني مجرد امرأة تحتاج للثرثرة ؟, هل لاحظ انبهاري أم انه تعود على تحديق النساء به ؟
العديد من الأسئلة التي طرأت في قلبي والني لم أجد لها جواب مقنع ، و المحير في الأمر أنني لم اكن أستمع لأي كلمة يقولها ، فكل ما استطعت فعله هو تأمل عينيه الشبيهة بقهوة الصباحات الماطرة و افكر بكيف للخالق ان يخلق شيئا كهذا يخطف الأنفاس في لحظة.
فإنتبهت أنني و منذ دخولي اليه و أنا أنظر إليه مبهورة القلب و الملامح،و متأكدة ايضا أنه لاحظ ذلك فأي شخص كان سيلاحظ. فكيف بهذا الغريب أو طبيبي إذا صح القول الذي يقرأ لغة العيون قبل لغة الشفاه .
- إذا! أخبريني عن نفسك قليلا يا توليب فأنا ارى ان اسمك نادر ، من أعطاكِ هذا الاسم ؟
لقد ضرب الوتر الحساس و بقوة ، لكن الذي جعل نبضات قلبي تتسارع ليس تذكري لوالديَّ بل اسمي الذي خرج من فمه حلوًا كترنيمة السلام، فأجبته بصوت منخفض و

مقتضب:
- والديَّ .
فنظر لي نظرة طويلة و عميقة كأنه يحلل جوابي ،ثم قال بهدوء :
- حسنا أرى أنهما اجادا اختيار اسمك فهو مميز. ثم تابع :
- هل ترين الكوابيس ليلا ؟
فأجبته بصراحة و دون ان ارفع رأسي :
- أن الكابوس الوحيد الذي أراه دائما هو حياتي .
رفع احد حاجبيه و كأنه فهم تلاعبي بالكلمات ، حينها قرر مجاراتي و قال بمكر خفي:
-إذا هل تقولين أنكِ تريدين الموت ؟
فأجبته بصوت منخفض :
- لست أقول إنني أريد الموت ، بل أن حياتي في حد ذاتها كابوس ، كابوس أريد الإستيقاظ منه لا أن أموت فيه أو منه هناك فرق .
فنظر لي نظرة عميقة و غامضة كتلك حين تشابكت طرقنا لأول مرة ، نظرة كانت تحمل الكثير و الكثير فأحسست لوهلة أنه تعرف علي ، فنظرت إليه بدوري لأقرأ ما الذي يدور في رأسه و في عينيه, ثم غرقت. فلم أستطع إبعاد عيني عنه, و كلما أردت إبعادهما أجد أنني أغرق فيهما أكثر و أكثر .
فوجدت نفسي أقول له لا إراديا و دون أن أبعد عيني عنه :
- إذا, هل تستطيع انتشالي من هذا الكابوس ؟
فأطرق برأسه ثم أجابني بصوته العميق و الواثق :
- إذا لم أستطع أنا من يستطيع ؟.
فأحسست بالخجل لأنني و لسبب غريب أحسست أنه قالها عن عمد ليثير ركن الفضول لدي ،كأنه عرف أن الفضول هو صفة من صفاتي.
لا أدري ما الذي أصابني ، فهذه أول مرة أتلعثم فيها هكذا و لا أجد ما أقوله ، فأنا لا أدري و لحد الساعة أين ذهبت صاحبة الخامسة و العشرون التي تجد الردود دائما، فالتي أراها أمامي مجرد طفلة خجولة لا يزيد عمرها عن سن الخامسة .
ثم تابع حين لاحظ صمتي :
-انتِ لم تخبريني بعد ما الذي تفعلينه في حياتكِ ؟
فشعرت بالضياع و لم أعلم ماذا اقول له فردودي كلها تبخرت و ذهبت بسبب حضوره , لذا قلت اول شيئ تبادر لذهني لكي اهرب من سطوته:
- هل استطيع أن أخبرك المرة القادمة فهذه هي المرة الأولى لي و انا أشعر بالضياع و لا أعلم ماذا أقول .

فبقي ينظر لي نظرته الغامضة ثم اطرق برأسه هو يحدد موعد آخر على الساعة التاسعة صباحا يوم الأربعاء ، ثم وقف فبدا أكثر طولا و كتفيه أكثر عرضا ،و قميصه الأسود الأنيق تحت مئزره الأبيض أبرز عضلات صدره القوية ، كيف يعقل أن يكون بهذه الجاذبية ، هو ليس وسيما ابدا ، بل لديه جاذبية و سحر خفي يجعل الحواس تتبلد و القلب يخفق.

-إذا نلتقي يوم الأربعاء.

قالها بإقتضاب ثم مد يده ليصافحني بمهنية اكتسبها عبر السنين ، و أنا مددت يدي بخبرة قرأت عنها في آلاف الكتب فتبخرت كتبخر الهواء أمامه ، ثم نظرت إلى يده الكبيرة الممدودة و وضعت يدي داخلها بإرتباك ، و إحساس بالدفئ اخذ بالتسرب إلى روحي ،فأحسست بتيار كهربائي حلو اصاب جسدي و قلبي على حد سواء .

فقلت له بصوت مرتبك و ابتسامة خجول :

- إلى اللقاء .

ثم نظر مباشرة لعيني و ضغط عليها برفق و قال :

- إلى اللقاء .

***

جلست أراقب خالتي و هي تتحرك هنا و هناك بخفة الفراشة، هنا تتحرك فتضع هذا الطبق فوق الطاولة ، و هناك تعود للمطبخ لتحرك الحساء.. و أنا هنا أفكر هل يجب أن أشكرها لأنه بفضلها استطعت مقابلة بطلي الغامض ؟ام أشكر صديقتها لأنها قادتني اليه؟ ام هل يجب أن أشكر القدر لأنه جمعني به ؟

- خالتي هل تريدين أن اساعدك ؟.

فإبتسمت ثم قالت بهمس سمعته :

-اخيرا انتِ هنا . ثم تابعت بحماس :

- لا , لا داعي فأنا بالكاد انتهيت كما انكِ لست في وضع يسمح لكي أن تساعدي.

- ماذا تقصدين ؟.

- لا, لا أقصد أي شيء فأنتِ متعبة كما ان عقلك في مكان آخر .

فلم اجبها و نظرت لها و ابتسمت ابتسامة جانبية فجاءت و عانقتني بغتة و هي تصيح :

-لقد رأيتها !!! رأيت ابتسامتك و انا سعيدة مهما كان السبب انا ممتنة أنني رأيت ابتسامتك أخيرا بعد طول انتظار .

ثم ابتعدت و قالت بحنان :

-لا أريد رؤيتك حزينة بعد الآن و لا تقلقي انتِ لست وحيدة أنا معكِ .

فإبتسمت لها بإمتنان و أنا افكر فيه و ما الذي فعله بي ، لقاء واحد فقط و قد ابتسمت اخيرا فمنذ أن عدت للمنزل و أنا لست في كامل قواي القلبية ، فأنا لم أكن أتصور أنني سأكون بهذا الإرتباك و التشتت ، ما الذي يحدث لي ؟ لماذا هذا التحول الكبير في قلبي و وجهي ؟ و لماذا قلبي ينبض هكذا حين أتذكره .
هل يمكن أن تكون خرافة الحب من أول نظرة صحيحة ؟
فقاطعت افكاري خالتي و هي تقول بحماس :
-انتِ لم تخبريني بعد كيف كانت جلستكِ و انني واثقة كل الثقة ان هذا التغير بسببه هل أعجبك؟
-نعم كثيرا .
-هاه ماذا قلتي ؟
-قلت لكِ نعم هو يجيد عمله و من طريقة كلامه يبدو ماهرا جدا .
فإبتسمت خالتي و هي تصيح بطفولية :
-لقد اخبرتكِ !! إن صديقتي بقيت تثني عليه و قد قالت أيضا أنه صغير في السن و جذاب هل هذا صحيح ؟
فقلت لها بمكر:
-هل تفكرين في خيانة خالي؟.
فابتسمت و لم تجب و لكي اغير دفة الحديث عنه قلت لها :
-سأعد المائدة بينما يجهز الحساء .

***

أخذت نفسا عميقا قبل أن أدخل ، لم أكن أتصور أن يوم الأربعاء قريب جدا لهذه الدرجة ، يوم الأربعاء كان بالنسبة لي يوم عيد لأنني سأراه مرة أخرى ،سأرى من سهرت يومين و ليلتين كاملتين بظلامها و نجومها أفكر فيه ،سأرى من نبض له هذا القلب .. هذا القلب الذي لم ينبض لأحد غيره ، كأنه كان بإنتظاره .. لا أعلم أين و متى و كيف حدث هذا لكنني وجدت نفسي منجذبة إليه انجذاب المطر للأرض. .
فنفضت عني هذه الأفكار و فتحت الباب بثقة ثم دخلت و لأول مرة ألاحظ مكتبه كما لاحظت اسمه ، فالمرة السابقة كنت مغيبة و لم انتبه لشيء سوى وجهه و عينيه .
فكان مكتبه مكتب أنيق من الخشب المصقول الأسود و فوقه لائحة مكتوبة عليها "الطبيب النفسي قيصر نجم الدين" إذا إسمه قيصر ! إسم نادر و جذاب كندرة تأثيره و جاذبية حضوره ؛و على الجدار الأيمن شهادات كثيرة معلقة، فلفت انتباهي شهادة مكتوبة باللغة الإنجليزية من جامعة اكسفورد ، ماذا؟! هل درس في انجلترا!

فلم انتبه له سوى حين اخبرني بصوته العميق أن أتفضل بالجلوس, فلاحظت نصف إبتسامة على شفتيه ، لابد أنه لاحظ تأملي لمكتبه و شهاداته المعلقة فجلست و الخجل و الإرتباك مرسوم على ملامحي.. ثم عاودت النظر إليه فوجدته ينظر لي نظرة لم أفهمها ، نظرة تسلية كأنه مستمتع بإرتباكي أمامه .. لماذا هو هكذا ! لماذا يربكني حضوره و وجوده، حضوره فقط كفيل بإختفاء الهواء من رئتيَّ ..كيف سأصمد يوما آخر ، او أياما إن صح و ممكن أشهر. كيف يمكنني النجاة ؟
- كيف تشعرين اليوم ؟
إنتفضت أثر سؤاله المباغت ثم أجبته بصوت منخفض مقتضب :
- بخير .
-هل نمت جيدا ليلة البارحة ؟
كنت سأقول لا لم أنم بسبب أرَق تفاصيلك و قلبي المبعثر، لكن عوضا عنها قلت بإقتضاب :
- قليلا.
-لماذا ؟ هل كوابيسك لا تجعلك تنامين ؟.
- كوابيسي أراها حتى في حياتي اليومية و ليس حين أنام فقط .
ثم نظر لي نظرة لم أفهمها و قال :
-إذا هل تخبرينني أن كوابيسك ترينها في الحياة الواقعية و تأتيك يوميا ؟
فأجبته بصوت منخفض و هادئ :

- انا ارى كوابيس حين انام فقط كما انها تأتيني أحيانا فقط .
- و فيما تتمثل هذه الكوابيس ؟.
أطرقت برأسي إلى الأسفل و لم أجبه ، لأنني لم أعرف كيف أصف له أو أخبره بذلك المشهد الذي يعاد مرارا و تكرارا، كفلم كلاسيكي يستمر في تكرار أحداثه.. ذلك اليوم الذي رأيت فيه والديَّ في المشرحة .. وجههما المغطى بالخدوش .. برودة جسديهما .. و أعينهما المغمضة المستسلمة ، و كل هذا كان بسببي انا .
لم أكن أعلم أنني سأتأثر بموتهما بهذا الشكل فعقلي لا ينفك و يعيد لي السيناريو الذي سئمت منه ، كل يوم و في كل ساعة و دقيقة أتذكر ذكرى حضورهما و تفاصيل وجهيهما .. جسدهما الخالي من أي شكل من أشكال الحياة .. كل شيء كان يوحي لي أن الأمر إنتهى إلا أن قلبي أبى أن يصدق و عقلي أبى أن يستوعب,كل هذا و تساؤلات عديدة كانت تنخر عقلي .. كيف كانت لحظتهما الأخيرة ؟ بماذا شعرا ؟ هل شاهدا شريط حياتهما و هو يمر أمام عينيهما ؟ و هل تألما كثيرا ؟.
فلم أشعر بنفسي إلا و انا اقضم اظافر يدي كعادتي اللاارادية و الدائمة حين اتوتر و اتألم ، فنظرت له و لم أعلم فحوى نظرته العميقة التي كانت تنتقل بيني و بين يديَّ لكن الذي أعلمه أنها جعلت الفراشات بداخلي تنفجر و تنعكس على وجهي .
ثم اعاد بصوته العميق :
- ماهي هذه الكوابيس ؟
فأجبته بإقتضاب وبصوت متحشرج :
- ظلام و موت .
- كيف ظلام و موت ؟!
- ظلام الحياة و خسارة أعز ما أملك .
- إذا هل تعنين أنكِ فقدت عزيزاً على قلبك ؟
فأطرقتُ برأسي للأسفل و صمتت ليس لأنني لا أريد التحدث بل لأن الكلمات و الثقة اللتان دخلت بهما تبخرتّا كتبخر المياه .. لا أدري هل بسبب نظرته المصوبة نحوي؟ أم بسبب ارتجاف قلبي أمام حضوره؟ أم بسبب صدمة موتهما التي ألجمتني عن الكلام ؟.
فإستجمعت قواي الباقية و إن كانت قليلة ، ثم رفعت رأسي و نظرت له و قلت بصوت هادئ :
- نعم, أنا فقدت أعز ما أملك بسببي.
- كيف بسببكِ؟
فسكتت و لم أتحدث و بقي هو ينتظرني أن أكمل الا انني لم أستطع .ثم تنهد و اطرق برأسه و كتب في اوراقه ثم قال:

- الفقدان هو جزء من هذه الحياة و جميعنا فقدنا و خسرنا..ليس هناك شخص بلا فقدان أو وجه بلا خيبة نحن فقدنا و مضينا و فاتتنا المحطة و ركبنا في التي تليها و خاننا رفاق الطُرق و أكملنا وحدنا .. لن تتوقف الحياة عند الفقدان و الخيبة و المحطة و الرفاق ، بل تتوقف الحياة حين تكونين أسيرتها ، حين تعتقدين أن الوحدة ألم و أن المحطة واحدة و الرفيق واحد ، المشكلة في ذلك الواحد الذي ترينه انتِ ترين الواحد على أنه واحد وحيد منفرد ولكنك لا ترين أنه هناك اثنان و ثلاث و أربع .. الحياة فُقد و خسارة ، لكن إن لم تعرفي كيف تغيرين الخسارة بالفوز و الظلام بالنور و الموت بالحياة و الواحد بالإثنان ، فستبقين أسيرة للذكريات و محاطة بالأوهام.

بحثت داخل رأسي المجوف الذي كان فيه الكثير من الردود و لم أجد ماذا أقوله له أحسست بشيئ داخلي يتحرك ، لا أدري ما هو .. لكن الذي أعلمه أن كلامه دخل في أعماق روحي ،فلا أدري هل تأثرت بسبب كلامه؟ أم بسبب صوته العميق؟.

لم أجبه لكني بقيت أنظر إلى عينيه و هو بدوره بقي ينظر لي فتشابكت النظرات و إرتجف قلبي و أصبح يعزف سيمفونية حلوة و عذبة .. لا أدري لماذا شعرت فجأة أنه تعرف علي ، نظرته كانت تقول الكثير و الكثير لكني لم أستطع فهمها .
ثم فجأة و بدون سابق إنذار قال لي :
- كم عمرك يا توليب ؟
أكثر شيء أرعبني في تلك اللحظة أن يسمع صوت دقات قلبي العالية ، فعندما قال اسمي ببساطة لم أستطع ان أتحمل أكثر فأجبته بصوت هامس مضطرب :
- عمري ٢٥ .
عندما أخبرته لاحظت علامات الدهشة على ملامحه ، هل كان يظنني أكبر أم أصغر ؟!
فقال بنبرة ممازحة :
- إذا في هذه الحالة أستطيع أن أناديك ابنتي .
- لماذا !
-لأنكِ تبدين صغيرة في السن كما انه هناك فرق عمر كبير بيننا .
-لماذا كم عمرك ؟
- أنا في ٣٤.
فنظرت له و ابتسمت لأنني كنت اعلم ان عمره في الثلاثينات و لم أعلق ,حينها قال:
- سأنهي الجلسة هنا دعيني أرى متى سيكون موعدك الثالث
- أيها الطبيب أيمكنك أن تجعل الجلسة في المساء ؟

- لماذا المساء ؟
- لأنني لا استيقظ باكرا .
- حسبتك تعملين.
فإبتسمت بألم و قلت بلا مبالاة :
- كنت اعمل و طُردت .
بقي ينظر لي نظرته المبهمة و الغامضة ثم قال بصوته العميق :
- بشرط واحد .
فنظرت لعينيه و قلت بحيرة :
- ما هو ؟!
أن تناديني قيصر و ليس بالطبيب ، فهذا يشعرني بالغرابة .
- لماذا بالغرابة ؟
- أنتِ الآن أصبحتِ مريضتي لذلك أريدك أن تسقطي الألقاب .
- حسنا ، إذا اجعل الجلسة في المساء .
حينها نهض من على كرسيه و لاحظت فرق الطول بيننا فمد يده و قال بصوته العميق :
- يوم السبت إذا على الساعة الرابعة مساءً هل يناسبك ؟
فنظرت لعينيه و وضعت يدي في راحة يده و ابتسمت و قلت :
- نعم يناسبني جدًا أيها الطبيب
فنظر لي نظرة تهديد فإبتسمت له و قلت :
- قيصر .

***

استيقظت كعادتي فأعددت فطوري ثم ساعدت خالتي قليلا في أشغال البيت ثم تناولت الغداء، و الآن أنا جالسة أمام النافذة أراقب المطر و أرسم أشكالا عبثية على الزجاج .. فالمطر ذكرني بلقائي الأول به، لهذا صرت من محبي الأجواء الماطرة و الباردة لأنها تذكرني به .

- هل سمعتِ ما قلت ؟

قطع شرودي صوت خالتي و هي تكلمني :

- آسفة خالتي ماذا قلتي ؟

- اِذهبي إلى المحل و أحضري لي هذه المشتريات بسرعة.

-خالتي انتِ تعلمين أنني لا أحب الخروج لا أشعر بالراحة .

-لماذا لا تشعرين بالراحة فأنا لاحظتِ انكِ تغيرتِ و هذا التغير اسعدني لذا أريد العودة للأيام القديمة حين كنتِ تحضرين لي المشتريات و انتِ صغيرة .

فنظرت للورقة التي بيدها و قلت بإحتجاج :

- لكن خالتي المطر غزير !

- سأذهب أنا إذا و إبقي أنتِ هنا و أعدي العشاء .

كنت أعلم و هي أيضا تعلم بأنني سأقبل لذا قلت و أنا أصّر على أسناني :

- حسنا سأذهب أنا أعلم أنكِ ماكرة كبيرة.

فضحكت و قالت :

- أعلم و أنا فخورة بنفسي كثيرا ، هيا أسرعي و لا تتأخري لأنني أحتاجهم .

خرجت و أحكمت أزرار معطفي البني و حملت المظلة و ذهبت أجوب الطرقات و أبحث بنظري عن محل مفتوح فبرودة الطقس مع هطول الأمطار و الرياح القوية جعلتا من الشارع كئيب و وحيد و أنا هنا أمشي وحدي لقرابة النصف ساعة و أنا أدقق في المحلات المغلقة علي أجد واحد منهم مفتوح ، و بينما أنظر إليهم فإذا برياح قوية جعلتني اتراجع و أُسقِط مظلتي التي اختفت في لحظات, فرُحت أركض بين البرك الموحلة و ألعن في سري خالتي و هذا الحظ السيئ الذي جعلني ابتل في دقائق معدودة من رأسي حتى أخمص قدمي.

و في خضم لعني وجدت محل صغير مفتوح في ركن مقصي لكنه يفي بالغرض، فذهبت إليه مسرعة و أنا اتمنى ان أجد فيه ما احتاج.

- السلام عليكم

قلتها و انا مرتبكة و خجولة و لم انتبه للرجل الذي كان ينظر لي نظرة شفقة و ملامحه تشع طيبة و قال :

- و عليكم السلام يا ابنتي ، أرى أنكِ رحت ضحية هذه الأمطار .

فقلت له بصوت منخفض و انا اكاد اتجمد إثر برودة جسدي :
- نعم فكما ترى المطر قد نال مني تماماً .
- إذهبي للحمام و جففي نفسك و ستجدين هناك مناشف نظيفة .
فنظرت له نظرة امتنان و شكر و ابتسمت له و قلت :
- شكرًا لك يا جدي على لطفك الكبير .
- لا شكر على واجب هذا أقل شيء أفعله .
فذهبت للحمام و نزعت عني معطفي المبلل و حقيبتي و انا اتمنى ان لا يصيب هاتفي نفس ما أصابني ، فحملت المنشفة و رحت أجفف بها شعري ثم انتقلت إلى حذائي المبلل ، فنظرت إلى ساعتي ووجدتها الخامسة و نصف ، يا إلهي لقد تأخرت ! .. فتذكرت خالتي لا بد أنها قلقة علي ! ..
حملت الهاتف لأتصل بها فوجدت ما خشيت مواجهته و أنه مبلل بالكامل ، فجففته سريعا و هممت بتشغيله فإذا به منطفئ بالكامل ، شغلته لكنه لم يشتغل ، لا بد أن الماء تسرب للداخل ما العمل ؟!.. ماذا أفعل ؟ كيف أخبر خالتي؟ فتذكرت هذا الجد الطيب سأطلب منه أن يعطيني هاتفه لأتصل بها ، فوضعت المنشفة على رأسي و خرجت أقول :
- أيها الجد هل لديك ها..
بترت جملتي لأنني رأيت ما جعل نبضات قلبي تتسارع ليسقط ارضا، فعيناي لم تستوعبا ذلك ، كيف حدث هذا ؟ لماذا هو هنا ؟ هل يسكن بالقرب ؟ و هل يعرف هذا الجد ؟.
العديد من التساؤلات طرأت في بالي لحظتها لكن الجواب واحد .. هو أن القدر قد عبث بي مرة اخرى ، فنظر لي نظرة عميقة أذابت قلبي و روحي و أنا تهت فيه بسبب مظهره الذي لم أعهده من قبل فهذه أول مرة أراه بمظهر عادي رياضي غير الملابس الكلاسيكية التي يرتديها
في الاخير لقد وجدت ما كنت احتاجه.
- ما الذي قلتِه يا ابنتي ؟
قطع شرودي صوت ذلك العم فأجبته بصوت مرتبك و مرتجف:
- هل لد ..لديك هاتف لأنني أريد الإتصال بخالتي و هاتفي تعطل بسبب المطر .
- نعم لديّ تفضلي .
كل هذا و ذلك القيصر واقف بثقة يتأملني بهدوء و أنا أحمل الهاتف ، فكتبت الرقم بأنامل مرتعشة و ضغطت زر الإتصال و نظرته الهادئة لا تفارقني .
- ألووو !
فقلت بصوت منخفض متوتر :
- خالتي إنها أنا توليب .

- تووولييب أين أنتِ لماذا تأخرتي و لماذا هاتفك مغلق؟؟!
- أنا الآن أكلمك من هاتف صاحب المحل آسفة لقد تأخرت لأنني لم أجد محل مفتوح و لأنني ايضا تبللت بالكامل و مظلتي حملتها الرياح و هاتفي مغلق لأنه راح ضحية المطر الغزير، أتمنى أنني قد أجبتك على كل الأسئلة.
فتنهدت و قالت بصوت مليئ بالراحة :
- الحمد لله اعتقدت انه حدث لكِ مكروه .
- لا لم يحدث شيء لقد تبللت فقط هذا كل ما في الأمر .
ثم تابعت بصوت متوتر :
- اسمعي خالتي المطر مازال يهطل و أنا قد أتأخر و تلك الحاجيات غدا سأحضرها لكِ اما الآن سأنتظر المطر حتى يتوقف ثم أعود فلا تقلقي.
- حسنا لابأس خذي حذرك يا عزيزتي و أنا سأنتظركِ .
فأقفلت و بينما أعطي الهاتف للجد، ألقيت نظرة خاطفة لذلك الواقف بثقة و الذي بقي ينظر لي نظرة غامضة خالية من أي تعبير .
- شكرا جزيلا لك أيها الجد لولاك لم أكن أعلم ماذا أفعل .
قلتها بصوت متوتر مهتز غير واثق ، فوجوده في نفس المكان الذي أنا فيه يفقدني الثقة في نفسي و يجعلني من الصعب أن أتنفس..و تلك الدقات المتمردة أشعرتني بعدم الراحة و خصوصا حين استمر تحديقه بي بتلك النظرة .. لماذا هو ينظر لي هكذا؟ نظرة كشخص يريد الغوص فيك و معرفتك.
- أيها الجد جمال هل لديك مظلة ؟
مهلا ! هل يعرف هذا الجد؟، هل هو قريبه.. صديقه او جده ؟. فبسبب حضوره الغير متوقع و نظرته لم انتبه الا الان انه أتى أيضا ليحتمي من المطر فقميصه الأبيض مبلل و حذائه البالي خير دليل ، فأجابه الجد الجمال بعتاب ممازح :
- أيها المشاكس أنت لم تأتي الى هنا منذ ذهابك لإنجلترا ألم تشتق لهذا المسن ؟
فإبتسم إبتسامة جعلت قلبي يذوب فتلك الإبتسامة كانت لهذا الجد فما بال قلبي ارتجف و كأنها موجهة إليه ؟
- أنت تعلم أنني مشغول في العمل فأنا بالكاد أرتاح .
فأجابه الجد جمال بنبرة لطيفة :
- أعلم يا ولدي أعلم أعانك الله في ما تفعل و يسر لك طريقك .
ثم تابع بنبرة ممازحة :
- لكنني لن أسامحك لأنك قد قطعت صلتك بكل ما يوجد هنا.
كل هذا و أنا كالبهاء أستمع لهم دون أن اتفوه بكلمة واحدة و ألاف من الأسئلة تخطر على

بالي ، كيف يعرف هذا الجد ؟ و لماذا ذهب لإنجلترا و ماذا يقصد بقطع علاقته بمن حوله؟
لماذا أشعر بشيئ غامض و مريب ناحيته.
حبنها قال بشرود و بصوت غامض :
- قطعت صلتي بالواقع لأن في داخلي حياة أخرى أريد أن أعيشها .
ثم تابع بنبرة ممازحة :
- لقد إشتقت لك أيضا يا جدي سآتي المرة المقبلة لأزورك بما أنني استقريت هنا ، فأنا لم أكن أعلم أن المحل سيبقى هو نفسه بعد كل هذه السنوات .
ثم فجأة التفت لي و وضع عينيه في عينيّ ولم يبعدهما و أكمل بنبرة غامضة عميقة :
- هل هي صدفة؟
فأحسست بأن قلبي على وشك القفز من مكانه ، هل كان يقصدني حين قال ذلك؟ لماذا شعرت أنه قصدني فعينيه حين نظرتا لي كانت تقول الكثير من الذي لم أفهمه ،لكن الذي فهمته أنني شعرت لحظتها أنه معجزة جاء لإنقاذ ما تبقى مني .
انا أشعر أنني على قيد الحياة مرة اخرى.
ثم التفت لي الجد الجمال و نظر لي و قال بصوت هادئ :
- لا وجود للصدف يا بني.. الصدف يمكن صنعها بالمحاولة و التكرارات ، أما القدر فهو يأتي دون جهود و محاولات و تحكمه يد عليا لا قدرة لنا على مجابهتها فلتسمه قدر و ليس صدفة.
- لقد حولتك السنين إلى رجل حكيم أيها العم جمال ، قالها بنبرة ممازحة ثم تابع :
- و الآن أكرر سؤالي الذي طرحته في بادئ الأمر، هل لديك مظلة ؟
فقال العم جمال و الإبتسامة مرسومة على فمه المسن :
- حسنا حسنا لدي انتظر هنا دقيقة .
- توليب هل منزلكِ بعيد ؟
لم أكن أعلم أنه يخاطبني إلا حين نادى إسمي فنظرت له كالمشدوهة و على وجهي امارات الدهشة ، من قوله لإسمي بتلقائية بعثرت روحي و ليس قلبي فقط، فأجبته بصوت مضطرب منخفض :
- لا ليس بعيدا جدا على بعد شارعين فقط .
فهمهم بكلمات غير مفهومة ثم قال بإقتضاب :
- حسنا إذن .
ماذا يقصد بهذه ال حسنا ! و لماذا يسأل؟ ! .. فبدأت أستوعب حين فتحت عيناي بدهشة .. هل يعقل أنه سيرا..

- هاهي المظلة .
فأتى الجد و هو يعطيه المظلة فنظرت له و هو يحمل محفظته ليعطيه النقود ، ثم التفت ليغادر فتنهدت و ارتحت داخليا لأنه لم يفعل الذي فكرت فيه ، لكنه التفت فجأة و قال بصوته العميق و بنبرة بعثت القشعريرة لروحي :
- هيا سأوصلك لمنزلك .
هنا لم أستطع تحريك لساني لقول كلمات بسيطة فما بالك بقدمي ، كيف سأستطيع المشي معه و تحت مظلة واحدة و نحن متقاربان ؟ هذا يفوق قدرة قلبي على التحمل ، فلملمت شتات نفسي و قلت بصوت هادئ :
- لا عليك شكرا سأنتظر المطر حتى يتوقف ثم أذهب .
حينها تدخل الجد جمال و قال :
- إذهبي معه يا ابنتي فالساعة تأخرت و الحذر في وقتنا أصبح لزامًا ، و أيضا المطر لن يتوقف فهو سيستمر الليل بطوله .
هنا قال بصوته العميق و بنفاذ صبر :
- هل مازال لديك إعتراض ؟
لكن.. أن..ا لا..
فتجاهلني و قال للعم جمال :
- سررت بلقائك يا جدي في المرة القادمة سآتي لزيارتك .
ثم أدار رأسه ناحيتي و قال بإقتضاب :
- هيا نذهب.
حينها لم أملك أي حجة للرفض فهو وضعني في الأمر الواقع زيادة عن هذا فكلام الحد منطقي و الوقت تأخر و المطر مازال يتساقط ، فأمسكت حقيبتي و ارتديت معطفي على عجل ثم ألقيت تحية الوداع على الجد و خرجت وراءه.

- كيف حالكِ؟
هل يريد معرفة حالي ؟ كيف سأجيبه و أنا أيضا لا أعرف حالي ؟ فحالي منذ دخوله حياتي مضطرب و مشتت بين السماء و الأرض .. فأنا لم أكن أتخيل حتى في أحلامي أن نمشي متجاورين و قريبين معا في يوم ممطر و بارد .
هل أخبره أن حالي تبعثر منذ رؤيته و أنه ليس في كامل أحواله؟ أم أنه كان ها هنا لكنه حين رآك ذهب بعيدا؟.
هل أصبحت الحياة سخية عليّ أخيرا؟ هل ضحكت لي مجددا؟ هل يجب أن أشكر خالتي لأنها ارغمتني على الخروج ؟ أم أشكر القدر؟كيف سأخبره الآن أنني لست في كامل أحوالي ؟
لكن عوضا عن هذا قلت له بصوت منخفض مضطرب :
- أنا ..أنا بخير و أنت .
- بخير
قالها بإقتضاب و بصوت بارد لا مبالي ، فساد سكوت مزعج قطعه صوته العميق :
- هل تنامين جيدا ؟.
فأجبته بإبتسامة و بصوت مرح لا أدري كيف بدر مني :
- هل سؤالك هذا جزء من مهنتك كطبيب أم أنه سؤال عابر .
فأدار رأسه نحوي و نظر في عيني نظرة هادئة غامضة ، فأخفضت رأسي خجلا لأن نظرته اكدت لي فداحة ما قلت ، ثم قال بنبرة باردة :
- قد تكون مهنتي أحيانا متداخلة مع حياتي الشخصية .
فأخفضت رأسي و أنا أتساءل.. لماذا يجمع بين العديد من التناقضات؟ تارة يشعرني بدفئ يجعلني أريد التقدم ناحيته و تارة اخرى ببرود يجعلني اريد التراجع و الابتعاد ، هل حدث له شيء في الماضي جعله كثير التناقض ؟ أذهب لإنجلترا لأنه فقد والديه مثلا أم هل طلق زوجته و لم يرغب بأي شيء يربطهما مع بعض؟ ام هل تكون قد ماتت و تألم لدرجة قطع صلته بكل شيء هنا؟ ، ام هل خسر خطيبته و خانته؟.
- هل أنت كثيرة التفكير و الشرود دائما .
- عفوا !
- لا شيء يستحق أن تفكري به سوى نفسكِ .
فقلت بصوت منخفض :
- أعلم لكن و كما قلت انت منذ قليل ، فلدي انا أيضا حياة اخرى داخلي و هي التفكير .
فرفعت رأسي و رأيته ينظر لي نظرة لم أستطع تحديدها لكنها جعلت من قلبي يريد

الخروج حيث هو ، فبقيت أتأمل عينيه و كم وددت أن تبقى هذه اللحظة إلى الأبد ينظر لي فأنظر إليه و هكذا.
فأنا و هو لدينا لغتنا الخاصة و التي لن يستعملها غيرنا .. لغة حالمة و استثنائية اكتسفتها معه هو.
فلم انتبه لتلك الصخرة التي أوشكت على الاصطدام بها لأن يدا دافئا امسكت يدي فتذكرت لا اراديا أول لقاء بيننا .. نفس اليد .. نفس العينين .. نفس الشخص و نفس المطر و البرد .. لكن هناك شيء مختلف هذه المرة .. نظرته تغيرت نظرته كانت مليئة بالدفئ و لمسته فيها من الأمان ما يجعلني أريد قربه أكثر.. فتمنيت ان يتوقف الزمن في هذه اللحظة و أن يطول الحلم.
لكن فجأة تبددت أحلامي و ابتعدت حين ترك يدي، فتحولت نظرته إلى نظرة هادئة و باردة و عاد لطبيعته الغامضة و كأن الذي كنت فيه كان حلما خياليا و ليس واقع كنت أعيشه منذ ثواني قليلة . فقال بصوته العميق :
- هل انت بخير ؟
فقلت له بخجل و بصوت مرتبك :
- آ..سفة أنا بخير شكرا .
كنت أعلم أن كلامي غريب لأنني جمعت بين الأسف و الشكر ، فكنت أبدو كالبلهاء خصوصا أمام نظرته التي رمقني بها و التي كانت مبهمة لا تفسير لها .
- هل هذا هو الشارع الذي تسكنين فيه ؟
- نعم سأكمل من هنا وحدي و أيضا لقد توقف المطر .
ثم أدار رأسه نحوي و نظر لعيني و قال ببساطة :
- لا سأرافقك حتى باب منزلك لأتأكد من أنكِ وصلت .ثم تابع و هو يبتسم:
- من يدري ! فقد يحدث لكِ مثل أفلام الجريمة و الرعب بخروج قاتل مجهول يختطفك ثم يستمتع بتعذيبك .
فإبتسمت و قلت له :
- لا بل أنه حين يراني سيهرع مختبئا .
فتلاشت الإبتسامة من شفتيه ثم قال بهدوء :
- بل أنا أؤكد لك أنه حين يراكِ سيقع أسير سحر عينيكِ .
فنظرت له بدهشة و شعرت بحرارة في خديَّ ثم قلت بإرتباك:
- هل انت تقصد أنني..
- جميلة كجمال زهرة التوليب و حزينة كذبولها .
هل قال انني جميلة أم أنني اتوهم و احلم كعادتي ؟ هل تغزل بجمالي و انا التي لم أرى

نفسي جميلة يوماً . فقلت و أنا اخفض رأسي:
- فالزهور في النهاية مصيرها الذبول و الموت وحيدة و منبوذة من جميع من يراها.
- لكن الزهرة التي أعرفها لن تذبل و لن تموت وحيدة و منبوذة.
لم اجد ماذا اقول له لكن لحسن الحظ وجدت اننا قد وصلنا .
- هذا هو البيت شكرا لك لأنك رافقتني .
- لا داعي للشكر فأي شخص في مكاني كان سيفعل مثلما فعلت .
إبتسمت له بإرتباك فنظر لي نظرة أذابت قلبي و قال بهدوء :
- إذا ليلة سعيدة و تصبحين على خير يا توليب، نلتقي يوم السبت .
- و ليلتكَ أسعد و شكرا لك مجددا .
ثم التفتت و دخلت و قلبي ما زال ينبض كأنه هنا معي.. لا ادري لماذا أشعر بهذا معه فقط؟ شعور كأنني أحلق خارج أسوار الواقع و الحقيقة ، شعور يقارب الحلم و الخيال .. ما الذي يجعله يسيطر على افكاري بهذه الطريقة و يتغلغل في روحي حتى أصبحت أراه و أشعر به هو فقط.

فأنا مازلت واقفة في مكاني تحت تأثير نشوة كلماته و صوته و لمسته ، و كأن لمسته طُبعت في روحي قبل قلبي ، و ما زال دفئ يديه و رائحة عطره تسكرني و تفقدني صوابي و تجعلني مغيبة عن من حولي .
كيف له أن يكون الأمان و الخوف في نفس الوقت ؟ كيف يمكن ان يكون باردا برودة الثلج و دافئا دفئ النهار؟ .. هل شخصيته متناقضة دائما ؟ أم المشكلة من الأساس في قلبي المرتجف؟ فأنا أول مرة أشعر بشعور كهذا و لا أعرف كيف أتصرف .
أنا خائفة من أن يكون كل هذا وهم .
خائفة من اللحظات السعيدة التي أعيشها اليوم أن تكون غدا و يوما ما ذكرى مؤلمة تقتلني و تكون راسخة لا تُنسى، فعلى الرغم من انجذابي و انجرافي مع التيار إلا أنني خائفة أن يأخذني لمكان لا يحمد عقباه .

بالرغم من حالة النشوة و الهذيان التي أعيشها إلا انني خائفة و قلقة لأنني أشعر أنني تورطت قليلا .. لا بل كثيرا.
فهل هذا هو الحب؟

أمسكت قلبي و أنا جالسة أنتظره، فعلى بعد دقائق قليلة سأراه ..سأرى من بقيت أفكر فيه.
سأرى قيصري و أخيرا.
لا ادري لماذا ربطت ياء الملكية بإسمه ، بالنسبة لي تلك الياء التي لا حول لها و لها كل القوة في قلبي وُجدت فقط لتقترن بحروف اسمه لتصبح ملكه و ملكي ايضا.

حينها انتبهت لسكرتيرته ، كم هي محظوظة لأنها تراه في الصباح و في المساء و أنا أراه مرة واحدة فقط ،عند هذه أحسست بوخزة مؤلمة في قلبي و بنار بدأت بالتأجج داخلي , فتلك الممرضة تبدو أكبر منه قليلا و تبدو لي أيضا من النوع الذي لا يهتم بشيئ.

لكن في بعض الأحيان في العلاقات قد تكون المرأة هي سيدة العلاقة و تصبح ناجحة في الأخير و تنتهي و بالزواج، لكن ليست كلها ناجحة ، فهي لا تنجح غالبا و لا يقبل الرجال بنساء أكبر منهم الا اذا عشقها و أفنى في حبها.
فإنتبهت ليديها و هي تقلب الاوراق فلاحظت الخاتم الموضوع في يدها اليسرى , فتنهدت تنهيدة كلها راحة , و كأن أنفاسي قد كانت محبوسة داخلي و تحررت فور ايجادها مخرج, ما بالك يا توليب هل تشعرين بالغيرة من سكرتيرة اكبر منه وقد تكون متزوجة؟!

لكن حتى لو كانت متزوجة فهذا يعطيها افضلية و انصافا أكثر مني , و كيف يكون انصافا و أنا أراه ثلاثون دقيقة واحيانا أربعون دقيقة و مرة واحدة في اليوم و هي أربع وعشرين ساعة و سبعة أيام بالتمام و الكمال ، هذا ليس عدل على الإطلاق, فقلبي له السلطة المطلقة بالتحكم في جميع أعضائي الداخلية و الخارجية منها ..فكيف اذا سأسيطر عليه و هو ما ينفك ينادي بإسمه بربط الياء في اخرها ،و يرفض أن يكون له شريك على قلبه غيره هو .. حتى المتزوجات منهن.

فنفضت عني هذه الأفكار فاليوم سأراه و لن أدع أحد يعكر مزاجي .. حتى هي و بالتحديد اليوم , فإنتبهت لها فوجدتها تنظر لي و تبتسم و هي تقول :
-هل أنتِ توليب عوض ؟
فإبتسمت بإرتباك و قلت لها :
- نعم لكن كيف عرفتِ ؟
- أنظري حولكِ لم يتبق أحد هنا ؟
فنظرت حولي و ابتسمت بحرج و قلت لها بخجل :
-لقد كنت مستغرقة في أفكاري و لم أنتبه .
فضحكت بمرح و قالت :

- لا عليكي أنا أرى ، تفضلي الآن إنه بإنتظارك .
فحملت حقيبتي و إبتسمت لها بإرتياح و شكرتها و كلمة " بإنتظارك " كان لها وقع مربك لذيذ على قلبي ، فدخلت فإذا بصوته العميق يقول :
- مساء الخير توليب.
شعرت أن أنفاسي قد سلبت و أن الغرفة خالية من الهواء .. فلم أعد أعلم هل أهتم بنبض قلبي السريع أو برجفة يدي التي فقدت السيطرة عليها و كل ذلك بفضل خمس حروف خرجت بصوت عميق من شفتيه, فأجبته بإقتضاب و بصوت منخفض و مرتعش :
-مساء الخير .
فرفعت رأسي و نظرت اليه فوجدته ينظر لي نظرة باردة و غامضة ، وقد كانت كفيلة بجعلي ارتجف و لم أعلم السبب ، لكنني أعلم على الأقل أنه يوجد خطب ما به لدرجة انني لم استطع اخراج الكلمات المتبقية و تحريك قدمي و الجلوس ,لا أدري هل بسبب المشاعر التي بدأت تعصف بي بسببه ؟ أم أنه هناك خطبا ما به حقا؟.
- هل ستبقين واقفة في مكانك أم ستتفضلين بالجلوس ؟
انتفضت اثر سؤاله المباغت و شعرت بالخجل الشديد لأنني كنت أحدق به كالبلهاء ، فكل ما أتمناه في الوقت الراهن أن تمضي هذه الجلسة بسلام.
أنا لا أعلم ماذا حدث لكنني أعلم على الأقل أنه هناك شيء مختلف .. حتما مختلف.
- آسفة سأجلس أنا فقط كنت أفكر . قلتها بصوت منخفض .
فأجابني بصوته الواثق :
- في ماذا تفكرين ؟ هل أنا ضمن هذه الأفكار ؟.
حينها خفق قلبي بقوة لدرجة أنني لم أكن قادرة على التنفس لأنني رأيت في عينيه شيء مختلف.. تلك الثقة التي لا حدود لها و التأكد الذي لا شك فيه, مما جعلت هالته فيها شيء من الغرور و الثقة المطلقة .. لا أعلم مصدرها .
لكن الشيء الذي جعل قلبي ينتفض أنه عرف أفكاري كمعرفة الضال للطريق الصحيح , لقد قرأني ككتاب مفتوح لا يحتاج الشرح و التفسير , حينها أدركت أنه أخطر مما توقعت فهو لم يكن ينظر لي بل ينظر لروحي.
لكن الذي لا يعلمه هو أنني قادرة على التحكم في ردود افعالي و التظاهر بأن كل ما يفكر فيه هو وهم من أوهام عقله , فمظهري الذي يوحي بالهشاشة و الضعف ما هو الا قناع خلفه قوة قادرة على التغلب على اي حاجز أو عائق .. حتى لو كان قلبي , فكبريائي أعظم من مشاعر مكشوفة لا تعني شيئا. فرفعت رأسي و أجبته بابتسامة واثقة :
-لماذا سيكون طبيبي ضمن أفكاري ؟

فإبتسم بدوره ابتسامة ذات مغزى كأنه علم ما يدور داخلي , و حمدت الله كثيرا حين غير دفة الحديث و وضع قناع الطبيب اخيرا و قال :

- هل نمتي جيدا ؟

- نعم نمت جيدا.

- هل مازلتي ترين الكوابيس ؟

- نعم لكنها قلت في الآونة الأخيرة . فإبتسمت وقلت بهمس لا يسمع بسببك .

فغمغم بكلمات غير مفهومة ثم كتب شيئا في اوراقه و أخذ يفكر ثم رفع رأسه و قال:

- حسنا ! كيف تشعرين مؤخرا , هل تعانين من توتر مفرط.

- أحيانا أتوتر لكن طبعا في الأمور التي تستدعي ذلك .

اطرق برأسه و بقي يفكر بصمت ثم رفع عينيه و هو ينظر لي نظرة غريبة لم افهما ثم قال بهدوء :

- توليب سأسألك شيئا و اريدك أن تجيبي بصراحة.

فأجبت بحيرة :

- نعم سأجيب بصراحة ماذا تريد أن تسأل .

- هل راودتك يوما رغبة في عدم التبرير حين تتعرضين لموقف يستدعي ذلك ؟

فابتسمت و أجبت ببساطة :

- لا أنا لا ابرر .

- لماذا؟

- لأنني لا أشعر بحاجة للتبرير لذا أتركهم لظنونهم عني و لا أبالي.

- هل حاولتِ مرة ان تبرري لأحد أو لشخص ؟

فإبتسمت و قلت بشرود :

- حاولت أن ابرر لبعض الاشخاص و اصحح أفكارهم عني لاسيما في فترات دراستي الا أنني تغاضيت على الموضوع فهم لن يصدقوني على اي حال.

نظر لي نظرة اختلج لها قلبي و قال بصوته الواثق :

-أحيانا يكون الامتناع عن التبرير في مواقف معينة هو نداء خفي للأشخاص بأن تُفهمي بدون كلام و هذا ما تشعرين به أليس كذلك؟

لقد عرف لكن كيف ؟ كيف له القدرة على معرفة داخلي بدون أن أتكلم؟ كبف لي أن أكون ككتاب مفتوح بالنسبة له في حين انني لاطالما كنت ذلك الكتاب ذو الشيفرة المعقدة , فلم اجبه و بقيت أنظر له نظرة طويلة ممتنة و كأنه فهمِ ما قلته بعيني, فتابع و هو يغير السؤال:

- اخبريني عن الكوابيس قليلا ماذا ترين؟

حينها شعرت بارتجاف لا إرادي في جسدي، فتذكرت مجددا مشهد والديَّ فأغمضت عيني لا اراديا لكي لا يري ضعفي و ألمي لأنني تعودت أن أخفي حزني و لا أظهره، ثم فتحتهما و نظرت اليه و ابتسمت ابتسامة باهتة وقلت :

- الكوابيس ماهي الا مرآة تعكس حياتنا جميعا ، و ليس بالضرورة ان تكون معاناتنا فقط هي من تتجسد على شكل كوابيس كئيبة ، في بعض الاحيان تكون روتينية الحياة هي الكابوس و المعاناة التي نراها في الحقيقة ملونة و عادية لدرجة أننا لا نشعر بسوداويتها الا حين يسدل الليل ستائره ، فتتجلى لنا الحقيقة المطلقة لحياتنا على شكل احلام وهمية باللونين الابيض و الاسود.. ليست الكوابيس و الحوادث من تجعلنا عالقين في دوامة لا نور و لا نهاية لها في الحقيقة الامر كله يبدأ بتدابير الحياة و القدر،و بينهما خيط رفيع يتحكم في سير الأحداث و الأيام,.. فتغيُرنا ناتج عن البقاء في مكان نخاله من فرط ألمنا آمن و هو في الحقيقة وحش يلتهم لهفتنا نحو حياة جديدة.

ثم تابعث ممازحة :

- يجدر بك تغيير سؤالك ايها الطبيب أم أن أساليبك في معرفة الاجابة قد أصبحت قديمة الطراز.

فأطرق برأسه للأسفل و ابتسم ابتسامة ساحرة خطفت قلبي لثواني قليلة ثم قال:

- اذا هل تقولين بأن أساليبي قديمة يا توليب؟

- قل لي اذا أساليبك الجديدة ؟

- ستتعرفين عليها مع الوقت لكن قبل هذا هل تجيدين الكتابة؟

- الكتابة ؟!

- التعبير عن ما في داخلكِ بالكتابة.

-فأجبت ممازحة :

- لماذا أذهب ليدي و أنا لدي فم أعبر عنه، لكن لأصدقك القول لم أجرب ابدا .

فنظر لي نظرة عميقة غامضة لم استطع ان أفك شيفرة معانيها، ثم فتح درج المكتب و أخرج منها مفكرة بنفسجية اللون و عليها زهور التوليب بتدرج لون البنفسج و الاسود الانيق , ثم ناولني اياها ثم قال:

- لم لا تعطين الأمر محاولة ؟.

لم أستطع اخفاء ذهولي و ارتجاف قلبي الذي جعلني غير قادرة على التنفس كيف سأتنفس مجددا و هذه أول هدية أتلقاها و مِن من ؟.. حسنا هي ليست هدية بمعنى الكلمة فهذه احدى الطرق لعلاجي أعلم .

لكن قلبي لم يفهم انها وسيلة بسيطة لا تُسمن و لا تغني الا أنها في الاخير اغنت قلبي و جعلته خائر القوى ،فقام بتفسيرها على أنها الهدية الأولى مما جعل انفاسي عالقة داخلي ,

فنظرت اليه و لأول مرة بقلبي لا بعيني هاتين و كل تلك الثقة و اللامبالاة التي ارتديتها سقطت بنظرة واحدة من عينيه.
فقلت بكلمات مشتتة أضاعت طريقها:
- لكنني.. لم أجرب من قبل.. أعني.. أن أعبر عن .. نفسي بالكتابة .
حينها كانت القشة التي قسمت قلبي الى نصفين حين وقف و تقدم نحوي و عينيه المركزتين على عيني جعلتا من قلبي لا يطيق صبرا للخروج حيث هو.
فإبتسم ثم وضع المفكرة في يدي و قال :
- نحن لا ننجح من المحاولة الأولى كما أن سر النجاح لا يكمن في سهولته بل بصعوبة محاولاته و لأصدقكِ القول اشعر أن لديك الموهبة، فإغتنميها و حاولي.
بالكاد استطعت النظر الى وجهه و اخراج الكلمات, فأخذتها بأيدي مرتعشة و بقلب مرتجف من قربه قلت :
- ش..شكرا لك سأحاول .
- حسنا اذا.
قالها باقتضاب و هو يعود الى مكتبه و على وجهه امارات الارتياح، و قد ذهبت برودة ملامحه ليحل محلها ابتسامة دافئة سعيدة و كأن الكائن البارد و الغامض الذي لمحته اول مرة حين دخلت قد تبخر ، و هذا التحول الرهيب و التناقض قد جعلاني اقع فيه اكثر فأكثر .
فقلت له بصوت منخفض بالكاد سمعه :
- ما سر هذه السعادة ؟
-لأنني أدركت أن كل ما تحتاجينه في الوقت الراهن مكان خاص بك وحدك لتفرغي فيه ما بداخلك .. فتخيليها فقط دلو فارغ و أنت بصدد ملءه بكلماتك فالمفكرة بدون أفكارك لا أهمية لها، و هي أيضا الوسيلة الفعالة لحالتكِ للتخلص من شحنة الأفكار السلبية التي تؤرق لياليك, فحاولي على الأقل أن تكتبي خمس أو سبع جمل في اليوم و مع الوقت سوف تشعرين بأنك فارغة و مرتبة داخليا .
- هل سأشفى؟
فإبتسم بتلقائية و قال بثقة طبيب :
- لا وجود لأمراض غير قابلة للشفاء نحن من نقرر اذا كانت قابلة للشفاء ام لا , لست أتحدث عن الأمراض الجسدية بل النفسية , فالنفس تكون حبيسة مواقف مؤلمة و كلمات جارحة و نحن نجعل تلك المواقف و الكلمات شيئا عكسيا قابل للإلتئام.. مثل الصبار, فاذا ما اهتممنا به و رعيناه سيتمرد و يخرج في الاخير زهرة تريد المحاربة رغم الأشواك المحيطة بها.

- هل تخبرني بأنك الماء الذي ينبت الورود ؟
- بل الذي يسقيها و يهتم بها حتى تقاوم الحياة و تكون قادرة على التأقلم.
ثم تابع بهدوء :
- حسنا لقد انتهينا لليوم .
فنظر الى التقويم اليومي و قال:
-سأراك يوم الثلاثاء على الساعة الرابعة مساءا هل يناسبك ؟.
فنهضت و حملت حقيبتي و قلت بخجل :
-نعم يناسبني سأراك يوم الثلاثاء.
ثم وقف و نظر لي نظرة غامضة و مد يده نحوي فمددت يدي بدوري و امسكت بيده فسرت رعشة كهربائية في جسدي مجددا ثم ضغط على يدي برفق و قال:
-اهتمي بنفسك و لا تنسي أن تكتبي في المفكرة.

خرجت فلفحني الهواء البارد ، فسارعت بإحكام أزرار معطفي العلوية و مضيت و أنا خارج وعيي تماما.. فكيف سأعود لوعيي و هو أصبح واقعي البحت و العالم بفصوله الثلاث و رابعه شتاء لقاءنا؟ كيف سأعود و أنا أصبحت أعيش في زمن الخرافات و الخيال و الأحلام الوردية.

فالواقعية لم تعاد تلائمني حتى و إن كانت ضئيلة .

و هذا كله بسببه.

كيف استوطنني واحتل كياني بهذه الطريقة؟ كيف سرقت قلبي سريعا يا قيصر؟ فأنا لم أشعر بهذه المشاعر من قبل .. لا اشعر بها الا حين اكون في سطوة حضوره.

كيف سأخفي ما بداخلي و أنا كل يوم أفقد السيطرة على نفسي و بنظرة واحدة من عينيه ؟ كيف سأخفي نفسي منه و هو يقرأ نفسي أكثر مني؟.. ستكون مسألة وقت فقط ليعرف ما بداخلي فنظرته اليوم أكدت لي و كانت خير دليل على ذكائه بمعرفة ما يجول داخل كل شخص.

لماذا أشعر أن له ماضي كئيب و معاناة بقيت أثرها لليوم؟ .. فعيناه اليوم كانت باردة و لامبالية لدرجة أن قلبي شعر بها.. فلماذا كل هذا التغيير في شخصيته؟ لماذا أشعر تارة بأنه قريب و تارة اخرى بعيد جدا لتطاله يداي.

فنفضت عني هذه الأفكار التي غيرت مزاجي السعيد ثم ذهبت الى كرسي فارغ أمام البحر وجلست عليه و أنا أراقب السماء الرمادية و الأشجار العارية و الأمواج المتمردة كتمرد مشاعري أمامه ،و أنا أراقبها بهدوء تذكرت المفكرة فأخرجتها من حقيبتي و رحت أتأملها و شبح ابتسامة متمردة ارتسمت على شفتي فتذكرت نظرته و لمسته الدافئة الرقيقة على يدي و همسه المحبب لقلبي .

فإنتبهت و لأول مرة لزهرة التوليب في المفكرة بدقة تفاصيلها و بتدرج لوني المفضل.. و هذا يعني انها كانت مقصودة و ليست عابرة مثل ما كنت افكر ، لقد كنت غبية جدا! نعم غبية لإنتباهي المتأخر و لإدراكي البطيء.

حينها أدركت بأنني بدأت احب زهرة التوليب البنفسجية و المفكرة و صاحبها.

عند اعترافي الأخير شعرت بقطرات مطر خفيفة تنزل .. فأرجعت المفكرة للمحفظة لكي لا تبتل، و وقفت و أنا أنظر للسماء و هي ترسل خيوطها الرقيقة فإبتسمت بملء فمي و رفعت يدي اتحسس قطراتها و لم أعلم بأنني أصبحت أحب المطر إلا الآن لأنني أراه فيه ، فكيف لا و لقائنا كان مليئ به.

لم أكن أعلم أن الله يحبني لدرجة أن يرسله لي ليهطل في روحي.

فالفرق الوحيد بينهما أن المطر حياة لقسوة الارض و قيصر هو حياة لقلبي القاحل.

حينها تحولت القطرات الى سيول قوية و أنا ما زلت تحت تأثيرها تجذبني اليها كمغناطيس لا قدرة لي على مجابهته .. مثله تماما .
فوجدت نفسي متوجهة للبحر الثائرة أمواجه, فقمت بوضع حقيبتي تحت الكرسي لتقلل من تساقط الأمطار عليها , ثم ذهبت ووقفت امام البحر الكئيب وحدي و لا وجود لكائن غيري .

ينفرون من أول قطرة مطر و هم لا يعلمون بأنها الحياة لكل شيئ ، فنسيت أنني كنت مثلهم أنا ايضا بتقليديتي و وواقعيتي حتى قابلته و تجردت منهم .. فنظرت الى ملابسي المبتلة من رأسي لأخمص قدمي و لأول مرة في حياتي لم أهتم .
لم أهتم لملابسي المبتلة و لا للمرض .
لم أهتم لواقعيتي و منطقيتي و لا للرياح الباردة و الجو الغائم .
لم أهتم بنصائح خالتي و لا العالم .
لم أهتم بتوليب التقليدية و رزانتها .
ضربت كل شيئ عرض الحائط ثم رفعت يدي و رقصت.. نعم رقصت على ألحان الحب و الإنتظار و البحر و المطر كانا شاهدين على جنوني.. و الرياح و الامواج بدورهما تصفقان لي .. و لو كان عمالقة الفن و الموسيقى على قيد الحياة لجعلوني أنموذجا حيا للجنون و الحياة و الحب.
فتوليب التي كانت وحيدة و خاوية و كئيبة امتلئت به .. توليب التي كسرتها الحياة مرة أعاد ترميمها قدر غامض غير متوقع .. فالفتاة ذات الأسوار التقليدية المملة تحررت.
توليب العاقلة و الرزينة ترقص .
توليب ذات التفكير الجنوني المليء بالتفاصيل ترقص .
توليب ذات التفكير المنطقي البعيد عن الجنون ترقص و تتمايل على موسيقى المطر و قلبها هو القائد الذي يقود التوليفة و يرتب خطواتها .
فأنا أعلن إيماني بالحب أمامك أيها بالبحر فاشهد على هذه اللحظة.
فاشهد على امراة اتسمت بالالحاد و الأن اعلنت قوة ايمانها .
ثم تغيبت توليب عن الواقع لتعيش في عالمها الخاص .. المليء بالحب و بالمطر و به .

***

فتحت الباب ثم دلفت للداخل فوجدت خالتي تنتظرني و ملامحها تكسوها الدهشة و المفاجئة من مظهري الغير متوقع فقالت بصوت مبحوح كمن لا يصدق ما يراه:

- ما..مالذي حدث لماذا انتِ مبللة هكذا ؟
فأخفضت رأسي و لاحت على شفتاي ابتسامة حالمة حين تذكرته، فتداركت نفسي سريعا و قلت كاذبة :
- لم أحمل المظلة نسيتها لذلك تبللت لا تقلقي كل شيئ على ما يرام .
فحمدت الله في سري لأن عدم حملي للمظلة كان السبب الوحيد المبرر لجنوني، فنظرت لي مشككة ثم الى ملابسي المبللة وصاحت فجأة :
- يااا الهي تووليب !!! هيا اسرعي و غيري ثيابك لكي لا تمرضي لابد أنكِ تشعرين بالبرد هيا أسرعي و سأعد لك شرابا ساخنا لتدفئي به نفسك .
فقلت بهمس منخفض حالم :
- أنا لا أشعر بالبرد ، فتذكره فقط يجعلني أشعر بالدفئ.
- هاه ماذا قلتي ؟
- قلت سأذهب لأغير ملابسي .
ثم ذهبت لغرفتي سريعا و نزعت معطفي و ملابسي المبللة ، و قبل أن أذهب لأخذ حمام لمحت نفسي في المرآة، لم تكن أنا!.. قطعا لم تكن أنا!! .. بل كانت شخصا اخر.. شخص متورد الخدين و الابتسامة لا تفارقه , شخص كان في متاهة الأحلام
و لا يريد أن يُعثر عليه ، فإبتسمت خجلا لإنعاكسي ودخلت للحمام.

.....

- شكرا على العشاء وعلى المشروب خالتي. قلتها بإمتنان و أنا أبتشم لها.
فبادلتني الابتسامة و قالت:
- هيا كفاكِ شكر و أشربيه كله أنت تجعلينني أشعر أنني غريبة. ثم تابعت بقلق:
- هل انتِ متأكدة أنك تشعرين بخير أقصد أعراض الحمى.
- نعم يا خالتي أنا بخير لا أعاني من أية أعراض .ثم تابعتُ ممازحة :
- ثم انني في الخامسة و العشرين لم أعد صغيرة سأهتم بنفسي لا داعي لكل هذا القلق.
حينها اخفضت بصرها و قالت بصوت عذب و بإبتسامة رقيقة:
-لكن بالنسبة لي ستبقين توليب الصغيرة التي تحتاج دائما للرعاية و الاهتمام فأنا احمد الله انكِ عدتِ لما كنتِ عليه .
حينها لاحظت التأثر في صوتها و تذكرت كيف انها اهتمت بي و لم تتركني ، و برغم كافة الآلام و المشاكل الا أنها دائما ما كانت تبتسم لي و لم تُشعرني يوما بأنني عبئ عليها أو أفتقر لأي شيئ ،فإقتربت منها و عانقتها و قلت بصوت منخفض:

-شكرا لكِ يا خالتي على كل شيئ لولاك لما عادت لي الحياة مرة اخرى .
فبادلتني العناق و قالت بصوتها الرقيق :
- انتِ كل شيئ بالنسبة لي فكيف لا افعل هذا القدر لك .
فإبتعدت عنها و قلت لها بتردد :
- خالتي هل خالي اتصل بكِ ؟
فلاحظت التغير الذي طرأ على ملامحها الفاتنة فبرغم من أنها قد تجاوزت الأربعين الا أنها مازلت تحمل خطوط الجمال على وجهها,فأدارت وجهها للناحية الأخرى لتخفي عيونها المتألمة ثم ادارتها ناحيتي و قالت بابتسامة باهتة :
- نعم يتصل بي لا تقلقي يا زهرتي .
فأمسكت يدها و نظرت لعينيها و قلت :
- خالتي أريد على الأقل أن أهتم بك قليلا مثلما تهتمين بي , أنا أعرف أنه حدث شيئ بينكما كما انني أعلم أيضا أن هذا لا يقارن بما فعلتيه معي لكنني على الأقل سأستمع لك و أتفهمك .. هيا أخبريني ما الذي حدث؟
حينها اختفى القناع الذي كانت دائما تضعه و ظهرت نظرة الالم و الخيبة في عينيها و قالت بصوت حزين :
- لا اعلم ما الذي جعله هكذا , لقد تغير يا توليب .. تغير كثيرا .
- كيف تغير أخبريني ؟
فقالت بنبرة مليئة بالألم :
- قبل أن تموت أختي بيومين تشاجرت معه لأنني كلما اتصلت به لا يجيب و حين أسأله يضيق ذرعا .ثم ابتسمت بمرارة و تابعت :
- لأنه كما يقول أنني مزعجة و شكاكة ناحيته , و كل هذا لأنني أسأله أسئلة عادية تسألها الزوجة لزوجها و كانت حياتنا مستمرة على هذا الشكل و أنا كنت أتحمل لأنني ..
- لأنكِ ماذا ؟
- لأنني أحبه .
ثم ارتسمت ابتسامة حزينة على وجهها و تابعت :
- لكن القطرة التي أفاضت الكأس كانت .. ثم سكتت .
- ماذا كانت ؟
فلاحظت تمرد دمعة مؤلمة و ساخنة سقطت من عينيها فمسحتها سريعا و قالت :
- في يوم جنازة أختي تشاجرنا حين قال إنهم اتصلوا به و يجب أن يعود فقد طرأ شيئ مهم في العمل فأخبرته بأنني لا اريده ان يذهب فأنا لا أعرف ما الذي سأفعله وحدي هنا و بأنني في حاجة اليه فقال بأنه ضاق ذرعا بي ، ثم رن هاتفه و حين أجاب سمعت صوت

امرأة تحدثه و هو كان يتحدث معها و يبتسم و لا أدري عن ماذا يتحدثان ، فغضبت غضبا شديدا لدرجة أنني لم أشعر حتى كيف كسرت له هاتفه و هو مازال يتحدث معها .
ثم ترددت فحثثتها بعيني كي تقول المزيد فقالت بصوت منخفض متألم :
- فدفعني و صرخ في وجهي و قال لي انه لا يريد أن يراني ثم ذهب و تركني وحدي.
حينها صحت غاضبة :
- كيف يمكنه قول هذا لك ؟ كيف يتركِكِ هكذا بلا مبالاة و يذهب بدون اتصال واحد منه؟؟
فإبتسمت لي ابتسامة حزينة و قالت :
- طبعا لقد اعتذر و طلب الغفران لكنني للآن لم اسامحه و اعتقد أنني لن اسامحه ابدا فصراخه في وجهي لم انسه لليوم لقد توقعتها من الجميع يا توليب الا هو . ثم تابعت و عينيها مليئة بالخذلان :
- غادر و كان يتصل بي لكنني لم اجبه ،و آخر مكالمة كانت اليوم حين كنت استحم فلم اسمعه و لم اعاود الاتصال به .
فنظرت اليها بحزن و الذنب ينهش قلبي، كيف كانت تخفي كل هذا و تهتم بي؟.كيف تحملت و هي كانت دائمة الابتسام معي؟ . فأمسكت يدها و قلت لها بألم :
- لماذا أخفيت كل هذا داخلك ؟ لماذا لم تصارحيني ؟ .
فإبتسمت لي تلك الابتسامة التي تليق بوجهها هي فقط و قالت :
- أنتِ تعلمين ما مر بكِ و هذا يكفيك يا زهرتي ، لم أكن أريد أن أزيد همك همين. ثم تابعت بصوت رقيق مبتهج :
- لا تقلقي أنا أشعر بهدوء وبراحة كبيرة لأنني بحت بما كان يؤرقني ،ثم انظري أنها العاشرة مساءا لم أشعر بمرور الوقت هيا اذهبي لترتاحي يا زهرتي .
فإقتربت منها و عانقتها و قلت لها بهمس :
- اذا كان هناك شيئ يؤلمك أو يزعجك أخبريني به لا تكتميه داخلك اتفقنا!
-حسنا اتفقنا هيا اذهبي الان تصبحين على خير.
فوقفت و مددت اصبعي الصغير و قلت لها بنبرة طفولية :
- وعد؟
-وعد .

" هل هو يفكر بي ؟ "
تبادرت لذهني هذه الفكرة و أنا مستلقية في غرفتي .. كيف سيكون الأمر لو كان يفكر بي ؟ لأنني و على يقين تام بأنه يفكر بي كمريضته فقط , لكن هل يعامل مرضاه برقة تارة و ينظر لهم ببرود تارة اخرى ؟ أو هل يعطيهم مفكرات أيضا ليكتبوا فيها ؟
حينها أحسست بوخزة مؤلمة في قلبي و بغيرة بدأت في التأجج داخلي من خاطر عابر لا تأكيد فيه .

كيف سيكون الأمر اذا لو بادلني ما أشعر به ؟هل سأشعر بألعاب نارية تدور في رأسي مثلما سمعت من ضحايا الحب ؟ أو سأشعر بشعور الحياة الأولى ؟ أو هل سيكون كشعور التحليق بدون جناحين؟.
لكنني متأكدة أنني معجبة به .. نعم هو مجرد اعجاب لحظي فقط.
فتنهدت و قلت بأسى " كيف سأصبر ليوم الاثنين لأراه يا له من أمر محبط" .

حينها تذكرت المفكرة فذهبت لحقيبتي و أخرجتها و جلست على طرف السرير و أنا أتأملها فقربتها لأنفي فشممت بقايا رائحة عطره المميزة فأغمضت عيني و تخيلته أمامي هنا، نتجاذب أطراف الحديث و يبتسم لي تلك الابتسامة التي تجعل من ليلي نهارا و من الذبول ازدهارا يملئ قلبي , فنظرت لزهرة التوليب و التي أصبحت أحبها و تذكرت لقائنا الذي كان استثنائيا و قدريا جدا بالرغم من خسارتي لوشاحي المفضل .

و انا امرأة قدرية تؤمن بتدابير الحياة و بقاعدة أن لكل شيئ سبب و أن خسارتي كانت تساوي لقائه.
لقاءنا الذي كان في شهر ديسمبر ،شهر بدايات اللحظات الأولى و نهايتها .

لكن الشيئ الذي قتل ابتهاجي هو تذكري لعينيه الباردتين. لماذا يخفي نفسه خلف قناع البرود؟ ما الذي حدث له ليكون هكذا؟ فأنا شخص فضولي بطبعه.. فضولية نحو حياته الشخصية ككل, اذا كان أحب من قبل؟ ,أو هل لديه عائلة و أصدقاء و أحباء قداما؟.
فتذكرت ذلك الجد من اخر مرة , هل ذلك الجد هو فرد من عائلته ؟.

فتبادر الى ذهني نبرته و صوته ذلك اليوم والذي كان مختلف لا أعلم بالضبط كيف،و ذلك حين قال للجد" قطعت صلتي بالواقع لأن في داخلي حياة أخرى أريد أن أعيشها " , هل يقصد بأنه قد قطع صلته بكل ما يربطه بالواقع لأنه يحمل ذكريات مؤلمة ؟ أم هل غادر الى إنجلترا هربا من واقع حزين ؟ .

.لماذا هو غامض و معقد لهذه الدرجة ؟ ففضولي سيقتلني يوما انا أعلم.

فالفضول يشبه دودة صغيرة مزعجة لكنها و برغم صغر حجمها الا انها تنهش القلوب و تضع الشخص امام خيارات متعددة ..طفيلية هي لا تأبه لتطفلها و ازعاجها الشديد ، فتبدأ بأكلنا ببطئ لتشبع رغبتها بأسئلة لا حلول لها .. فتتمرد هي و نُحبط نحن لأن أسئلتنا ستبقى معلقة حتى استشفافها من الشخص المنشود ، و الى حين ايجادنا لها سنبقى نتغذى على نصف الاجوبة.

و بين هذا و ذاك سنبقى عالقين في وسط لا تقدم فيه و لا رجوع منه.

فنفضت عني هذه الأفكار العشوائية و نهضت و جلست على كرسي مكتبي و وضعت المفكرة و فتحتها لأنظر لأوراقها البيضاء فحملت القلم و أنا أفكر ما الذي يجب أن أكتبه فأنا لا أعلم بماذا أبدأ أو كيف! .. فتذكرت مقولة " لا فائدة من الأوراق بدون أن تنسج فيها حبال افكارك" فحملت القلم و شرعت أرتب أفكاري.

***

شعرت بشعاع لطيف و خفيف يداعب عيني المغمضتين , فأغمضتهما بانزعاج و فتحتهما بكسل, ثم أحسست بتشنج في رقبتي و بألم حاد في ظهري، فنظرت حولي لأجد أنني نمت على سطح المكتب دون كتابة كلمة واحدة .

بالكاد استطعت الوقوف ليجتاحني دوار هائل و ألم شديد في رأسي و كل عضلة في جسمي تؤلمني , فخارت قواي على الكرسي لعدم توازن جسدي , و أمسكت رأسي لكي يذهب الدوار , فإذا بطرقٍ خفيف على الباب و صوت خالتي المليئ بالنشاط يدوي في الغرفة.

- صباح الخير زهرتي .

فتغيرت الابتسامة لتحل محلها تقطيبة خفيفة و قلق ظهر في صوتها :

-حبيبتي ماذا بك هل أنت بخير ؟

فأجبتها بصوت منخفض مهزوز :

-نعم يا خالتي لا تقلقي مجرد دوار و سيزول من الممكن أنه بسبب قلة النوم .

بالرغم من أنها و أنني نعلم جيدا أنها من مطر أمس فقالت و قد غزى القلق صوتها:

- لا ليس من النوم أنا متأكدة من أنه من مطر أمس . ثم إقتربت مني ووضعت كفها الدافئ على جبيني و صاحت بصوتها الرقيق :

- يا الهي ان حرارتك مرتفعة يا توليب هيا استلقي يا عزيزتي سآتي على الفور .

فخرجَت من الغرفة مسرعة و أنا تحاملت على نفسي ووقفت فإختل توازني مجددا فأمسكت بظهر الكرسي و تحركت للسرير بصعوبة واستلقيت و أنا أشعر بخمول هائل يغلف جسدي و بألم شديد في رأسي .. فلم أشعر الا و خالتي تضع منشفة باردة على جبهتي و بصوتها الرقيق البعيد يطمئنني.

فلم أفق الا و دقات قلبي العالية تصم اذني و بحبيبات عرق باردة تغلف جبيني فنظرت الى خالتي و وجدتها تنظر لي بقلق ثم عانقتني و قالت بهمس :

- أنا هنا يا زهرتي لا تقلقي هو مجرد كابوس لا تقلقي .

فبادلتها العناق و تمسكت بها بقوة و أنا أتذكر الكابوس الذي راودني . فقلت لها بصوت مرتجف:

- متى سأتخلص من هذه الكوابيس يا خالتي ؟

فمسحت على رأسي بيدها برقة ثم قالت بحزن :

- ستتخلصين منها يا زهرتي لا تقلقي كل ما عليك فعله هو أن ترتاحي و سأكون أنا معكِ لنتخطاها سويا .ثم أمسكت يداي و ابتسمت و قالت:

- هيا يا حبيبتي استلقي هل تشعرين بتحسن ؟

- نعم قليلا لكنني أشعر بألم في حلقي .

- لا تقلقي ستختفي يا حبيبتي من حسن الحظ أن حرارتك قد انخفضت. ثم تابعت :

- هيا ارتاحي الان و سأحضر لك الحساء .
فإستلقيت و أنا أتأمل الجدار و أفكر به , أنا أشعر أنني أريده الان .. فشعوري بالبكاء قد تزايد , أريد البكاء أمامه .. أريد أن أريه ضعفي و انكساري.. أريد أن أضع ثقل رأسي و افكاري و آلامي على كتفه، فأخبره اتفه الأشياء.. اخبره عن تغير الفصول الاربعة و تساقط الاوراق.. و اخبره عن مزاجيتي و طفولتي و معاناتي القديمة و وحدتي الكئيبة.
و اخبره ايضا عن الاشياء التي احبها.. اخبره عن حبي للتفاصيل القديمة .. حبي للأغاني و الأشعار التي عفى عنها الزمن .. أخبره عن حبي للروايات و الورود و القمر و النجوم و المشي في الطرقات ليلا و المفاجآت و الهدايا التي تكون بلا سبب و المطر الذي اصبحت أحبه مؤخرا .. ثم اتنهد بعدها و اخبره أنه ختام ما احب .
- لم لا تردين يا توليب حسبتك قد فقدت الوعي مجددا.
- لا لقد كنت أفكر و لم انتبه .
فقالت بتذمر طفولي :
- اول شيئ سأخبر به طبيبك حين التقي به أن يعالج مشكلة التفكير لديكِ.
و كأن ذكر كلمة " طبيبك " قد أذهبت كل بأس و مرض في نفسي، فكيف أخبرك يا خالتي إنه هو تفكيري .
- هيا تناولي الحساء لتستردي صحتكِ .
فتناولت ثلاث ملاعق و في الرابعة شعرت أنني اكتفيت .
- خالتي لا أستطيع تناول المزيد .
- زهرتي بالكاد أكلت كيف ستشفين اذا ؟
فإبتسمت لقلقها الظاهر في عينيها اللامعتين و قلت بصوت ضعيف :
- خالتي أنا لست صغيرة سأتحسن لا تقلقي كثيرا .
لكن الذي حدث لاحقا حين نمت أن حرارتي قد ارتفعت مجددا و ساءت حالتي كثيرا حتى لم أعد قادرة على تمييز الواقع من الخيال ، و تمييز المنطق من الوهم , فجل ما كنت أراه مشاهد لا أعلم هل هي من حياتي ام مجرد أوهام .. بكاء خالتي جنازة والدي .. جسدين باردين ممدين .. حادث مرور .. و قيصر ، االاه هل هو أمامي الأن و يبتسم لي تلك الابتسامة أم أنه حلم من احلامي البعيدة .
فلم أشعر الا بيد دافئة تمسكني و بشخص لم أتبين ملامحه يحملني فإستسلمت للتعب و الخمول الذي اجتاحني و ذهبت في نوم عميق.
استيقظت و التعب قد استبد بي فلم اتبين اين انا بالتحديد , فلاحظت الغرفة البيضاء التي امكث فيها, ذات النوافذ التي تماثلها, و أنا هكذا حتى لاحظت ضوء قوي في عيني و بصوت غريب يقول :

- آنسة هل تسمعينني حركي عينيك أو أحد أصابعك اذا كنتي تسمعينني .
فحاولت تحريك يدي فلم استطع فحركت عيني بتعب و حاولت تمييز ما حولي فجل ما كنت اراه شخص بوجه ضبابي يتحدث مع شخصين ضبابيين اخرين .. ثم شيئا فشيئا استطعت تمييز أين أنا و من هو ذلك الغريب و من هما الشخصين الاضافيين , فإقترب مني احدهما و امسك يدي فميزتها على الفور:
- خالتي ما الذي حدث ؟
- لا تتكلمي يا زهرتي هل أنت بخير ؟
فقلت بصوت منخفض متعب :
- نعم يا خالتي لا تقلقي أنا بخير و هل أنت بخير ؟
- لقد صرت بخير عندما فتحت عيناكِ يا روح خالتك .
ثم لاحظت اقتراب شخص اخر لم اميز ملامحه لكني عرفته من نبرته :
- كيف تشعرين ايتها الصغيرة ؟
- أنا بخير يا خالي من اللطيف رؤيتك الان .
فضحك و قال :
-أنا متأسف أن لقائنا مجددا كان على هذا الشكل
فقاطعتنا خالتي بقولها بحدة :
- كفى حديثا الان يا زهرتي هيا سنتركك الان ترتاحين و سنأتي فيما بعد .
فتابعتهما حتى خرجا و أنا شرعت أفكر و آلاف من الأسئلة تتبادر لذهني .. كيف جئت الى المستشفى و خالي متى جاء الى هنا و الاهم من كل هذا هل رؤيتي لقيصر حلما ام واقعا ؟.
حينها شعرت بخمول و بتعب كبلني من البحث عن أجوبة شافية فاستسلمت لها و رحت احلم بأحلام كلها عنه هو .

***

مضى على وجودي في المشفى ثلاثة أيام كنت استيقظ فيها قليلا و اغفو طويلا لكن اليوم أشعر أنني بأحسن حال , فقد تم تشخيصي بحمى قوية و أن حالتي كانت خطرة , و أيضا اتضح أن خالي تحدث مع خالتي صبيحة ذلك اليوم طلبا للمغفرة و بأنه قادم مع أول طائرة ليراها , لذلك عندما أغمي علي أول ما فعلته خالتي هو الاتصال به .

فالبرغم من الخلاف و المشاكل بينهما و الألم الذي في قلبها اتجاهه الا انها ضربت كل شيئ عرض الحائط , فكان الأول من تبادر الى ذهنها حين تاهت و وقفت عاجزة .. و كان الأول الذي تذكرته في نوبة ذعرها و خوفها و الأول ايضا حين احتاجته .. لذلك عرفت أن المشاكل تقوي لا تهدم .

قطع حبل أفكاري دخول خالتي بإبتسامتها الرقيقة التي تزين وجهها:

- زهرتي استيقظتي كيف تشعرين ؟

- أنا بخير يا خالتي أشعر أنني بأحسن حال و انتِ ؟

فجلست على حافة السرير و أمسكت يدي بحنو و قالت :

- طالما أنت بخير أنا بخير يا حبيبتي .

فإبتسمت و تذكرت خالي فقلت :

- كيف حال خالي هل تصالحتما ؟

فإبتسمت ابتسامة خجولة كمراهقة قد تم الاعتراف لها ، ثم قالت :

- لا أنا لم أسامحه.ثم تابعت بطفولية :

- و لن أسامحه أبدا لأنه تركني كل هذه المدة اتعذب و أتألم وحدي بسبب امرأة.

- من هو هذا الذي لن تسامحيه و أي امرأة ؟

فنظرت لخالي و ابتسمت له , فالبرغم من مرور العديد من السنوات و التي كانت كافية لتلوين شعره و لحيته ببياض ناصع الى أنه ما زال يحتفظ بوسامة رجل خمسيني أنيق , فلاحظت تعابير وجه خالتي الغاضب, ثم قلت و أنا أكتم ضحكتي بصعوبة :

- خالي أنا مسرورة أنك جئت قبل أن تسافر .

فإقترب و قبلني على جبيني و قال بحنان :

- بالطبع سآتي كيف لا أزور صغيرتي ، اخبريني هل تشعرين بتحسن ؟

- أنا بخير و أنت كيف هي أحوالك؟

فأطرق برأسه و قال بصوت حزين مصطنع :

- أحوالي لا تسير على ما يرام لأن كل حالي غاضب مني و لا يأبى أن يسامحني و هذا بسبب امرأة كبيير في السن و التي تكون مديرتي .

فنظرت لخالتي الغاضبة و هي تنظر له شزرا و خالي الذي يمثل الحزن بطفولية, حينها لم أستطع أن أتمالك نفسي أكثر فإنفجرت ضحكا ، و هذه كانت أول مرة منذ وفاة والديَّ

فهما يبدوان كمراهقين يتشاجران لأول مرة , فنظرت لي خالتي بحدة حين انفجر هو أيضا بالضحك .
ثم فجأة كست ملامحه الجدية و أمسك يدها و قال بنعومة :
- الا تنوين مسامحتي يا حلوتي فأنا أحاول بشتى الطرق ارضائك فضلا عن انني تركت عملي لأبقى معك فأنا مشتاق اليك كثيرا ، و أعلم أنني آلمتك و كثيرا ايضا فأنت لا تعلمين ما مر بي في تلك الايام , و حين أتذكر ما قلته و فعلته أتمنى أن أندثر ندما , ثم تابع بصوت متألم:
- لا تكوني قاسية جدا أنا أتوسل اليك هذه ستكون اخر مرة اغضبك هكذا فكيف سيكون حالي حين أعلم أن كل حالي حزين و متألم بسبب أحمق لم يوازن كلامه , فهذا الأحمق يا حالي لا يكتمل الا بك و أنا أعدك هنا و أمام ابنة اختك بأنني سأسعى دائما لإسعادك لأنك غايتي الوحيدة و منفاي الذي الجئ اليه.
فنظرت له خالتي بتألم و قد اغرورقت عيناها بالدموع ثم أبعدت يدها عنه و خرجت من الغرفة , حينها أطرق خالي رأسه بحزن و قال :
- لقد ارتكبت خطأ كبير و أنا أعلم بأنها لن تسامحني أبدا و هذا من حقها .
- أنا أعلم بأنك ارتكبت خطأ جسيما فأنا عن نفسي غضيت منك لأنني لم أتوقع أن تتصرف هكذا لكن من فينا لا يخطئ ؟ فهذه الحياة مليئة بالأخطاء و أنا أعرف جيدا أنك الوحيد القادر على اسعادها وأنك نادم و تحبها بالقدر الكافي.. لذا اذهب اليها ستسامحك.
ثم قلت بصوت ممازح منخفض :
- أنتما تبدوان كمراهقين ساذجين و هي تحبك أكثر من نفسها فقد كانت تنتظر سماع صوتك كل يوم لكن لا تخبرها أنا أحذرك .
فقال بصوت ضاحك :
- حسنا سرك في امان و شكرا لك على اخباري لقد بثثت في نفسي أمل حين كان اليأس قد وصل لقلبي.
- لا شكر على واجب و هيا اذهب اليها سريعا سأنتظركما .
- حسنا لن أتأخر .
فخرج مسرعا و أنا أطرقت أفكر في ذلك اليوم الذي رأيت فيه قيصر في المستشفى فقد تبقى هو السؤال الوحيد الغير المفسر , هل يعقل فعلا أنه خيال من اللاوعي الخاص بي ؟ فكما اخبرتني خالتي أنني كنت أهذي طوال الوقت بأمي و أبي، ثم سألتني بشك عن من يكون قيصر لأتلعثم أنا و أخبرها أنه طبيبي لتخبرني بمكر أنني كنت اهذي به ليلا.
فحتى في مرضي لم يغادرني و كان جزء منه.. لكن كيف يغادرني و أنا اشعر انني مليئة به ؟

كيف و هو في خيالي و يكمن في اللاوعي الخاص بي ؟ فسبب وجودي هنا من الأساس " هو " .. فالجميع يعلمون أن ما حل بي هو بسبب قطرات من المطر , و لكن لا أحد يعلم أنه هو السبب.

هو سببي الوحيد !.

الجميع يعتقدون أنها الحقيقة الا أنا أعلم أنه حقيقتي , لذا سأدعهم لإدعائهم و أكتفي به كحقيقة لا تكذيب فيها.

فشعرت حينها أنني أريد أن أفصح لخالتي و للأطباء و للمرض و للمطر و للسماوات السبع و للعالم بأنني امتلئت به.

فأخرجني فجأة من أفكاري صوت انغلاق الباب و صوت خالي السعيد :

- انظري يا صغيرتي لقد تصالحنا .

فنظرت ليديهما المتشابكة و لوجه خالتي المليئ بالسعادة ثم غمز لي وتابع بصوت ممازح :

- معلومتك القيمة كانت سبب الصلح .

حينها قالت خالتي بوعيد مصطنع :

- انتظري فقط حتى تعود صحتك اليك و لنا حديث طويل في البيت .

فإنفجرت ضحكا وقلت :

- أنا أنتظر عقابي بفارغ الصبر .

فقاطعنا خالي و هو يصيح :

- يا الهي لقد تأخرت !!

فقالت خالتي بصوت حزين :

- ألا يمكنك البقاء أكثر هل يمكنك تأجيل الرحلة ليوم غد ؟ .

فأمسك يدها بحنو و قال برقة :

- لا استطيع يا حلوتي فأنا ايضا اتمنى أن أبقى هنا معك لكن للأسف اخر رحلة كانت يوم الثلاثاء و لا استطيع تفويتها .

حينها انتبهت بحواسي كلها , ماذاا !! هل ..هل اليوم الثلاثاء ؟؟!! كيف هذا؟؟ لالا .. لا أستطيع تصديق ذلك. فقلت بصوت منخفض مصدوم :

- خالي هل اليوم الثلاثاء ؟

- نعم لماذا هل لديك شيئ مهم اليوم ؟

لم أجبه لأنني كنت تحت تأثير صدمة أوقفت عقلي و قلبي .. كيف سأخبره أن وجهه هو الشيئ المهم و صوته هو الحاجة الضرورية و انني أضعت فرصتي الوحيدة لرؤيته ..

فأعادني صوت خالتي القلق :

- زهرتي هل أنت بخير لماذا شحب وجهك فجأة ؟
فنظرت الى وجهيهما القلق و اخفيت صدمتي و خيبتي و يأسي داخلي و قلت بابتسامة مصطنعة :
- نعم أنا بخير لا تقلقا دعني أودعك يا خالي لقد تأخرت .
فإقترب مني و قبلني على جبيني و قال بهمس :
- شكرا لكي يا صغيرتي أنا لن أنسى معروفك و المرة القادمة لا تجعلي لقائنا يكون هكذا اتفقنا ؟
- بل شكرا لك لأنك أتيت يا خالي صحبتك السلامة و عد سريعا .
- سأفعل يا صغيرتي .
فالتفت و نظر لخالتي و قال لها بمكر :
- أنا ذاهب الآن هل ستوصلين زوجك ام ستكتفين بالمراقبة هنا.
فضحكت و خرجت معه و أنا مازلت تحت تأثير الصدمة , انه اليوم .. نعم اليوم الذي كنت انتظره بفارغ الصبر , اليوم الذي أرى به قيصري , لم أكن أتصور قط
أنني قد أنسى يوما مثل هذا , فهذا المرض اللعين قد حرمني من فرصتي الوحيدة بأن أراه و أتحدث معه .

لا ليس المرض بل انا الحمقاء التي سرحت بخيالها بعيدا حتى ضيعت فرصتي الوحيدة .. فهل علي أن أنتظر للأسبوع المقبل؟ و كيف سأخبره اصلا ؟ فأنا لا أريد أن أخبره بمرضي فيظنني ضعيفة لا تستطيع التحمل.
أنا لا اريد اظهار هشاشتي و قلة حيلتي لأن معظم الرجال لا يميلون للمرأة الضعيفة بل الى التي تستطيع الاعتماد على نفسها و تتحمل المسؤولية .
لذا ما الذي سأفعله ؟.

لقد اصبح مزاجي في الدرك الأسفل و الأسوء من هذا أن كل شيئ كان من صنع يدي. كلمة واحدة فقط جعلت يومي يتدمر و جعلتني أصل للحضيض.

***

- ايها الطبيب هل يمكنني الخروج حقا ؟؟
قلتها بصوت مرتجف من سعادتي بهذا الخبر و من خروجي من هذا المكان المليئ برائحة الأموات و الأدوية .. أخيرا سأعود لحياتي المعتادة , فلم أكن أعلم أن لي حياة جميلة الا الان .. حقا نشعر بالأشياء حين تتغير و تذهب عنا, ففقدان الأشياء يجعلنا ندرك قيمتها

مهما كانت صغيرة او تافهة .
- لقد تحسنتِ كثيرا و أبديت تفاعلا ايجابيا مع العلاج ثم ابتسم و تابع :
- و طبعا لكونك مطيعة و الفضل كله لخالتك .
فأطرقت برأسي خجلا من هذا الطبيب الوسيم و تساءلت عن عمره ؟ فهو يبدو في حدود الثلاثين , و أكاد أجزم أن في حياته امرأة ما فشخص بهذه الوسامة القاتلة لا يمكن أن يكون وحيد .
- هل مازالت تراودك نوبات سعال حاد أو الام في الرأس ؟
- تنتابني نوبات سعال أحيانا اما آلام الرأس فلم تعد تراودني لذا أنا بأحسن حال أيها الطبيب.
فإبتسم و قال بنبرة ممازحة :
- أرى أنكِ لم تحبي المكان كثيرا لذا أنا أراكِ متلهفة للخروج .
كيف سأخبرك ايها الطبيب ان لهفتي ليست الخروج من هنا بل ان لهفتي الوحيدة هي رؤيته .. كيف أخبرك أنني و طوال هذه الأيام كنت أفكر في كيفية التحسن سريعا و التحرر من هذا المكان؟ كيف سأخبرك أنني و طوال المدة الماضية كنت أتمنى فقط أن ألمحه و أسكت قلبي الذي بقي يناديه؟ كيف و أنا كنت أخفف عن نفسي برؤية ضبابية لا أدري هل هي واقع أم خيال خرافي؟ .
كيف سأخبرك أيها الطبيب أن قيصر هو لهفتي الدائمة لكل ما أعيشه ؟.
- أين ذهبتي ؟.
أيقضني من تفكيري صوت الطبيب ممازحا ، فإبتسمت بخجل و قلت بصوت منخفض:
- أنا هنا فقط مجرد أفكار تأتي و تذهب.. متى سأخرج ايها الطبيب ؟
- متى ما تنتهي خالتك من ملئ استمارة خروجك , لكن لا تتعرضي للهواء طويلا و ارتاحي لفترة فجِسمك مازال ضعيفا. ثم تابع بلطف :
- حسنا الان سأنادي الممرضة لتساعدك في تغيير ملابسك.
فشكرته و أتت الممرضة و ساعدتني في تغيير ثيابي ثم جاءت خالتي واصطحبتني خارج المستشفى.
فلففت وشاحي ذو اللون البني و أحكمت ازرار معطفي حين شعرت بقشعريرة تسري في كامل جسدي اثر برودة الهواء الذي جاء بعد مطر غزير و الذي بقي يلامس بشرتي و يحرك شعري الأسود ببطئ, فنظرت للسماء الرمادية و تسائلت بإحباط " كيف سأراك يا قيصر و هل سيضعني القدر في طريقك مرة اخرى؟".

لحسن الحظ لم يكن البيت بعيدا عن المستشفى فما هي دقائق إلا و نحن أمام الباب فدخلت و الاحباط يغلف روحي و يسيطر على قلبي فلم أنبس بكلمة واحدة و هذا ما جعل خالتي تتساءل :

- حبيبتي هل أنت بخير؟ .

فأجبتها بصوت مرتعش و بإبتسامة مصطنعة ارتسمت تلقائيا على وجهي :

- نعم يا خالتي انا بخير انا فقط متعبة هذا كل ما في الأمر لا تقلقي .

فأجابتني بشك ارتسم بوضوح على ملامحها :

- هل أنت متأكدة يا زهرتي ؟

- نعم يا خالتي أنا متأكدة لا تقلقي أنا بخير ثم تابعتُ بإبتسامة :

- سأذهب لغرفتي لأنام قليلا .

ثم أمسكت يدي و قالت برقة :

- نعم اذهبي يا عزيزتي سأناديك حين يكون العشاء جاهزا .

حينها و بردة فعل تلقائية عانقتها و قلت بصوت أقرب للبكاء:

- شكرا لكِ لأنك لم تتركيني و اهتممت بي أنا لا اعلم كيف أعوضك .

- عوضي أن تكوني فقط بخير يا زهرتي .

فإبتسمت لها و طبعت قبلة على خدها ثم دلفت لغرفتي و ارتميت على السرير و أنا أحدق في سقف الغرفة و أفكر كيف سأذهب اليه و أخبره عن مرضي ؟ كيف سأقول له و أنا أعلم أنه سيظنني غير مسؤولية؟ كيف سأستطيع أن أواجه تلك العينين التي تكتشف أسراري العميقة ؟ كيف سأواجه قيصر؟. كيف سأخرج كلماتي و كلها تخونني أمام حضوره.

هل قيصر لديه من الأساس مشاعر نحوي؟ أم يراني كمريضته؟ و هل لطفه نابع من قلبه أم من قلب طبيب متمرس ؟ هل يشعر أنه يحلق في السماء مثلي أم أن جناحيه يفضلان المكوث في الأرض بدل التحليق؟ .

حينها شعرت بإختناق مفاجئ و كأن كل الهواء قد انحسر من الكون ، فغلفني الاحباط مجددا و جعل تفكيري يذهب للحضيض فغيرت رأيي في المكوث في غرفتي و النوم , فقليل من الهواء البارد سيعيدني لصوابي و يجعلني أشعر بتحسن و من يدري فقد تلتقي طرقنا .. فحملت سترتي الرمادية و خرجت و ذهبت لخالتي في المطبخ .

- خالتي أنا سأخرج لأستنشق قليلا من الهواء .

فنظرت لي بتعجب و قالت :

- لكن الطقس بارد و أنتِ ما زلت مريضة و كنت أظنك ستنامين لأنك متعبة عوضا عن أنها الخامسة لقد تأخر الوقت .

- نعم لكن النوم لم يأتيني لذا أريد أن أقوم بنزهة خفيفة فقد مللت من المكوث في المستشفى .
حينها أمسكت يدي برقة و قالت بقلق :
- حسنا لكن كوني حذرة و لا تتأخري .
خرجت و أنا أفكر به و بديسمبر.. عجيب هو شهر ديسمبر، فهو يجمع بين الكئابة و الرقي .. بين البداية و النهاية .. بين رحيل اللحظات و بقاءها .. قاسي و حنون في نفس الوقت .. شهر لا يعرف الرحمة.. شهر مليئ بالأمنيات المؤجلة.. شهر مليئ بأشياء ذابلة نقدسها, تؤلمنا و نريد قربها .. شهر مليئ بزخات الانتظار و حماسة اللقاء.
فرفعت رأسي للسماء فرأيتها رمادية كلون سترتي و حياتي بدونه.. وحدي امشي في الطرقات المبللة و البائسة و الخالية من اقدام المارة. .
وحدي الا من قطة ضالة و قليل من الرياح , فأدخلت يدي في جيبي السترة و أنا أتساءل كيف أُعجبت بشخص لا أعرف مشاعره نحوي ؟ كيف تعمقت فيه و أنا لا أعرف هل عينيه موجهتان نحوي أم بجانبي ؟ كيف للإنسان أن يغرق في شخص لا يعلم هل قلبه ينبض له أم لا ؟ كيف سأتقبل اذا كانت مشاعره نحوي لا تتعدى احساس طبيب نحو مريضته ؟ كيف لي التقبل حين تكون مشاعره نابعة من خوف و حرص طبيب على اداء مهمته؟.
لقد كانت لهفتي كبرى لشعور لم اجربه من قبل .. شعور كنت احسبه حلم من أحلامي المنسية ، لقد كنت منغمسة فيه لدرجة انني بت مغيبة عن حقيقة كانت أمامي الا انني كنت انظر لما وراءها .. الى ما وراء الحقيقة حيث يمكث الوهم و الخيال .

لا بد أن المكوث في المستشفى قليلا قد فتح من بصيرتي . فإنتبهت أن قدماي قد أخذتني للمتجر الذي التقيته فيه المرة الماضية.
فنظرت اليه من بعيد و أنا أتأمل مدخله القديم المتهالك فتدفقت موجة من الحنين داخلي للأيام القديمة و الخالية من التفكير و الحزن ، و ما زادني غبطة سوى ملامح ذلك العجوز المليئة بالأشياء البسيطة و الخالية من السلبية , فإبتسامته وحدها تجعلك تعود لذلك الزمن الجميل المليئ برائحة البساطة و عنفوان الحب النقي البعيد عن الخبث و النفاق .

وجهه فقط يجعلك تتساءل اذا كنت عدت لذلك الزمن أم أنه تجسد على هيئة انسان جاء ليذكرنا بماضي نسيناه لكنه موجود في ركن بعيد ننفض غباره فور تدفق ما يسميى بالنوستالجيا.
أيقظت حواسي نفحات من رياح جعلتني أعود للواقع الذي كان ينتظرني , فقررت

الدخول و إلقاء التحية على عجوز الزمن الجميل أو الجد جمال.. لا أدري فلربما وجدت من اشتاق له قلبي فهو الرابط الوحيد بيننا.

دفعت الباب القديم و دخلت للمتجر و أنا أبحث عنه علني أجده هنا مرة أخرى، لكن خابت توقعاتي حين علمت أنني الوحيدة الموجودة.. فأيقظني من خيبتي صوتٌ آت من زمن غير زماننا:

- مساء الخير يا مطر .

فنظرت له بتعجب و قلت :

- مطر؟!!

فإبتسم و أجابني بصوت مرح :

- اولستِ تلك التي بللها المطر من رأسها الى أخمص قدميها و التي أصبحت تبدو كدجاجة مبتلة خائفة من ضياع صغارها و طالبة للهاتف .

عند هذه الأخيرة انفجرت ضاحكة و قلت بصوت يغلفه الضحك :

- يا الهي هل ما زالت تتذكرني و تتذكر ذلك اليوم , عوضا عن ان اسمي توليب و ليس مطر

- اسمك جميل و فريد لكنني أحب مطر اكثر, و أنا اتذكرك جيدا فليس لدي زبائن كثر.ثم تابع بغموض و بصوت كأنه آت من الماضي :

- و ذلك اليوم بالتحديد لن أنساه .

فقلت بنبرة ماكرة لمعرفة العلاقة الخفية بينه و بين قيصر :

- بلى لديك زبائن أنا و ذلك الطبيب النفسي من يوم الدجاجة المبتلة .

فقال بتعجب و دهشة :

- هل تعرفين قيصر ؟!

فإبتسمت و قلت و كأني أخاطب نفسي :

- نعم إنني مريضته و هذا يعني أنه طبيبي.

- مما تعانين يا مطر أشعر أن لديكِ قصة طويلة.

- أنا بدوري لا أعلم ما بي لأنني مشتتة بين العودة للواقع و المضي في الأوهام .

حينها ضحك و قال بنبرة هامسة :

- حسنا هذا يفسر الكثير ثم إنكِ و قيصر كما قلتي زبائني المعتادون .

فكست فجأة سحابة حزينة وجهه الدافئ و تابع بصوت حزين مليئ بالحسرة :

- هل تعلمين أن الانسان يظن أن ما يملكه بين يديه هو قدره الأبدي , بينما في الحقيقة خيط القدر أرفع من شعرة خفيفة ، في رأيكِ يا مطر ما الذي سيقطع هذا الخيط ؟

فنظرت له و في داخلي الكثير من الأسئلة لكنني أجلتها و رحت افكر في اجابة لسؤاله المباغت ، فأجبته بصوت منخفض :
- القدر نفسه ؟ .
- بل اليد التي تملك القدر ، فما تمسكه يداك اليوم ستقطعه نفس اليد غدا .. و ما بين الخسارة و الامتلاك ستفقد جزءا منك .
فرحت اردد بصوت منخفض " ما بين الخسارة و الامتلاك ستفقد جزءا منك! ".
- لكن يا جدي كيف افقد جزءا مني في كلتا الحالتين , فالإمتلاك اهون من الخسارة !.
فإبتسم و قد انقشعت سحابة الحزن من وجهه و حل محلها ابتسامة دافئة. ثم قال:
- في الوقت المناسب ستعرفين الاجابة فالأقدار تختلف , و ما بين قدر و قدر خسارة و امتلاك يختلفان حسب الأشخاص , فصبرا يا بُنيتي و انتظري قدرك حتى يأتيك .
فنظرت اليه مندهشة من هذا العجوز الذي يحمل في داخله اكثر من زمن كامل و تجارب عديدة , فإحساسي يخبرني ان الكلام الذي قاله مرتبط بقيصر بطريقة ما لكنني لم أجرؤ على اخباره بأن قدري الذي يتحدث عنه قد اتى و أنا الآن مشتتة بين خسارته و امتلاكه .
فقلت بصوت مرح خالي من الصراع الذي يعتمر داخلي :
- لقد كنت مطر يا جدي و الان صرت ابنتك ان هذا غير عادل !.
حينها نظر لي نظرة دافئة و قال بصوت حنون :
- انت مشاكسة جدا، ففي كلتا الحالتين انتِ ابنتي و مطر ، لكنني اتفقت على مطر ، هل تعلمين لماذا؟.
فأجبت ضاحكة :
- لأنني أُذكرك بيوم الدجاجة المبتلة .
- بل لأنك سهلة للقلب كالمطر و لينة كتساقطها في الأرض و ما بينهما كنت قد ولدت انتِ.
حينها نظرت له نظرة تأثر فهذا الجد لديه من القبول ما يجعلني أؤمن أنه مازال هناك أشخاص لا يعرفون الخبث ابدا. فقلت بنبرة اقرب للبكاء :
- أنا لا أدري ماذا اقول لك فكلماتك لمست وترا حساسا في قلبي , فهذا لقائنا الثاني و كلام مثل هذا ينبع من شخص لا أعرفه قد غرس في قلبي بذرة شعور كنت قد نسيته .
- لا يغرنك قلة اللقاء فالروح تألف روحا من المرة الأولى ، و روحا تبغض روحا من الف مرة و لقاء , فالقلة لا تعني عدم معرفة الجوهر فالجوهر يظهر في نقرة القلب الاولى و في ارتياحه و أنا عرفت جوهرك من اول نظرة .
- كيف هو جوهري؟
فإبتسم و أجاب :

- جوهرك يكمن في عيناكِ الحزينة و في بساطة الحديث معكِ ،فيا مطر أنت شخص جوهرك موجود في عيناكِ و في بساطتكِ التي تجعل الروح تألفك منذ اول مرة .
- كيف لديك هذا الكم من الفصاحة و التلاعب بالكلمات؟ .
فضحك و أشار لخطوط وجهه المتجعدة :
- هذه لم تأتي عبثا يا مطر , ثم تابع :
- لقد تأخر الوقت انها السادسة و لقد أوشك الظلام على الظهور و أعتقد أنه قد حان وقت العودة , فبقاءك هنا أثبت لي أنك لست هنا لتشتري شيئا ملموس بل لتشتري شيئ غير ملموس.
- و ما هو الغير الملموس الذي سأشتريه؟
فضحك و قال :
- اذا أردت أن نبقى هنا الليل بطوله سأجيبك.
فضحكت بدوري و نظرت لساعتي و قد وجدتها بالفعل السادسة فقلت له :
- نعم يجدر بي العودة لكن هل يمكنني المجيئ هنا حين أشعر بالرغبة في الحديث فأنا ليس لدي اصدقاء .
فأجاب بصوت دافئ :
- هذه هي الإجابة يا مطر أنت ستشترين الصحبة و الوقت و أنا سأدعك تشتريني و وقتي، لذا في اي وقت ستجدينني هنا و انا كلي اذان صاغية.
فإبتسمت له و ودعته لكنني شعرت فجأة أنني لم أعد وحدي فرفعت رأسي و تقابلت عينانا, فرأيت من ساقتني قدماي لرؤيته ، لكن بدلا عنه وجدت صحبة قلب جميل .
لقد وجدت اللهفة الأولى و القدر الحلو يتجسد امامي .
إنه قيصر!.

لم أكن أعرف شعور غياب العالم كله و تغير الفصول في ثوان قليلة .. لم أكن أعلم خليط مشاعر الفرح مع الحزن ، الإشتياق و اللهفة و تيار الفراشات السريعة مع نبضة القلب اللذيذة .. الا حين رأيته و رأيت عيناه و هي تحدق في عينيّ , و يبدو من تعابير وجهه أنه تفاجئ أكثر مني.

فأعادني صوت جد الزمن الجميل للواقع حين قال يهمش شمعته:

- مطر أرى أنكِ قد أقفلت الباب في وجه زبوني العزيز و أرى أيضا أن باب آخر قد فُتح للتو.

فشعرت بحرارة ترتفع و تستقر في وجنتي و بخجل شديد جعلني اتسمر أمام الباب ، فإبتسامته الهادئة و عينيه المصوبتان نحوي جعلت قلبي على وشك الانفجار، فقلت بتلعثم و بصوت منخفض :

- أن.. أنا آ.. سفة تفضل.

و خرجت بسرعة دون أن ألتفت أو أنظر ، فمن شدة خجلي و ارتباكي لم أستطع أن أواجهه أو أتحدث معه أو حتى النظر اليه . فلم أكن أعلم أن ذلك المتجر السحري قد حقق حلما أرَق أيامي وتمنيته لليالي عديدة .

و لم أكن أعلم أيضا أنه يسرق الوقت لدرجة أنني لم أشعر بها و هي تظلم لهذه الدرجة، فحتى الرياح و القطط الضالة قد اختبئت من الظلام و أنا مازالت داخله أمشي بروحٍ مضيئة .

حينها تذكرت فجأة خالتي و انني للمرة الثانية اتأخر عليها .. لا بد أنها قلقة ! ، فذلك المتجر السحري يلعب بالوقت و يجعله يمر مرورا لحظيا لا أشعر به .

و لسوء حظي أن هاتفي ابتل من آخر مرة و هو عند المصلح الان لأنه كان هدية أبي رحمه الله في عيد ميلادي الثالث و العشرين و أنا ليس لدي طريقة اخرى لأطمئنها.

كيف سأتصل بخالتي يا االهي! هذه المرة أعلم أنها ستقتلني لا محالة ! حينها توقفت و تذكرت جد الزمن الجميل هل أعود و أطلب هاتفه مرة أخرى؟ لا لا قطعا لا كيف سأعود و أنا قد خرجت بتلك الطريقة؟ و الأدهى أن قيصر هناك ماذا سيقول عني؟.

أعلم ما سيقوله سيقول أنني خرقاء من الدرجة الأولى و غبية لا عقل لها.

فوضعت يدي في جيبي سترتي و مضيت ألتهم الطرق بسرعة لأصل فلحسن الحظ بيتي ليس بعيدا جدا !

و لا ادري لماذا ذلك القيصر يظهر في بالي الان ، يا الهي ! ليس وقتك يا قيصر حين أعود سأفكر بك و بعينيك جيدا أما الآن فشغلي الشاغل هو العودة للبيت و تقبل توبيخ خالتي بصدر رحِب.

حينها داهمتني فجأة نوبة من السعال الحاد و معها ألم حارق في صدري , فشعرت بإختلال في توازني وأن العالم قد انقلب رأسا على عقب في ثانية , فتذكرت انني لم أشفى جيدا و تعليمات الطبيب كانت ان ألازم البيت لفترة و أن لا أتعرض للهواء البارد , فضربتها في لحظة عرض الحائط أملا في رؤيته .
و ها أنا رأيته و لم تعد لتعليمات الطبيب أي قيمة و أهمية الان.

فإستجمعت شتات نفسي و أكملت على مضض حتى شعرت فجأة بخطوات مسرعة ورائي، فإلتفت فوجدت شخصا طويلا يمشي مسرعا ورائي لكنني لم أره بسبب الظلام، حينها استبد بي الخوف و رحت أجري و أنا اشعر أن ذموعي ستنزل في اي لحظة ، حينها فكرت في أسوأ احتمال قد يحصل لي , فمر في ذهني شريط سريع و أنا أفكر في خالتي و في والديّ و في الجد و في قيصر، حينها عادت لي نوبة السعال و أحسست بألم حاد في رأسي فتوقفت و أنا أشعر بالدوار , و فجأة شعرت بيد تمسك ذراعي , فإلتفت و أنا أفلت ذراعي بالقوة التي بقيت عندي و أصرخ بصوت ضعيف:
- أتركن..
فعادت لي نوبة السعال و لم أستطع أن أكمل بسبب اختناق الحروف داخلي و أنا أتخيل ماذا سيحدث لي .. حينها سمعت صوتا قد أنساني كل ما بي , و شعرت بأن كل شيئ اختفى، سعالي .. ألم صدري.. و العالم.
- توليب اهدئي.
كلمتين فقط أعادتني لوعي و ساعدت قلبي و جسدي، فحتى كلماتي لم تسعفني جيدا و خانتني مثلما خانني جسدي فأصبح قلبي ينبض بسرعة كبيرة , و تنفسي اصبح سريعا لدرجة أنني لم أعد قادرة على الوقوف على قدمي ، و لم أعرف هل بسبب هلعي أو بسبب قربه و لمسة يديه؟ .
فشعرت بيديه تلينان و هما تمسكان ذراعي برفق ، حينها اقترب مني حتى أصبحت أنفاسه الدافئة تلامس وجهي و قال :
- اهدئي يا توليب أنا قيصر لا تتحركي ابقي ثابتة ! .
فحاولت للمرة الثانية إخراج الحروف و التحدث لكن قلبي قال كلمة واحدة :
- قيصر؟.
- نعم أنا قيصر يا توليب.
فقلت بهمس منخفض :
- ما الذي تفعله هنا ؟
- قولي لي أنتِ ماذا تفعلين هنا وحدك؟

فخرجت كلماتي متفرقة :
أنا.. لا.. جدي.. المت.. جر.
ثم احسست بيديه و هما تقبضان على ذراعي بقوة ثم قال بهمس :
- اهدئي و تنفسي ببطء.
ففعلت مثلما قال لي لكن قلبي ابى الاستماع لي و تمرد للمرة الألف، فإستجمعت نفسي و أنا أتنفس ببطء و تذكرت خالتي , فأخرجت كلماتي كلها دفعة واحدة وقلت بصراخ منفعل:
- الهاتف!!! أريد هاتفك لو سمحت لأتصل بخالتي فهاتفي ليس معي و أنا أعرف انها قلقة.
- حسنا يا توليب لكن اهدئي .
ثم أخرج هاتفه من جيبه و أعطاه لي، فإبتعد عني قليلا و هذه القلة كانت كافية لتشعرني بأن العالم موحش .
فتساءلت و أنا أضغط على الارقام بيد مرتعشة كيف ليدين بسيطتين أن يحملا كونا بأكمله؟
- خالتي أنا توليب.
فصرخت و تخيلتها أمامي بتفاصيلها الحنونة و فمها الغاضب :
- تووووووليب !! أين أنتِ بحق السماء لقد كدت أموت قلقا.
- أنا آسفة يا خالتي لكنني بخير لا تقلقي.
- كيف لا اقلق و انتِ قد تأخرتي كثيرا عوضا عن انني لم اجد طريقة للتواصل معكِ لكن ما به صوتك هل أنتِ بخير ؟
حينها عاد لي سعالي اللعين فلم أكد أنبس بكلمة حتى أخذ مني الهاتف و إبتعد يحكي مع خالتي، فلم أسمع ما قاله لها لكن ابتسامته الجميلة برهنت لي أن خالتي قد دخلت الى قلبه بعفويتها الفاتنة و بساطتها المحببة، حينها إقترب مني و قال بصوته الجذاب :
- لقد طمأنت خالتك بأنكِ معي و أننا سنصل قريبا.
فقلت بتردد و بخجل :
- لكن هل اخبرتها عن...
- لا لم أخبرها لا تقلقي .
حينها اقترب مني مجددا و عيناه لم تفارق عيناي, و أنا كذلك لم أبعد عيني عنه لأن الشوق قد رسم طريقا لقلبي لأيام عديدة , لم اهتم اذا عرف مشاعري أو سمع دقات قلبي فقربه مني و رؤيته هكذا امامي مع لمسة يديه الحنونة على ذراعي قد كانت جائزتي من أسبوع كامل من التعب ، فعينيه وحدها تزيح تعب العالم اجمع فكيف بتعبي أنا؟

- لماذا لم تحضري يوم الثلاثاء ؟
حينها انزلت بصري بخجل و كلماتي قد هربت مني مرة أخرى فكرر سؤاله بنفس الرقة :
- انظري إلي و أخبريني يا توليب لماذا لم تأتي؟
كيف سأنظر اليك و أنت تنظر لي تلك النظرة، النظرة التي قتلت قلبي و بعثرت روحي .. فحين نطق أسمي بتلك النبرة الرقيقة لم أعد أشعر بشيئ الا بيديه الحنونة على ذراعي .. ناهيك عن عينيه اللتان كانتا تخبراني بالكثير الذي لم أفهمه , و عطره الذي اسكر انفي و جعلني ما بين الهذيان و اليقظة.

فوددت لحظتها أن أعانقه و أتنفس رائحته و اخبره بألمي و ضعفي و كل شيئ صغير لم اقله لأحد من قبل ، اردت أن أخبره عن كيف أن تغير الفصول و التقلبات الجوية تعبث بمشاعري .. أردته أن يعلم عن سري الوحيد و كيف انني اصبحت اعشق الشتاء و الامطار و الرياح .. اردت أن أخيره عن حبي للأيام التي تجمعنا دون مواعيد أو ترتيبات .. أردته أن يعلم انني أحب خوض النقاشات و التلاعب بالكلمات في حضوره .
أردت أن اخبره أنني ما أحسست يوما بارتباك اللحظات و لهفة اللقاء الا معه .
لكن عوضا عن هذه الأفكار الحالمة و البسيطة اكتفيت بنظرة خجولة مرتبكة و سكوت لم اعرف كيف اقطعه , فحاولت اخراج الكلمات لكنها خرجت مبعثرة كتبعثر قلبي في تلك اللحظة :
- أنا .. ل..م أعرف ل..لا.
حينها أنزل يديه فجأة و عاد كل شيئ لطبيعته الا قلبي ، فعادت تلك النظرة الغامضة تطالعني بهدوء و كأنه ليس هو نفس الشخص الذي كان عليه قبل ثوان قليلة.. يا الهي!! كم يربكني هذا القيصر! كيف يتغير شخص للنقيض في ثوان قليلة. ثم قال بصوت عادي و قد عادت عيناه لوضعها الطبيعي .. فقيصر الطبيب قد عاد أمامي.
- لا حاجة لكي لتخبريني سبب غيابك فهذا يعود لكِ في كل الأحوال . ثم ابتسم و تابع ممازحا و تلك الرقة التي كانت تنحت وجهه و تغلف صوته كانت كحلم جميل ذهبت مع تغير نبرة صوته :
- سأصطحبك للمنزل و الا فخالتك ستقتلني فطبيبك لا يريد الموت مبكرا .
و كأن باستعماله كلمة " طبيبك " أكد لي بأنني بالنسبة له مريضته و هو طبيبي و أن نظرة القلق في عينيه ماهي الا قلق طبيب روتيني .. لكن تلك اللمسة التي جعلتني اطوف الكون في ثوان و أذابتني في نفس الوقت حتما لم تكن لمسة طبيب بل لمسة رجل.. قد تكذب العين و قد يخدع اللسان لكن الجسد لايفعل.
فإنتفضت حين وضع يديه على ذراعي ثم قال بصوتٍ منخفض :

- هل تريدينني أن أموت ؟
- نعم ؟!
لم يقل شيئا لكنه ابتسم ابتسامة ذات مغزى و حينها فهمت ما كان يقصد فإحمر وجهي خجلا , فأجبت بإنفعال مبالغ به :
- اااه لا فخالتي لطيفة لا تقتل ثق بي .
حينها انفجر ضاحكا و لأول مرة أراه يضحك بهذه الطريقة , فنسيت نفسي و قلبي و حتى سعالي و ألمي, فملامحه جذبتني و اوقعتني في نشوة لم أستطع الخروج منها .. فبقيت أتأمل تفاصيل وجهه والتجاعيد حول عينيه, و معها صوت ضحكته الجذابة.. فحتى ضحكته قد نالت نصيبها من قلبي.
كيف لشخص أن يكون جذابا و خطيرا لهذه الدرجة؟! فمن قال أن القتل يكون فقط بفعل وسيلة.. حتما لم يعرفه !.
فجأة توقف عن الضحك و نظر لي فوجدني أتأمله, فلم أشعر بنفسي الا و أنا أقول لا اراديا و بشرود:
- ضحكتك فاتنة جدا.
حينها اقترب مني ببطئ و ركز عينيه في عيني و أمسك يدي , ثم أصبحت أصابعه تكتشف أصابعي بفضول , حينها شعرت بأن الهواء قد انحسر من رئتاي و اختفى من العالم , و الشيء الذي اربكني اكثر أنني كنت مستسلمة و فاقدة للإحساس بكل شيئ و كل ذلك حدث بسبب تلك اللمسة التي حلمت بها ليالي طويلة .. فرائحة عطره قد اسكرتني و جعلتني غارقة في نشوة لا اريد الاستيقاظ منها, و ما زادني استسلاما سوى انفاسه الدافئة التي تلفح وجهي ومعها نظرته التي عادت الى رقتها و غموضها , فلم استطع ابعاد عيني عن عينيه و بقيت أنظر اليه بقلب امتلئ به حتى كاد ينفجر.

فيا الهي ما الذي افعله! لم أستطع التحرك او قول حرف واحد فجسدي قد خانني و انصهر كإنصهار الحديد بسبب قربه, فقيصر اذاب قوتي و جسدي روحي و معها قلبي حتى بت عاجزة عن ابعاد يدي تحت سطوة يديه الكبيرة .

لكن فجأة ترك يدي و نزع وشاحه و اقترب مني حتى احسست بأنفاسه الدافئة تلفح عنقي فرفع شعري و لف الوشاح حوله . ثم ابتعد و نظر لي نظرة غامضة و قال بصوت متحشرج:
- يداك باردة جدا و الوقت تأخر سأصطحبكِ للمنزل .
و مضى سريعا دون أن يقول كلمة واحدة فتبعته أيضا دون أن أتفوه بكلمة مع وشاحه البني الكبير المليئ برائحة عطره المذهبة للعقل , فأغمضت عيني و أنا استنشق عبق رائحته

لأخبئه في رئتاي حين يأتيني الشوق و تزورني الوحدة .
لم أشعر بالوقت الا و انا أمام منزلي , فعجبا للوقت كم يمر سريعا حين نريد منه المزيد , و عجبا منه أيضا حين نريد منه المرور و لا يمر .. فأمسكت الوشاح لأعيده اليه فباغتني فجأة حين قال بنبرة غامضة منخفضة :
- لا تعيديه احتفظي به. ثم همس بشيئ عن التعادل لم افهمه و تابع :
- هيا ادخلي لن أرحل حتى أراك تدخلين.
- حسنا سأدخل تصبح على خير .
- و انتِ من أهل الخير .
فأدرت ظهري لأدخل لكني وقفت مترددة ثم حسمت أمري و عدت اليه و قلت بإندفاع :
- لقد كنت مريضة !
- ماذا ؟
- لم احضر لأنني كنت مريضة .
فإلتفت بسرعة لكي لا ارى ردة فعله , لكن فجأة شعرت بيد تمسكني من ذراعي .. ثم اقترب مني و قال في اذني بصوت هامس مبحوح اذاب قلبي :
" أنتِ تشبهين زهرة البدايات الأولى و مطر اللقاء الأول بالأرض .. مذهلة أنتِ حد التعب" .
ثم أدار ظهره مباشرة و ابتعد كأنه لم يسقط قلبي .. لم يذيبه و يصهره بكلماته ..التفت و لم يأبه بنشوة اللحظة التي خلقها .. التفت و لم يكترث برفرفة روحي و التصاقها بظهره.
التفت و ذهب و أنا احسست بخدر في ساقي و لم استطع التحرك لأنني ما زلت تحت سحر كلماته و قربه حتى شلت قدماي . متسمرة في مكاني اراقب خياله الذي بدأ يختفي من أمامي.
- توليب لماذا انت واقفة هكذا ؟!
- لا شيئ يا خالتي سأدخل، حتما لا شيئ .

" أنتِ تشبهين زهرة البدايات الأولى و مطر اللقاء الأول بالأرض .. مذهلة أنتِ حد التعب" .

هكذا ظلت تدور كلماته في قلبي ، كدوران الأرض حول الشمس .. فلم استطع نسيانها و لا تخطيها، و كيف اتخطى و أنا قد عشت في يوم واحد ما تمنيت ان اعيشه طوال حياتي ،و شعرت بما لم اشعر به من قبل .

فأنا مازالت للآن أشعر بأنفاسه و كأن كل شيئ حدث اليوم ، فصوته الذي حلمت به لليالي و كذا همسه الذي هز روحي قد جعلا مني امرأة لا تعرف نفسها.

بإختصار لقد كان يشبه المستحيل الذي اريد الوصول اليه رغم صعوبة الطريق , و خيالا يصعب على شخص واقعي مثلي أن يلمسه و ماله الا أن يهيم به و يحلم بطيفه البعيد .

كيف سأنتظر لأراه مرة أخرى ؟ هل جميع العشاق مثلي؟ ينتظرون حتى تكاد قلوبهم تذوب ام انني الوحيدة التي تكاد تهوي في جحيم الانتظار؟.. هل جميعهم مثلي يعيشون على فتات اللحظات السعيدة؟ .. هل جميعهم متعمقون حد النخاع و لا يهتمون لمقدار الأذى الذي سيأتي بعد نشوة اللحظات؟ .. هل جميعهم يتجملون و يضعون اللمسات الاخيرة على شوقٍ جرف قلوبهم لمكان الحب المنشود؟ .

فتذكرت حين اتصل بخالتي اليوم ليحدد موعد الجلسة و التي حددها يوم الجمعة مساءا و هو لا يعلم بأنه قد كتب فرحا لقلبي خصوصا حين اخبرني تلك الجملة التي جعلتني أطوف العالم في لحظات .. كرحالة ارتحلت لجميع الأماكن و بقي لها مكان أخير حلو تختتم به رحلتها الخيالية.
فأنا مازلت أتذكر تفاصيل ذلك اليوم .. فلمسته مازالت للآن أشعر بها تحرق جلدي و تخترق مسامي , ناهيك عن نظرته التي حُفرت في قلبي .
فلو حللت و فسرت تصرفاته بناءاً على منطقيتي و قلبي ذلك اليوم سأقول بأن لديه مشاعر تجاهي.. لكن هل جميع الأطباء هكذا؟ أو هل هو من النوع الذي يحب جذب النساء اليه و أنا وحدي كثيرة التفكير؟.
تارة أقول أن فراشة الحب قد دغدغت قلبه و تارة اقول أن أفعاله نابعة عن أفعال طبيب مهتم بمريضته أو لعوب يجيد تلحين قلوب النساء.

لكن هل الطبيب يمسك بيد مريضته ويكتشف باطنها و يخبرها غزل غير مباشر؟..هل الطبيب ينظر تلك النظرة المليئة بالرقة لمرضاه ؟ هل الطبيب يعطي وشاحه الخاص لمريضته؟ ذلك الوشاح الذي كان الهدية الثانية منه و الذي لا أنفك اشتنشق رائحته ليبقى داخلي.. ليجاور قلبي و يعانق روحي.

تلك الهدية التي أخفيتها بقلب بخشى عليه من الضياع .. اخفيتها بطفولية قلبي وبنضج عقلي و كلما زارتني ذكراه متأنقة ارتديته بسعادة الكون.
فلو كان يتصرف معهم مثل ما يتصرف معي أجزم بأن جميعهم قد وقعوا في حبه.. فجاذبيته تبرز حين يهتم و اذا ما اهتم أصبح آسرا و ساحرا , من هي تلك التي تستطيع مقاومته ؟ لا أحد .
- توليب هل تسمعينني اين ذهبتي !.
فأجبت هامسة " عنده" .
- هاه ماذا قلتي ؟
- لا شيئ يا خالتي انا هنا ماذا قلتي ؟
- لقد اخبرتك أنكِ قد تغيرت كثيرا منذ ذهابك لذلك الطبيب انه ماهر حقا كما اخبرتني صديقتي و فضلا عن أنه رجل حقيقي لم يتركك وحدك و بقي معك و أحضرك للمنزل ، فالعالم يزدهر بأمثاله.
- بل أنا من ازدهر به و ليس العالم .
- توليب ارفعي صوتك قليلا لماذا تهمسين ؟.
فتداركت الأمر و قلت باضطراب :
- نعم هو ماهر جدا أنتِ قلت هذا و كذا صديقتك .
- حسنا لذلك أنا أرى أنكِ لم تعودي بحاجة اليه .
احسست ان قلبي قد سقط و تبعثرت اجزاءه ، شعرت كأن يدا صفعتني أو يدا هزتني لأفيق من حلم تمنيته أن يدوم ، شعرت كأن الطريق الذي مشيت فيه قد اختفى منه النور فجأة .. شعرت ..و شعرت .. وشعرت .
كم أنا حمقاء و اقر انني غبية ،كيف غابت عني هذه الفكرة و نسيت بأن رؤيته مؤقتة؟،كيف أعجبت بشخص لن أراه مرة اخرى ؟ كم أنا غبية يا الهي كيف تعلقت بشخص سيغدو وهما بعد ان اتعافى ؟ .
- زهرتي لماذا شحبت فجأة هل انت بخير ؟
فقلت بصوت حاولت جعله عادي لكي لا تعرف أن ما قالته قتل قلبي :
- انا بخير يا خالتي لقد داهمني الدوار فجأة فقط لا غير.
- اذهبي لتأخذي قسطا من الراحة و سأحضر لك شاياً ينعش قلبك .
فقلت بهمس و بخيبة العالم أجمع " لا شيئ سينعش قلبي يا خالتي .. سواه."
ذهبت الى غرفتي و الحزن قد عرف طريقا لقلبي ولم اعرف ماذا أفعل لأطرد ما قالته خالتي من رأسي , فهو يدور و يدور و يجعل عقلي على وشك الانفجار , فذهبت لأستحم و لأنزع عن عقلي و قلبي هذه الأفكار علها تتركني و تبتعد.

فخرجت و أنا أجفف شعري المبتل ، فوقعت عيني تلقائيا على سطح المكتب حيث مفكرتي التي وعدت قيصر أن أكتب فيها فإقتربت منها و في داخلي رغبة غريبة في أن أكتب .. تولدت فجأة في نفسي رغبة أن أترجم ما أشعر به.

ففتحت المفكرة و أنا أفكر كيف سأبدأ؟ فلو كانت البداية هي الشيئ الحاسم و الأساسي،.. فبدايتي كانت في شهر ديسمبر ..بدايتي كانت هو .. لذا سيكون أيضا نهايتي كنهاية هذا الشهر المقدس .. لقد جعلته مقدسا لأنني أعلنت ايماني بالحب فيه ، لأنني تجردت من كل ما هو تقليدي و عبثي ، لأنني كسرت القواعد المنطقية في اللعب على أوتار الحب .. لذا قررت أن تكون اولى كلماتي عنه.

فبدأت بتجسيد قيصر و ديسمبر على الورق.

و كانت هذه بداية سلسلة من رسائل تكتب و لا تقرأ.

***

- توليب عزيزتي استيقظي لماذا أنتِ نائمة على المكتب ؟
فأجبتُ بصوت ناعس :
- لقد كنت اكتب حتى زارني النوم فنمت و لم أشعر .
فقالت باستغراب :
- تكتبين ؟! منذ متى تكتبين ؟
- منذ أن زرت الطبيب انها وسيلة من وسائل العلاج .
- حقا ؟؟ لقد تطور العالم يجب أن نواكبه . ثم تابعت بصوت مرح :
- هيا اغتسلي لقد اعددت الفطور و جهزي نفسك للذهاب.
فقلت بتعجب و استغراب :
- أذهب ؟ الى أين أذهب ليس عندي شيئ اليوم .
- ستذهبين معي للسوق لنشتري بعض الأشياء .
- حسنا يا خالتي سأستحم و أجهز نفسي ثم سآتي .
فكانت خالتي على وشك الخروج ثم عادت كأنها تذكرت شيئا و قالت :
- يالي من مستهترة لقد نسيت أن أخبركِ ، هذه الأيام اصبحت أنسى كثيرا ! .. لقد اتصل ذلك الطبيب أمس و قد قدم موعد الجلسة انه اليوم في الخامسة مساءا لقد جئتُ لأخبركِ أمس الا انني وجدتك تستحمين , فقررت اخبارك بعد الاستحمام الا انني نسيت الأمر تماما .
لم أكن مع خالتي ابدا و لم اركز مع كلامها أيضا كل ما ركزت فيه هو " طبيب .. موعد .. اليوم .. الخامسة مساءا " و فقط.
و أخيرا ذهبت سحابة الحزن و الاحباط التي عكرت مياه مزاجي ، فالقدر فاجئني و قد قرر اخيرا أن يُدخل السرور لقلبي.
- توليب هل أنت معي ؟
- اه نعم يا خالتي معكِ لقد شردت قليلا .
- حسا يا حبيبتي سأتركِ تستحمين و تجهزي نفسك و من ثم تعالي لنفطر سويا .
- حسنا يا خالتي .
حين اقفلت خالتي الباب ذهبتُ فوق السرير و أنا اقفز كطفلة صغيرة.. من يراني الآن لا يتوقع أن توليب الفتاة الرزينة و العاقلة تقفز و سعيدة لأنها ستراه ، لو رأتني خالتي الآن بحالتي هذه جتما ستمنعني من الذهاب اليه، لأنني أنا أيضا لم أتوقع أنني سأصبح يوما انسانة هائمة .. حالمة .. و تؤمن بالقدر وترتيباته ، خصوصا بعد الحادث الذي حطمني و جعلني جثة متحركة بلا روح و قلب.

- اذا توليب كيف حالكِ ؟
قالها بصوته الذي بعثرني و أنا اجبته بعد بعثرة صوته لقلبي :
- انا بأحسن حال كما ترى .
- وهل تعافيت كليا من مرضك ؟
- ليس كليا انما اشعر بتحسن عما كنته. ثم تابعت اسأله مترددة و أنا لا أعلم انه لو بقيت في ترددي لكنت حافظت على الاقل على رفرفة جناح قلبي .
- لماذا جعلت الجلسة اليوم؟.
فأجاب ببساطة وثقة :
- لكي اراكي و لأعرف حقيقة مرضك أيضا .
فقلت بقلب يكاد يحلق فرحا :
- لماذا؟
- لأكتشف مدى تمسك مرضاي بالجلسات فأحيانا يجعلون من المرض حجة لهم لعدم الحضور .
ثلاث ثواني كانت كافية بكسر جناحي قلبي .. ثلاث ثواني مع ثلاثة خيبات, مرضاي .. حجج .. عدم حضور.
هو لا يعلم أنني لو علمت ذلك اليوم لذهبت اليه ركضا جاعلة من مرضي وحججي و ظروفي طريقا اخطو فيه بكل لهفة والم و مع كل خطوة اهمس باسمه بسعادة .. هو لا يعلم ان رؤيته ترتب فوضى روحي و وجوده نعمة لا اريد زوالها.
كنت سأقسم له برب الكائنات اجمع انني كنت مريضة .
كنت سأبرر له و انا التي لم تبرر لأحد من قبل .. كنت سأخبره بأن تلك النوبة التي داهمتني يوم كنت معه كانت نوبة مرض وليس نوبة هلع بالرغم من انه شهد هشاشتي و ضعفي .. كنت سأصرخ في وجهه واخبره بمرض اخر غير مرضي الجسدي و النفسي .. كنت سأخبره بمرض قلبي به .
لكن لم اقل شيئا من كل هذا و ابتلعته داخلي و دفنته في اعماق روحي و اكتفيت بنبرة هادئة حين قلت :
- لقد اخبرتك بأنني لا ابرر لأحد اي فعل من افعالي لكن لو كنت اجعل من الحجج و الظروف شيئان مهمان في حياتي لما استمررت في المجيئ أيها الطبيب, ولو كنت اريد الانسحاب لما اتيت كل الطريق الى هنا .
فبقي للحظات ينظر لي نظرة غامضة و غريبة و خالية من كل شيئ كأنه يريد تكذيب ما قلته ثم قال :
- حسنا أخبريني يا توليب ما هو لونك المفضل؟ .

فتنهدت و قلت و أنا أتمنى أن ابقى متماشكة حتى تنتهي الجلسة :
- البنفسجي .
- لماذا هو بالتحديد ؟
- لأنني كنت امقت كل ما يحبه الجميع .. انت تعلم أنه منذ أن فتحنا أعيننا على هذه الحياة. و الواننا قد تم اختيارها الوردي للبنات و الأزرق للذكور .. و أنا منذ كنت طفلة لم احب هذا اللون أبدا لأنه عادي و كان مملا بالنسبة لي.. فأصبحت أبحث عن لون نادر و لا يحبه الجميع لون يجمع بين الرقي و الكآبة .. و بين أناقة الأشياء و مسمياتها .. جامع لكل ما هو نادر و فريد , فوجدته! لون في ظاهره لون عادي و في باطنه يعبر عن الحب و غموض التفاصيل .. لون حين يحضر يجعل جميع الألوان هامشية لا صفة استثنائية تجمعهم .
و كل هذا وجدته في البنفسجي.
- كل شخص ينجذب لما يشبهه لهذا انتِ تشبهين هذا لون .. مختلفة بشكل نادر.
- هل هذا اطراء ؟
فإبتسم ابتسامة جانبية و لم يجب ثم قال :
- هل لاحظتِ بأن المفكرة التي اعطيتها لكِ لونها بنفسجي أم انكِ وضعتها في درج مكتبك ليأكلها التراب ؟
هو لا يعلم بأن المفكرة معي الان و انها اصبحت رفقتي الوحيدة , لذا أنا لن ادعه يقرأ كلماتي عنه ابدا , فأجبته ببرود :
- بل كتبت فيها و علمت بأن لدي موهبة الكتابة .
- حسنا هذا جيد فعلى الأقل اكتشفت موهبتكِ بسببي، لكن متى سأقرأها ؟
- و هل يجب على الطبيب أن يقرأ مفكرة شخص ما ؟
فأطرق برأسه ثم أجاب بمهنية :
- هذا عملي و هو التوصل لحل جذري لكن هذا يعود لرغبة المريض على كل حال لأنه حتى و بدون كلماته فأنا أستطيع معرفتها في عينيه و في تصرفاته فبعد كل شيئ هذا عملي .
- اذًا تستطيع معرفة ما في عيني و قلبي دون أن أخبرك أو ادعك تقرأ مفكرتي ؟
- نعم هذا صحيح .
- و اذا لم تستطع ؟
فأجاب بغرور جعلني انفر منه للحظة :
- لا توجد كلمة نفي في حياتي حين أستطيع فأنا أستطيع.
فقلت بتحدٍ و أنا اركز عيني في عينيه :
- سنرى بهذا الشأن اذا كنت ستستطيع في الأخير أن تعرف ماذا يوجد في قلبي أم لا .

-انتِ مختلفة .
-عفوا ؟
-لقد علمت منذ المرة الأولى بأنكِ مريضة مختلفة .. نظرتك الحزينة .. تصرفاتك المتناقضة .. كلماتك التي تارة ما تكون منتقاة و تارة اخرى عبثية لا تأبه لأصول اللغة و قواعدها .. عمرك الذي يتناقض مع مظهرك.. توتر يدك حين اسالك.. انغماسك في افكارك و بعدك عن الواقع .. لهذا أنا اخترت لكِ مفكرة تشبهك و بلون مختلف.. لأنكِ تنتمين لهذا اللون و فقط.
و الان انا وجدت ان حدسي قد صدق لأنك اخترت لونا يشبهك و أنا اخترته بناءا على ذلك .. الا زلت تشككين في مهاراتي كطبيب يا توليب؟
ألم.. خيبة .. غضب .. أمل .. لهفة.. حزن . لقد شعرت بكل هذا في ثانية واحدة اثر كلماته التي لم اسمع مثلها من قبل .. لقد كان أول شخص وصفني بهذه الطريقة و الذي جعل من قلبي ينبض مرة و يتألم مرة اخرى .. لقد عرفني و قرأ كل تحركاتي , شخص مثل هذا سيعرف ما أحمله في قلبي تجاهه .. اليوم او مستقبلا. ثم قلت ما تبادر لذهني لحظتها رغم التشويش الذي يعيشه قلبي :
- اذا سأعتبره ا اطراء هذه المرة .
فقال بهدوء :
- و هو كذلك .ثم غير دفة الحديث و سألني سؤال غريب :
- هل بكيتِ يوما؟
-نعم؟!
-هل بكيت يوما يا توليب؟
-حسنا و من فينا لم يبكِ فجميعنا في الأخير تعرضنا لمواقف جعلتنا نذرف دموعا.
- و هل هذا ينطبق على الحادثة التي جلبتكِ لي؟
- في تلك الحادثة بالتحديد لم اذرف دمعة واحدة.
- لماذا؟
فتنهدت ثم اجبته بشرود و أنا أتذكر ما عشته في تلك اللحظة :
- لأن صدمة رؤيتي لهما في ذلك الوقت الجمتني وجعلتني لا أفرق بين الخيال و الواقع .. كان عبارة عن حادث سيارة لذا مازلت أتذكر برودة جسدهما و خدوش وجههما في تلك المشرحة الكئيبة التي لم و لن تغادر ذاكرتي، ففي جنازة والديَّ لم ابكي او اندب حظا و كل ما فعلته هو النظر في المجهول و كأنني لا انتمي الى هنا.
وجه والدي البشوش رأيته مليئ بالخدوش , و دفئ يد امي كانت باردة و شاحبة.. و هذا كله بسبب كرة ثلج أعجبتني يوما ، فبقيت ألوم نفسي مرة بعد مرة حتى لم أشعر بنفسي الا و

أنا اقذف الكرة للحائط لتتهشم إلى قطع مثل ما تهشم قلبي حين رأيتهما اخر مرة .. ناهيك على الهمز و اللمز الذي لم اسلم منه و من اقاربي عن انني ابنة عاقة لم تندب حظها على فقدان والديها و عن انني لا احساس لي لأنني لم أبكي ، وحدي من كنت أعلم انني كنت في حلم ذلك اليوم لا بل في كابوس ، وحدي من علمت أنني في تلك اللحظات لم أشعر إلا بقلبي و هو يتمزق بصمت و بدون أن ينتشلني احد مما انا فيه , الا خالتي التي ساعدتني و بقيت معي تحثني على الخروج لذا فقد نجحت نوعا ما لأنني أمامك الآن .

حين اكملت اصبت بالذهول لأنني استرسلت في الحديث هكذا بدون حواجز أو مقدمات .. لأول مرة اجدني أتحدث هكذا بدون قيود أو عوائق.. ا بسبب ما اشعر به اتجاهه ؟ ام بسبب انه طبيب ماهر؟ ، فنظرت له ووجدته يكتب في اوراقه و حين رفع رأسه نظر لي نظرته الغامضة و قال :

-رحم الله جميع الموتى و اسكنهم فسيح جناته فوالديَّ ايضا وافتهم المنية .

اشتراكنا في يتمنا جعلني أشعر بالراحة لأنه هناك شخص يشعر مثلما أشعر و أن دائرة اليتم التي ادخلته فيها جعلتني أشعر بشعور الانتماء إليه.

قاطع أفكاري سؤاله المفاجئ :

- هل تعلمين ما هو النحيط؟

- النحيط؟ ما هو ؟

- هو البكاء الذي يتردد في القلب و لا يظهر، فليس كل من يذرف الدمع هو شخص متألم أو يتعذب .. قد يكون الإنسان الذي لا يبكي هو أكثر الأشخاص توجعا و وحدة , فتنصدم دموعه في جدران القلب و لا تخرج للعين معلنة عن نفسها .. انما تبتغي في حالات أن لا تظهر نفسها لأن الألم أقوى من أن يقذفه قلب عاجز و ضعيف .. مثل قلبك. لذا ليس كل شخص لا يذرف دموعا يعني انه لا يتألم فالصدمة وحدها تجعل تلك القطرات تجف و يبقى ترددها في القلب ، فهو ليس خطأكِ و لا تحاولي أن تجعلي من دائرة الذنب تحاوطكِ فهذا و قضاء و قدر.

بقيت للحظات صامتة اتدبر في كلامه لأنني شعرت بأن روحي قد تم وضع ضماد عليها .. شعرت بأنني أريد لهذا الشخص أن يكون هو من أخبره كل شيئ و إن كنت تألمت منه اليوم و كثيرا .. أريد أن أخبره عن شعور الانكسار و العجز .. عن كوابيسي الواقعية .. عن وحدتي التي كانت تنهشني لسنوات ..أريد أن أخبره عن كل شيئ .

لكنني علمت اليوم أنني بالنسبة له شخص يريد الفضفضة فقط .. أو كما سماني مريضته ، لذا سأعطيه ما يريد .. الفضفضة بصفتي شخص يريد أن يريه ندوبه و شقوقه ليضع عليها ضمادا آخر كما فعل الآن.

ثم قلت لكي انهي الجلسة فطاقتي نفذت من وجوده :
- أيها الطبيب هل يمكننا التوقف هنا اليوم !
- حسنا كما تريدين سأراكِ يوم الاثنين نفس الساعة.
فوقفت و حين هممت بالمغادرة تذكرت شيئا كنت أريد أن أسأله عنه :
- أيها الطبيب هل يمكنني سؤالك شيئا؟ .
- نعم تفضلي
- اريد ان أسألك إذا ما جاء يوم و أردت ترك الجلسات هل ستوافق ؟
- نعم فرغبة المريض تأتي اولا ثم رغبة الطبيب، حين اعالج جروح قلبك حينها فقط يمكنكِ التوقف عن المجيئ هنا .
- لكن قلبي به جرح جديد لن يُعالج للأبد انا أعلم.
- عفوا ماذا قلتي!
- لا لا شيئ سأراك يوم الاثنين أيها الطبيب.
- قيصر و ليس الطبيب أخبرتكِ بأن تسقطي الألقاب.
فإبتسمت بألم و قلت :
-سأراك يوم الاثنين يا قيصر.

خرجت و أنا أشعر أنني سقطت من السماء السابعة حين كنت احلق.. فقد علمت أنني أنا أيضا وقعت في الحب , لأنني معه حلقت عاليا مطلقة لجناحي طريقة للذهاب لمكانه .. مطلقة لنفسي و لقلبي العنان في الذهاب اليه و اللجوء داخله.
أما الآن فقد انكسر كل شيئ و وقعت في قاع الحب.

حين كنت صغيرة اتذكر جدتي حين كانت تخبرني عن الخرافات و معانيها الساحرة.. أخبرتني عن خرافة تطابق الساعات و التي تحمل معنى انك في بال أحدهم ، و عن أن النجوم ما هي الا أرواح الغائبين الهائمة .. أخبرتني أن النيازك ما هي الا دموع النجوم المتألمة .. و أخبرتني ايضا عن اهداء الساعة للحبيب فال للفراق .

خرافات كانت تلقيها على قلبي ليبتسم بطفولية , و انا كنت انظر اليها بعينين طفلة صغيرة متسعتين من هذا الكم من الأشياء الساحرة التي تلقيها علي .
بقلب طفلة صغيرة صدقتها .
بقلب فتاة كبيرة صدقته.

لطالما ذكرني بالخرافة التي لن تتكرر ، خرافة كانت تلقيها الجدات قديما .. فقد كان خرافة نسيت جدتي ان تحكيها لي .. خرافة ايقظت الطفلة الفضولية التي اختفت داخل روحي .. كان خرافة لا يصدقها العقل و المنطق .. خرافة صدقتها إلا أنا و تمسكت بها كأنها تميمة الحظ في حياتي الكئيبة.

فقد كنت لحظتها أراه في جميع من حولي .. في تطابق ساعات الانتظار و في لمعان النجوم و الامطار المنهمرة .. كنت أراه في كآبة الشوارع و وحدتها.. أراه في حنو النظرات و الابتسامات الموزعة .. أراه في الرسائل الورقة و الكلمات المتربة أراه في الحروف و هي تترصف لتعلن عن وجودها .. كنت أراه في السماء الرمادية و برد لقائنا .. كنت أراه في شهر ديسمبر و أيامه .

لقد ملئني و أنا المليئة بالثقوب.. لقد جعلني لا أريد من العالم سواه دون أن يفعل أي شيئ .. فكل ما بجعبتي سوى نظرة من عينيه الغامضتين و برودة في تصرفاته المتناقضة و عبارة غزل لحظية و مفكرة و وشاح ملئ روحي دفئا.

لم أكن أعلم يا جدتي كم أنه خرافة ساحرة تحبها العجائز و تحكيها للأحفاد.
إلا انني ما علمت يوما كم أن قلبي عجوز هرم يهوى الخرافات .
فأنا لدي ما يبكيني و ما يشعرني بأنه لدي قلب .. لدي ما يشغل ليالي المظلمة و وحدتي .
انا لدي خرافته و لقاءنا و ديسمبر.

وقفت أنظر للسماء الملبدة بالغيوم و الرياح تلفح وجهي و شعري .. يذكرني هذا الجو بيوم لقائنا الا ان المطر يومها كان سبب سحر الأجواء ، فذهبت ناحية البحر الذي شهد جنوني و لهفتي و قلة حيلتي .. شهد انغماسي في حلم خيالي مليئ بالمطر و به.

مرحبا أيها البحر هل تذكرتني؟ أنا تلك التي جائتك لتعلن إيمانها بالحب .. لعلك لا تتذكرني لكن امواجك المتمردة تذكرتني فأنا الوحيدة التي رقصت على امواجك و انغمست في عالم الحب و الأحلام الوردية .. فأنا التي أعلنت أمامك بأن قلبي المشيد بأسوار عالية قد اسقط منطقه ليصعد الحب مرفرفا فرحا .. أنا التي جائتك بهذه المفكرة لأنها اول هدية منه و فيها اسمي و لوني .

أنا هي توليب التي ألحدت بالحب منذ ولادتها و أمامك فقط أعلنت ايمانها .

آمل أن تكون بخير أيها البحر لكنني لست كذلك .

هل تعلم بأنني لم أقع في الحب.. بل حلقت فيه؟ .

كنت اعتقد انني مختلفة عن اللواتي وقعن في الحب .. فأنا كنت احلق بحرية الزمان و المكان .. أحلق بلهفة اللقاء المربك و سعادة القلب الأول .. أحلق داخل غرفتي بلهفة و شوق لرؤيته لأن جناحي لم يسعانني.

كنت أحلق و في قلبي بصيص أمل أنه سيبادلني يوما الشعور و سأتحول من مريضته إلى صديقته ثم حبيبته .. كنت مؤمنة بالوقت و اساليبه العجيبة في تغيير الأشخاص و القلوب.

الا أنني في الاخير اكتشفت أنني كنت كاللاتي وقعن في الحب .. كنت كاللاتي يفاجئهن الحب بوجهه الأخر .. كنت كاللاتي يعشن على مزاجية اللحظات ووهم التفسيرات .

لقد كنت أعتقد انني مختلفة عنهن لأنني بدون تجربة أو خبرة .. و هذا ما جعلني ارفع سقف توقعاتي عاليا .. عاليا حتى لا تكاد تراه عيني .. عاليا و مليئ بثقل الأيام و اللحظات. فاذا به يسقط على قلبي و يرديه صريعا بسبب ثقل ما حمله.

أيها البحر .. هل تؤمن بالخرافات ؟

حين كنت صغيرة آمنت بها و صدقتها ، لكن حين كبرت و اصطدمت بالحياة علمت أنها حكايات تناقلتها الجدات لتفسير ظواهر خارجة عن المألوف في حياتهم لأنهم أرادوا تصديق كل ما هو غريب و ساحر .

لكن الذي حدث أنني عدت الى تلك الطفلة ذات العيون الفضولية حين رأيته.

لقد عاد قلبي الطفولي لأنني علمت حينها أنه خرافة ساحرة و غريبة كاللي تحكيها الجدات .

هل تعلم أيها البحر؟ أن لقاءنا كان في يوم وفاة والديَّ .
في الأول من شهر ديسمبر.. التقيت بأول رجل يجمع بين تناقضات عديدة ..اول رجل وجدت فيه ما لم أجده في اي رجل قط .. رأيت فيه الغموض و برودة القلب و دفئ الروح .. رأيت فيه ندوبا لا أعلم سببها.. رأيت تناقضات الأشياء و ندوبا مازالت ظاهرة .. رأيت فيه كل شيئ .. لأنه الكل شيئ.

غريب هو ديسمبر أيها البحر .. غريب كيف أنه يجمع بين التناقضات مثله .. شهر فيه نفحات رقيقة من حنين زاخر .. شهر لهفة اللقاء الأول .. شهر اجتماع الأحبة و فراقها .. شهر رحيل الأرواح و اختفائها.

غريب هو ديسمبر أيها البحر .. لأنني فقدت فيه شخصين و التقيت فيه بشخص .
غريب هو لأنني فقدت فيه قلبي وعاد لي مجددا .
غريب هو لأنه كسرني و رممني.. رماني و اعادني .. تركني و عاد لي .
ألم أخبرك أنه غريب .؟
كنت أخالني أرى فيه برودة الشتاء و عينيه.. و مطر الحب و لهفته .
و الآن بت أرى فيه الرحيل و الغياب .. أرى فيه الخيبة متدثرة برداء الخفاء..أرى فيه الخذلان و الألم منقوشا في أسابيعه و ايامه و ساعاته.. بت أرى في ديسمبر أيها البحر الأشياء التي لم ارها منذ اول مرة .
الجانب الآخر للحب في شهر الغياب ديسمبر .
الجانب الآخر لخرافة الرحيل و الخذلان.
أيها البحر سأتركك الآن مع امواجك المتمردة أما أنا فسأعود اليك مرة أخرى.
كن بخير.
فذهبت لذلك الكرسي الذي جلست فيه المرة الماضية و كُللت بالانتصار من طرفي , ثم أخرجت مفكرتي و بقيت اتلمس فيها كشخص وجد كنزه الثمين ، فأنا لا أعلم منذ أن أعطاها لي و انا اكتب فيها اليه .
فوجدتني ادون لا شعوريا كل شيئ يشعر به قلبي .. اكتب اليه بحروف مبعثرة علها تصله .. اكتب اليه و اصب فوضى روحي صبا عله يجدني يوما و يرتبني.

***

أغلقت الباب و ذهبت لخالتي بدون قوة أو جهد كأنني كنت في حرب و الآن فقد أعلنت استسلامي الحزين .
- خالتي لقد عدت .
- عدتي يا زهرتي كيف كانت الجلسة؟
-كأي جلسة .
- لكن ماذا بك ما الذي حدث ؟
- لا شيئ يا خالتي سوى أنني أريد أن أنام فأنا متعبة .
فقالت معترضة :
- على الأقل تناولي العشاء ثم نامي
-لا ليست لدي شهية أريد النوم فقط.
- حسنا يا صغيرتي لكن عديني انكِ لن تخفي علي شيئا .
فابتسمت لها ابتسامة مصطنعة و قلت بصوت منخفض :
- اعدك بالرغم من أنني لا اخفي شيئا
فقالت صوت حنون :
- حسنا يا زهرتي تصبحين على خير .
- و أنتِ من أهل الخير .
فذهبت لغرفتي و ارتميت فوق سريري خائرة القوى .. لا أصدق بأنني انغمست في شيئ لم أعرف وجهه الآخر .. شيئ ذهبت معه إلى آخر الطريق و لم أعلم نهايته إلا الآن .. اليوم فقط .. اليوم لقد صفعتني كلماته .. اليوم لقد علمت بأن الشخص الذي غرقت فيه كان يراني مجرد مريضة أخرى .. مجرد شخص بحاجة للفضفضة.
كنت اخالني مختلفة قليلا .. متميزة رغم السواد المحيط بي .. إلا انني لم أكن أعلم أنني ادور في دائرة مغلقة و أنا التي ظننت أنني خارجها .. لم أكن أعلم انه سيصفعني حتى قبل أن أبدأ .

ما الذي سأفعله ؟ كيف سأستمر في رؤيته و أنا التي لا تستطيع إخفاء عينيها عنه؟ كيف و هو قد عرفني من مجرد لقاءات عابرة؟ كيف سأستطيع تجاوزه و هو ضرب جذوره في عمق الروح؟ كيف سأتجاوزه و أنا عالقة في ذلك اليوم الذي عانق فيه روحي بكلماته الغزلية؟ فأنا أعلم أن رجل مثله لا يُنسى .
كيف سأتجاوز و انسى ذلك الحلم الذي حلمت به لليالي عديدة .
كيف أقتلع جذوره

من قلبي .
كيف ؟.

***

- تووولیب حبیبتي استیقظیيي !! إنها الحادية عشر الا متى ستضلين نائمة .
- خالتي اتركيني رجاءًا انام فأنا لم انم جيدا ليلة أمس .
- هيا دائما تخبرينني هكذا فاليوم أريدك مستيقظة لأن خالك سيأتي هنا و معه اخبار سعيدة .
فأنزلت الوسادة من رأسي و قلت بفضول :
- اي اخبار ؟
- لا أدري قال انه سيخبرني حين يأتي . ثم تابعت بحيرة :
- لكن يا زهرتي ماذا بكِ؟ أنا أرى الان انك قد عدتِ لتلك الفتاة التي عرفتها منذ وفاة والديها و أنا التي خلتك تغيرتي ماذا حدث اخبريني؟.
فتنهدت و قلت بقلة حيلة :
- لا لم يحدث شيئا يا خالتي انه تعب فقط لا شيئ غير ذلك .ثم تابعتُ بتردد و بصوت منخفض :
- خالتي حين تواجهين مشكلة و تريدين حلها ماذا تفعلين ؟
فقالت ببساطة و تلقائية :
- ابحث عن جذور المشكلة .
- جذور المشكلة كيف ؟
- ماضي المشكلة و التفاصيل البسيطة التي غفلت عنها و التي كانت فيها مفتاح الحل و جوابه. فتابعت بحماس :
- هيا يا عزيزتي سأتركك لتستحمي الآن و تعالي للمطبخ لكي تساعديني .
ثم خرجت مسرعة و تركتني أفكر .. كيف سأجد حلا لقلبي و هل هناك حل له من الاساس؟

إذا هل افترق عنه ؟ كيف افترق عن انسان لم تجمعني به علاقة قط لا سيما من بعض اللحظات الحالمة و من تفاصيل عشتها كاملة.

خالتي قالت أن التفاصيل البسيطة هي مفتاح الحل .. هل من الممكن أن يكون الجواب في المطر ؟ ام فيه هو ؟ ام في ذلك المحل ؟.. مهلا لحظة المحل !! ماضي المشكلة ! ذلك الجد الذي يعرف قيصر انه هو لقد وجدتها !! الجد جمال سأذهب و أسأله عن قيصر علني أجد ما يجعلني ابتعد أو اقترب !، علني أفهمه لكي اضع قرارا منطقيا .. لقد وجدت الحل و اخيراا !.. كيف لم انتبه بأنني سأجد أجوبة لجميع تساؤلاتي عند جد الزمن الجميل.
و الآن سأذهب سريعا إليه قبل أن يأتي خالي .

أقفلت الباب بعد أن أخبرت خالتي المتذمرة و بالكاد استطعت اقناعها بأنني سأذهب للركض قليلا ثم أعود.
فشرعت اسابق الطرقات و الرياح و انا اتذكر كل شيئ.. لقاءنا .. برودة عينيه وجهه الخالي من التعابير .. غزله اللحظي .. تناقضات أفعاله و اقواله .

ركضت و انا أتذكره كلغز يصعب حله .. لغر غلفني و احاطني بغموضه وجاذبيته و انا الآن سأذهب و أحاول حله و آمل أن أتمكن من ذلك .. آمل أن يعطيني أجوبة عن أسئلتي.
وصلت و وقفت امام المتجر و انا اتأمله و اتساءل في اي زمن قد عاش هذا المتجر ؟ اي حكايات عاشها هو و صاحبه؟ أنا و هذا المتجر نتشابه و نختلف، نتشابه في معرفتنا لقيصر و نختلف في زمن اللقاء .. نتشابه في حنيننا و شوقنا و نختلف في وقت عيشنا .
فدخلت و أنا ألهث تعبا من ركضي المتواصل حتى قابلتني إبتسامة جد الزمن الجميل المعتادة التي تزين وجهه البشوش.
كيف يمكن لشخص أن يحمل زمنا كاملا داخله ؟.. كيف يمكن أن يحمل رائحة الحنين؟ ذكريات الطفولة و الزمن القديم .. حتى أنني بت أرى فيه خيال أمي الحنون و ظل ابي الدافئ.. بت ارى فيه فيروز و هي ترتشف من قهوة الانتظار و تغني بكل جوارح قلبها .
- مطر أرى انكِ بحاجة لصحبة الآن ! .
- جئت لشرائك قليلا فهل تمانع؟
- كيف امانع وجود رفيقة لطيفة مثلك تريد أن تحارب فضولها لكنها لا تستطيع.
- كيف عرفت أنني فضولية ؟!
-انظري لوجهكِ و ستعرفين حالا.
- و هل هذا واضح جدا ؟
فإبتسم ابتسامته و التي توحي بالكثير من الحكمة و قال :
- ماذا تريدين أن تعرفي يا مطر؟
- أريد حل لغز ارقني و جعلني اتناقص داخل نفسي و اترجح بين الخيال و الواقع.

- ما هو هذا اللغز الفريد من نوعه ؟
- هل تتذكر ذلك الطبيب الذي اشترى مظلة من عندك ؟
- قيصر!
- نعم هو قيصر .
- هو فريد من نوعه حقا و لا ألومكِ اذا ما غرقتِ فيه قبل أن تحاولي النجاة حتى و أرى انكِ تريدين أن تعرفي الكثير عنه أليس كذلك ؟!
- كيف علمت انني غرقت فيه .؟
- منذ اول مرة رأيتكِ تنظرين فيها إليه نظرة نجاة.. غرق و لهفة.. يأس .. شوق .. ارتباك .. حزن من المجهول ، تلك النظرة التي مزجت بين الحياة و الفناء و جمعت بين التناقضات التي لا تلتقي الا في الأحلام جعلتني أدرك أن تلك الفتاة قد كانت تنادي قيصر بعينيها ليذهب ناحيتها.

أخفضت رأسي خجلا و لم أعرف ماذا اقول لأنه هو الآخر قد رآني أيضا و قرأني بوضوح ، فقاطعتني ضحكته المرحة و هو يقول :

- أتدرين بأنكِ مميزة جدا يا مطر بهدوئك و خجلك و تناقضاتك .

فابتسمت بهدوء و قلت :

- لنقل بأن هذه هي شخصيتي .
- حسنا! ماذا تريدين أن تعرفي عن قيصر و سأخبركِ فأنتِ قد جئت للشخص الصحيح .

لا أعلم متى كانت أول مرة شعرت بها بحماس جعل قلبي يقفز كالآن.. شعرت بأني وجدت طرف الخيط المفقود و الذي سيجعلني أجد ضالتي و أحل لغزي . فأجبت بحماس :

- كل شيئ عن حياته .. ماضيه و علاقاته .. تناقضاته بدفئ افعاله و برودة عينيه و اقواله .. سر شعوري الخفي بأنه هناك قيصر آخر غير الذي أراه أمامي.
- ارى أنكِ يا مطر قد غرقتِ بعمقٍ فيه .. لكن لا أعلم اذا كنت سأجيب عن أسئلتك هذه كلها و إن كانت معظمها أعرفها سأخبركِ عن كل ما اعرفه و انتِ لكِ القرار في الأخير .
- حسنا لكن عدني يا جدي انك لن تخبره ابدا و أن يظل حديثنا سرا بيننا الإثنين فقط.

فإبتسم تلك الابتسامة الهادئة و المليئة و الدفئ و قال :

- انتِ طرقتِ بابي حبا و فضولا فكيف لا أفتح لكِ و اصون سرك الخفي يا مطر.

فإبتسمت ممتنة ثم تابع بصوت من الماضي البعيد و كأنه قد عاد لذلك الزمن و الحياة ، و بدأ يحكي بهدوء يليق به :

- أنا كنت أدير هذا المحل منذ عشرين عام و لا يوجد شخص هنا عاش في هذا الحي مثلي فأنا لا ازال اتذكره و طفولته حتى بعد فتك العمر بي ، فقد كان بيت عائلته بالجوار من هنا

و كان وحيد ابويه ، اتذكر انهما كانا يتركانه دائما في البيت وحده للعمل فأمه كانت تعمل في شركة كبيرة و أبوه كان طبيبا معروفا هنا ، كان قيصر منذ صغره طفل هادئ و غامض و قليل الكلام .. كان طفل وحيد لا يلعب مع اقرانه بل يكتفي بمشاهدتهم يلهون ، كنت أراه يكبر يوما بعد يوم ، و في كل مرة كنت أراه وحيدا دون ابتسام او شقاوة ،و المرة الوحيدة التي رأيته يبتسم فيها من قلبه هو ذلك اليوم الذي أتت فيه شفق .

- شفق!

- هذا كان اسمها و كنت اخالها أيضا استثنائية و مميزة كإسمها ، فقد كانت رقيقة كرقة الورود و ابتسامتها كانت تجعل من الليل نهار و من تلبد السماء اشراقا مضيئا كانت و كما اطلق عليها قيصر في ذلك الوقت اسم شعاع الليل . حين إنتقلت هي و عائلتها هنا أصبحت هناك اواصر صداقة بين العائلتين و أصبح هو بدوره صديقها الوحيد و هي أصبحت صديقته الوحيدة و وككل صداقة بين فتى و فتاة سيدخل هناك شيئ آثيري اسمه حب .

مازلت أتذكر للآن قيصر و هو في السادسة عشر من عمره يضحك و يجري معها و كأنه طفل ذو خمس سنوات .. كنت أرى قيصر يعيش طفولته المتأخرة معها.. طفولته التي اغتصبتها الوحدة و التي نسى أن يعيشها في وقتها.

و في ذلك السن و كما قلت بدأ الحب يدغدغ روحه و قلبه و أصبح حينها يعرف معنى نبض القلب و الشوق و لذة الاعتراف بالحب الأول .

هنا شعرت بأنه هناك يد في قلبي تعتصره لتستشعر نبضاته و تفتتها لأشلاء .. في الأخير كانت هناك فتاة في الحكاية .. فتاة لا تغادره و تغادر قلبه .. فشعرت برغبة في البكاء لا ادري هل بسبب طفولته الوحيدة ام بسبب من أحبها، لكنني حبست كل شيئ داخلي و قلت بصوت مرتعش:

- ماذا حدث بعد ؟

فنظر لي الجد نظرة طويلة مليئة بالحزن و أكمل بصوته الهادئ :

- فبقي يكتم شوقه و حبه و غيرته عليها من كل من يقترب منها و كان دائما يردد لي هذه العبارة اذا ما اخبرته عن لوعة الفراق و الرفض " لا يهم ان رفضتني ما دامت تستحق حبي و انتظاري" . حتى جاء اليوم الذي أعترف فيه بحبه لها و توقع أن تبادله نفس الشعور و المشاعر .. الا أنها رفضته بشدة و سخرت منه .

فشفق او شعاع الليل كما سماها لم تكتفي بالرفض فحسب و سخريتها منه ، بل راحت تسخر منه أمام جميع من في الحي، حاول التحدث معها و فهم سبب تغيرها لكنها في كل مرة تجيب بأنها لم تتغير و هذه هي طبيعتها و أنه ليس نوعها المفضل إذ أنه كان هزيلا ضعيفا . لكنه لم يكف يوما عن محاولة فهم أسبابها لأنه و كما كان يظن بأن هذه ليست

الا اسباب خفية وراء سبب واحد حقيقي .. حتى جاء يوم اتذكر انه حصل هنا في متجري. فتنهد تنهيدة ألم و أكمل:
- كان قيصر قد بلغ الثامنة عشر في ذلك الوقت و في شتاء احد الايام أتاني ليشتري نوع الحلوى الذي تحبه ليعترف لها مجددا مدركا بقلب طفل صغير أنه إذا جلب لها حلواها المفضلة ستقبل به بعد عامين من الرفض ،فرآها فجأة تأتي ناحية المتجر و معها فتى سمعته سيئة فإختبئ في احدى الأرفف اختباء عاشق مرتبك و هي قتلته قتل القاتل لضحيته.
- ماذا فعلت ؟
- سمعها تخبر هذا الفتى بأنها أصبحت صديقته لأن والداها ارغماها على ذلك نظرا لمكانة والديه المرموقة و ايضا شفقة منها على حاله لأنه كان وحيدا و هي لم تعد تطيقه ابدا ، و القطرة التي افاضت الكأس هي حين سخرت من حبه و نعتته بالغبي الساذج ،حينها سقط صندوق الحلوى من يديه محدثا دويا تزامن مع سقوط قلبه الذي انكسر و تفتت مع حلواها المفضلة ، و هذا ما أثار انتباههما.

حينها رأته و مازالت صدى كلماتها ترن في اذنه. مازلت اتذكر تلك النظرة التي كانت تغطيها هالة الصدمة ، نظرة كانت تلخص شعوره و تستطيع معها فهم معنى كلمة خذلان و خيبة من شخص كان يعني لك الكثير .

حينها قال لها قيصر تلك العبارة و التي ما زالت للآن تتردد في ذاكرتي " انتِ لست شعاع الليل كما كنت اظن بل مجرد فتاة اسمها شفق. " هنا أدركتُ انا أنه جردها من لباس التميز و الاستثناء في حياته .. و أدركت هي غلطتها بقلب زائف.. و أدرك هو أن الحب غير موجود و أن الحياة تأخذ كما تُعطي .

صحيح انها ندمت و بقيت ترجو سماحه و غفرانه لكن كيف للكأس أن يعود بعد أن يُكسر و كيف للنار ألا تترك رمادا؟ فعدت أرى قيصر ما قبل لقاءها بطريقة امر و اشد .. قيصر الوحيد و الذي لا يبتسم ابدا .. قيصر البارد الذي لا يريد من الحياة شيئا .
و بعد عام تقريبا تحصل على امتياز في الامتحان النهائي و سافر للمملكة المتحدة للدراسة و بعد عامين توفي والداه و حضر قيصر لمراسم الدفن و الجنازة و التقى بها هناك و حين رأته بعد ان تغير حاولت التحدث معه و اخبرته بأنها ندمت و أنها تحبه و تريده، لكن قيصر الذي كان يبتسم فور رؤيتها و يحبها أكثر من نفسه قد مات في ذلك اليوم . و تم رفضها كما رفضته هي أول مرة بكل برود و بدون احساس .

و بعدها بثلاث ايام عاد للمملكة المتحدة و بقي فيها للدراسة ، و لقد علمت بأنه افتتح عيادة نفسية منذ عام تقريبا ، إلا أنه انقطع عن كل شيئ و لم اسمع اخباره منذ ذلك الحين . و كان لقاءنا الوحيد منذ ذلك الوقت هو حين جئتِ انتِ هنا.
ثم تابع بإبتسامة دافئة و قال :
- و كأن مجيئكِ كان تميمة الحظ التي جمعتني به مرة اخرى .
- ماذا عنها هي ماذا حدث لها ؟
- لا أعلم كل ما اعرفه انه بعد وفاتهنا و عودة قيصر تزوجت من رجل أعمال معروف و ذهبت معه لأمريكا .
و بعدها شُل قلبي و لساني و لم أستطع ان اتفوه بأي كلمة فقد وقعت في صدمة كبيرة .. فأنا لم اتوقع ان تكون قصته بهذه القسوة .. ان يعاني هو و أعاني انا معه الان بجميع المشاعر التي تعصف بقلبي .. فلم أفق منها الا على يد جد الزمن الجميل تربت على كتفي و بصوته الهاذئ يقول :
- هناك حكاية خرافية قديمة تقول أن الحب كان يبحث في ليلة ماطرة عن مأوى ليتخلص من المعاناة التي تلاحقه لتجعله مثلها مليئا بالكدر و اليأس . تقول الخرافة أن كل الأحاسيس قد اوصدت ابوابها في وجهه ، الغضب.. القلق .. الحماس .. الأمل .. التعاسة .. إلا احساس واحد قد فتح له بابه هو السعادة ، لكن الشي الذي لم يعرفه الحب أن السعادة كانت لها أوجه ثلاث مخفية وحده المستخدم للمنطق من يراهم" الألم .. الحزن .. الخيبة". و هو لم يرهم لأنه كان يستعمل عاطفته و شعوره. لذا بدأ يندمج و يختلط بالسعادة حتى أصبح الحب يحتويها و يحتوي أوجهها المخفية . و قد علم متأخرا أن تلك الأوجه التي أوصدت ابوابها في وجهه هي ليست سوى مجموعة من المشاعر مرتبطة مع بعضها البعض بالسعادة .
فأصبح الحب على ما نراه الآن يحتوي جميع الأوجه.. السعادة و الالم و الغضب و القلق و الحماس و الأمل و التعاسة و الحزن و الخيبة .
و عاش مليئا بالتناقض طيلة حياته مدركا أن الأشياء الجميلة دائما ما تكون خلفها جوانب قبيحة .. مغلفا بندم اللحظة الأولى حين التقاها مستمتعا بوهم اللحظات الزائفة .
- لكن يا جدي فأنا للآن لا اعلم اذا كان ما اشعر به تجاهه حب؟ أم اعجاب عابر؟.
فإبتسم و قال بحنان:
- عيناك أخبرتني و قلبك اخبرني و جسدك الذي كان يركض اخبرني فلماذا تكابرين أنتِ تحبينه أنظري لوجهكِ المليئ بالأمل تارة و الخيبة تارة اخرى ذلك التناقض الذي تمرين به هو الحب.
- اذا هل تخبرني بأن لا حب بدون ألم و طبيعي أن أتألم و اعيش في التناقضات ؟

- انتِ مختلفة يا مطر لأنكِ لم تطرقي باب السعادة مثل بقية الأشخاص .. و لم تخافي من مواجهة الحب بأوجهه الخفية .. تعاملتي معه كشيء خفي لا تعلمين بوجوده .. شيئ بسيط و حالم ستصلين له يوما و ستمسكينه و ستعانقيه .. وحدكِ من علم بأن للحب العديد من الطرق للإفصاح عنه .. وحدك من عاش تناقضاته دون أن تعلمي و وحدك من صادفكِ الحب و تعثر في طريقكِ.

فتنهدت بألم ثم قلت بشرود :

- لست مختلفة ابدا صدقني فأنا سقطت في خيال اللحظات و عشت و توقعت منه حد الثمالة.. وحدي من حلمت به و تناسيت كم أن للحب منطق غير محدود.. وحلم لم و لن امسكه يوما .. وحدي من علمت أنه منذ اول مرة رأيته فيها رأيته بعيدا ضبابيا يغلفه المستحيل و الوهم .. لذا و كخياري الوحيد استمررت بصنع الأحلام و تمني الأيام به .. استمررت بتصديق أنه سيتحقق يوما و سأناله واقعا اكثر من حلم .. استمررت بقلب كان مندفعا لأول مرة باتجاه رجل .. إلا انني ما علمت الا اليوم أنه سيكون و سيبقى حلما مدهشا و خيالا آثيري لم و لن اناله و أنا أجزم أنني لن أنساه ابدا .

كانت هذه أول مرة ينظر لي فيها الجد هذه النظرة المليئة بالدهشة و الحيرة دون ان يقول شيئا. فتابعت بإبتسامة باهتة :

- انا مليئة بما لم اقله يوما ، و مليئة بما لم أفعله أبدا .. و مليئة به حد التعب و الألم ، لذا لا يغرنك مظهري الخجول و الهادئ أحيانا .

- بل انني بت أعلم الآن كم أنكِ مذهلة و مختلفة يا مطر.

فإبتسم و حاول اضفاء بعض المرح على صوته و قال :

- انا الآن أكثر فضولا من قبل لأعرف قصتك و حكايتك بالضبط .

ثم ذهب و اختفى في ارفف متجره و انا بقيت افكر فيه .. أخيرا لقد حللت لغزه المحير ، و أخيرا استطعت تفكيك أحجية غموضه . لكن الحماس الذي شعرت به و الفضول الذي كان يتملكني و يتغلغل في مسامي قد اختفى إختفاء أوراق الشجر في فصل الخريف .. و حل محله برود مخيف في روحي.. لا ألم و لا حياة و لا موت .. لا شيئ سوى فراغ سكن قلبي و خواء غلف روحي .

فشعرت بيد ممدودة بصندوق صغير فيه حلوى الدب التي كنت افضلها حين كنت صغيرة .. فأمسكتها و شكرته ثم قلت له بإبتسامة اخفي بها فراغي :

- انها المفضلة عندي هل اعتبرها صدفة ام حدس؟ .

- بل قدر مرتب ، إنها العلبة التي كان قيصر سيهديها لشفق حين اراد الاعتراف لها .. انها لكِ لكي تجعلي روحكِ الصغيرة حلوة كملامحكِ الهادئة و أن تسلكي درب اليقين بدل الشك ، و أن يكون قيصر لمطر و مطر لقيصر .

امسكت صندوق الحلوى و أنا اتناول بعض منها و وقع جملته الأخيرة تؤلمني و تجعلني أشعر بالراحة في نفس الوقت لأنه هناك شخص غيري يعلم بي و به . ثم طرأ لي سؤال فجأة:

-جدي أريد سؤالك شيئ ما .

- ما هو ؟

- هل انت صديق مقرب لقيصر؟

- لقد أخبرتكِ بأنني كنت أشاهده منذ كان طفل ذو خمس سنوات ،و أنني الشاهد الوحيد لقصة حب لم تتحقق، لكن يمكنكِ أن تسميني صديقه الوحيد الكبير فحين أحب شفق كنت له خير المستمع و الناصح و منذ ذلك الوقت حتى اليوم الذي تحطم فيه كان يخبرني عنها كلش شيئ .

- اذا نحن لدينا نفس الصديق المشترك هذه صدفة غريبة.

- بل كما أخبرتك قدر مرتب .

- شكرا لأنك أخبرتني بحل اللغز الذي كان يؤرقني ، لقد وجدت اجابتي المفقودة و لو كانت حزينة و الآن أستأذنك للرحيل لقد تأخرت كثيرا .

- لكنكِ ستعودين فصديقك مازال يحتاج لصحبة و يريد سماع قصتك أيضا.

- لا أنا سأعود بكل تأكيد لكن لم أكن أعلم أنك ستستعمل معي حيلة العين بالعين.

فضحك و تهللت اسارير وجهه :

- انتِ ماكرة جدا يا مطر لقد كشفتيني لكن لنسميها قصة بقصة احسن .

- حسنا حين أعود سأخبرك بقصتي و اسراري اتفقنا؟

-مطر!

-نعم؟

- حين.رأيتك اول مرة تنظرين له بذلك الشغف .. بتلك القوة و اليأس .. تلك اللحظة التي جمعتكما معا و فصلتكما عن الواقع تمنيت حينها لو التقى بكِ في ذلك الوقت لتحبي وحدته و تملئي ثقوب روحه .. لتحتوي قلبه ذو الخمس أعوام و تحبي جسد رجل متعب لا يستطيع مد يده ، و دعوت في نفس الوقت ان يحبكِ أنتِ و ينسى الماضي ، فالأعمى يستطيع رؤية كم انكِ مميزة و مختلفة عنها كثيرا. فكيف بقيصر و بقلبه .

تجمدت للحظة و أنا استشعر وقع كلماته المربكة ثم قلت بصوت منخفض مهزوز :

- و أنا أيضا تمنيت وقتها لو أنني تعثرت في طريقه مبكرا و أن يحبني مثل هذا الحب المربك الذي لا يُنسى ولو مر على فراقه الف عام ، انا أيضا تمنيت و دعوت لكن للقدر رأي آخر و مخالف لطريقي ، فرأيه كان أن يجعلني أشعر به دون أن ألمسه او الحقه ، و رأيي كان هو أن ألمس و استشعر احساس اللهفة و الغرق به .

فنظر لي نظرة طويلة ثم ابتسم و قال ممازحا :
- اذهبي الان لكي لا نبقى هنا اليوم بطوله نناقش قضية الحب و القدر .
ابتسمت له إبتسامة صادقة من بقايا قلب فارغ و قلت له :
- سأذهب يا جدي في أمان الله سأعود مرة أخرى.
- في امان الله يا مطر سأنتظرك .

***

- اذا كيف حالكِ يا توليب و لماذا انت صامتة ؟
صحيح فالأعمى يستطيع أن يرى أنني و منذ أن عدت من عند جدي و أنا صامتة صمت القبور و منغمسة مع أفكاري المتشابكة , فكل ما أريده الآن هو أن أذهب لغرفتي و اختلي بنفسي و أحل عقد أفكاري و سطوة خيالاتي .. اقوم بالإختلاء بروحي لتقديس الحزن و اعطاءه وقتي .
- ماذا بك ِ يا زهرتي ؟ فخالك كان يتحدث معكِ و انتِ لا تجيبين .
فتذاركت نفسي و قلت بهدوء :
- آسفة يا خالي فأنا متعبة قليلا و لم انم ليلة أمس ماذا قلت؟
- لا عليكِ عزيزتي سألتكِ عن أحوالك .
- انا بخير يا خالي و أنت كيف هي حالك ؟
- انا لست بخير يا توليب لأن خالتك ليست معي لتؤنس وحشتي لذلك الله شعر بي و منحني فرصة لأنه يعلم بقلب ذلك العاشق الولهان . ثم التفت و غمز لخالتي و هي بدورها انفجرت ضحكا قائلة :
- اي فرصة ؟
- فرصة مجيئكِ معي! .
منذ وفاة والديَّ لم أرى خالتي سعيدة كما أراها الآن .. سعيدة لأنها ستكون معه سعيدة سعادة طفل صغير بهدية مفاجأة .. لكنني رأيت تعابير وجهها تتغير حين نظرت ناحيتي لأنها في غمرة فرحها نسيتني و لا الومها فالمحب في غمرة فرحه لا يرى سوى محبوبه .
- لكن هل ستأتي توليب معنا ؟
فأطرق خالي برأسه و قال بقلق :
- هذه المشكلة انا في صدد حلها لا تقلقي.
فقالت خالتي بوجه حازم و صارم :
- لا أنا لن اذهب سأذهب في حالة اذا ما كانت توليب معي!.
- لكن عزيزتي أنا..
- هذا اخر ما عندي !.
ذهبت خالتي مليئة بالحزن لأنها الآن بين نارين .. بيني و بين خالي .. و كأن السعادة التي عاشتها منذ قليل لم تكن شيئا . فنظرت لخالي و الذي ارتسمت على ملامحه الألم و الخيبة و العديد من الأفكار التي كانت تطوف حوله و تجعله مغيب عن هذا المكان . لكنني قطعتها حين قلت له فجأة :
- انا سأقنعها يا خالي لا تقلق .

فإرتسمت على ملامحه الراحة و الفرح لكنها تغيرت للنقيض , ثم تنهد و قال :
- لكن هي معها حق كيف تستطيع تركِكِ و أنا أيضا لو كنت مكانها لما ذهبت .
فنظرت إليه مطولا و قلت بهدوء :
- خالي انا لم أعد صغيرة بعد الآن فأنت و خالتي لا زلتم ترون بأنني ما زلت تلك الطفلة التي تلهو و تلعب و تضحك .. لكنني تغيرت منذ وفاة والدي و كبرت فوق عمري عمرا و بت أدرك كم أن الحياة معقده و أن شبح الموت يخطف ولا يمهل يذهب ولا يعود .. دون أن يترك لك فرصة الوداع.. كبرت و صرت أعلم أن الحياة لا تعطيك الوقت الكافي للقاء من تحب او البقاء معه لأنه في قانون الحب مكان المتحابين هي بجانب بعضهم .. في حضن بعضهم .. و في كنف بعضهم .. و ما دون ذلك هو عذاب يتلقاه كل منهما.
انا بخير لذا اطمئنوا كما أنني أذهب عند الطبيب و بفضله تخطيت وفاة والديَّ و علمت أنه قضاء و قدر و يكفي هذا القدر من الحزن عليهما آن الأوان أن اتقبل و أكمل حياتي .
حين انتهيت من كلامي سمعت شهقة خالتي و هي تبكي فذهبت اليها و احتضنتها و أنا أقول بحنو :
- لا تبكي يا خالتي فأنا سعيدة لكما و لا اريدكما أن تبقيا مقترقين , فمكانك في الأخير بجانبه و سأكون سعيدة فقط حين اراكما معا .
فشعرت بيد خالي على كتفي و هو يعانق خالتي و يقبلها على رأسها و يقول :
- صغيرتنا كبرت يا عزيزتي و تستطيع الاعتماد على نفسها الان لا داعي لكل هذا الخوف عليها ألم تسمعيها تتحدث كأنها عجوز هرم لديها العديد من التجارب .
فضحكتُ و ضحكت خالتي ثم قالت وسط دموعها :
- سأذهب لكن بشرط!.
- ما هو ؟
- في جلستكِ المقبلة سنذهب أنا و خالكِ معكِ لنعرف وضعكِ منه ثم بعدها اسافر معه.
فأجبتها بتوتر :
- لكن لماذا ؟
- لكي أطمئن عليكِ تماما دون أدنى قلق .
فقال خالي مؤيدا لها :
- نعم معها جق لكن متى جلستكِ ؟
- يوم الاثنين
- حسنا سنأتي معك لأنني اخذت عطلة اسبوع لأنهي إجراءات الإنتقال و لدي العديد من الأوراق التي يجب أن اخرجها .

فإبتسمت لهما و تركتهما وحدهما ثم ذهبت لغرفتي و بقيت أتأملها و كأنني أراها للمرة الأولى .. اشاهدها و آلاف الافكار تعصف بذهني ، حينها نزعت قناع السعادة الذي كنت ارتديه حين كنت معهم .. فأنا أتألم لأن خالتي ستتركني و سأعاني مرارة الفقد مرة أخرى.. لا يكفي أن حكايتي مع قيصر كانت مجرد وهم و الان خالتي ستتركني مرة أخرى و أنا لا أقوى على فعل شيئ .. فمكانها الحقيقي معه .. يكفي أنها عانت الأمرين خسرت اختها و عانت من بُعد زوجها الذي تحبه و أنا لا اريد لها الألم بعد الآن .

فأنا أستطيع تحمل بُعدها فأنا خسرت والديَّ و تقبلت خسارتهما و أخيرا ، لذا سأتقبل بُعد خالتي عني .. حين تشتاق لي أو أشتاق لها سأكلمها عبر الهاتف فالتكنولوجيا قد قربت المسافات و قلصت الشوق .. لكنها لم تستطع ان تقرب قيصر و تقلص شوقي إليه.

كما أنني أستطيع تجاوزه هو أيضا.. أستطيع اقتلاع جذوره من عمق روحي و لن أبالي بنزيفها .. أن تنزف دفعة واحدة .. مرة واحدة .. خير من أن تنزف ببطئ .

لقد شعرت بشعور غريب بعد أن عرفت أجوبة الأسئلة التي كانت تؤرقني.. عرفت سر النظرة الباردة .. عرفت سبب بعده و قربه .. عرفت و لقد كنت محقة حين قلت انه هناك ماض أليم أحاط به .
عرفت و تمنيت بخيبة امرأة تُركت في البداية انني لو كنت أنا هي .. تمنيت لو كنت أول من أحبها.. الأولى التي ميزها .. تمنيت لو أنني التقيت به قبلها.
الاولى التي ابتسم لها ..
الأولى التي لعب معها ..
الأولى التي عاش طفولته المتأخرة معها ..
الأولى التي نبض قلبه لها ..
الأولى التي تألم منها ..
الأولى التي غار من أجلها ..
تمنيت لو كنت الأولى في كل شيئ معه .

تمنيت و تمنيت و تمنيت حتى شعرت أن قدميَّ لم تعد تستطيع حملي .. فجلست على طرف سريري و أنا مغيبة عن كل شيئ .. فكرة واحدة فقط كانت تدور في رأسي و هي كيف سأستطيع التحمل بعد معرفتي لكل الأجوبة؟

فتخيلت في غمرة فكرتي أنني مع قيصر هنا .. نشاهد من نافذتي نجوم شهر ديسمبر .. شهر لقاءنا.. نشاهد معًا نجوم السماء و أنا واضعة رأسي على كتفه .. و مع كل همسة .. و نفس .. و تنهيدة يقول " أحبكِ".. مع نظرة دفئ و حب تطل من عينيه التي ما تعودت

منهما غير البرود .. انغمست في تخيلي و حلمي و أوهامي و حين افقت افقت على اللاشيئ يراقصني و يحيط بي .
يا ترى كيف سأشعر حين ينظر لي نظرة حب و شوق ؟

فإنتشلني صوت ضحكات خالي و خالتي في المطبخ و أنا أشعر فجأة بمزيج من الراحة و الدفئ و السعادة لهما .

فبعد كل شيئ حين شعرت أن لدي قلب ينبض , أصبحت أزن الأمور بعاطفية و بمنطقية مفرطة .. و هذا ما جعلني أدرك كم أنني تغيرت و كبرت و نضجت جعلني هذا اقارن نفسي بين ما كنت عليه و ما أصبحت عليه .. كيف كنت أنظر للأشياء بسطحية و الآن بت أراها عميقة مليئة بالتفاصيل .. عميقة للحد الذي جعلني أدرك كم أن كل شيئ تافه أمام خسارة كل ما نحب .
والديَّ .. العمل .. قلبي .

هل سأبكي أم أحتفظ بدموعي لوقت لاحق ؟ فحين خسرت والديَّ لم أبكي .. و حين طُردت من عملي الذي تعبت من أجله أيضا لم أبكي.. و حين ذهب قلبي إليه محلقا و عاد مبتور الجناحين أيضا لم أبكي.. فمتى سأبكي إذا؟
هل هناك مشكلة ما بي ؟ هل حقا كما قال قيصر أنني أبكي من الداخل؟ .

حينها وقفت و ذهبت لا ارادیا إلى تلك المفكرة التي أهداها لي كهدية و بقيت أنظر للسطور التي كتبتها و أنا مليئة به و الآن آن الأوان لأفرغه .. افرغه على أوراقه و اتركه جانبا ، و هذا ما جعلني أدرك أن لدي هواية .. هواية اكتشفها قيصر. فالكتابة هي كل ما احتاجه .. فأنا أعلم أنني كتومة و لا أقول أي شيئ مهما كان جيدا أو سيئ .. فعلمت أنني اذا ما فضفضت لمذكرتي فسأشعر بتحسن ، عفوا بل حين اكتب اليه.

فرحت اكتب كل ما مر بي .. كتبت كل شيئ .. افرغت روحي و صببت قلبي صبا .. قلت كل ما كان يجب أن اقوله و لم اقله .. قلت لقيصر و للمفكرة كل شيئ.
شعرت كأنها تطبطب على كتفي و تخبرني أنها معي .
شعرت يعيني قيصر تواسيني للحظة .
فديسمبر احضر لي الحب على طبق من وهم و الآن سيرحل و معه فتات قلبي .

لم أشعر بالوقت و هو يمر الا حين نادتني خالتي للعشاء فنظرت لنافذتي و رأيت النجوم الباهتة تزين السماء .. فوجدتني لا ارادیا اردد بقلة حيلة و بهمس " قيصر النجم " هل سأنساك؟ .

فأغلقت نافذتي و ذهبت لخالتي ثم جلست على المائدة و أنا أشعر بالراحة و كأن فضفضتي لمفكرتي العزيزة قد اراحني قليلا .. فرحت أتأمل خالتي و خالي و تلك الأجواء المألوفة المليئة بالمرح و الضحك .. انها العائلة التي اشتقت اليها . و كأن تلك الأجواء قد جعلتني التقط عدوى المرح و الضحك فوجدتني اضحك و أتحدث و كأنني لست أنا التي كانت منذ قرابة ساعة تتخبط في معاناتها.. وجدتني أضحك و أنا اقنع نفسي أن كل ما شعرت به تجاه قيصر هو إعجاب و انجذاب فقط لا غير وجدتي اكذب كل ما قاله جد الزمن الجميل بقلب مرتاح .. ففي غمرة ألمي وجدت ما اتعلق به لكي ينسيني معاناتي .. وجدت لوح النجاة و تمسكت به .

انجذاب .. اعجاب .. لهفة.

هذا ما اقنعت نفسي به و صدقته و كلي ارتياح عسى أن اتجاوز .. فتمنيت بكل جوارحي أن أنسى لأنه في الأخير ليس لي و لن يكون .

الا أنني ما علمت يوما أن الأمنيات تبقى أمنيات.. بعيدة عن التحقق.. قريبة من الخيال.

ثم انتشلتني فيروز و هي تغني بشجن اغنية ليالي الشمال الحزينة التي ذكرتني به في نهاية المطاف و بما اشعر به :

"آه يا حبيبي و بحبك ع طريق غياب"
"بمدى لا بيت يخبينا ولا باب"
"خوفي للباب يتسكر شي مرة بين الأحباب"
"و تضل تبكيني الليالي الحزينة"
"ليالي الشمال الحزينة"

***

استيقظت على صوت المطر الذي يهطل و يلامس الأرض برفق , فنظرت للساعة فوجدتها التاسعة و ربع , فنهضت و أنا أشعر بدوار خفيف اعتدت عليه حين لا أنام و تبقى أفكاري حبيسة داخلي و لا تخرج .

ثم خرجت و أنا أعلم أنني أبدو مثل الزومبي , فسمعت صوت خالي الضاحك و هو يقول :

- ما هذا! هل كنتي في حرب يا توليب ؟

فإبتسمت بتعب و قلت له :

- نعم كنت أحارب في أحلامي . ثم قلت لنفسي" أحاربني و قيصر ".

فضحك ثم جاءت خالتي وهي تقول ضاحكة :

- لا يكف خالك عن المزاح هذه طبيعته . ثم تابعت :

- هيا تناولي افطارك بسرعة و جهزي نفسك لأننا سنخرج.

- الى أين ؟

- سنخرج للتسوق فأنتِ بحاجة للترفيه قليلا.

في البداية أردت أن أرفض لأن مزاجي لا يسمح لي بفعل أي شيئ سوى الجلوس و التفكير ، لكنني لا أريد أن أُخجل خالتي فضلا عن أننا لم نخرج سويا من مدة عوضا عن أنني أصبحت أحب المطر و احب المشي تحته .

- هيا توليب أخبريني هل ستخرجين معنا ؟

- نعم خالتي سأخرج معكما لكن الجو ممطر في الخارج هل سنجد المحلات مفتوحة.

- سنرى قد يتوقف فهيا اسرعي و جهزي نفسك .

فتناولت فطوري على عجل و ذهبت لأجهز نفسي , ثم نظرت للمرآة و رأيت شبحا لي .. لم أكن أعلم أن الحب يغير في ملامح الوجه .. يجعلها تارة نظرة مليئة بالحياة و تارة ذابلة مليئة بالحزن .. و الآن أنا أرى ملامح وجهي مليئة بالخيبة و الحزن و المؤلم في الأمر أنني لا أستطيع آن أظهر لخالتي شيئا .. فهذا التمثيل يقتلني !

ثم نظرت لرقبتي و تذكرت ذلك الوشاح الذي اخذته الرياح يوم لقائي بقيصر، فهو إرث جدتي رحمها الله و بسبب غبائي ضاع مني و الى الأبد .. لكن القدر جلب لي وشاحا يبعث الدفئ في الروح و ليس في الجسد فقط.. وشاح قيصر الذي اخفيته في عمق خزانتي و قلبي.

- توليب أين هو وشاحكِ !؟

فإنتفضت لأنني لم أشعر بوجودها , ثم أجبتها بتوتر لأنني لا اريدها أن تعلم انني ضيعته:

- ها ! الوشاح إنه في مكان ما هنا .

- لكن لماذا لم ترتديه فهو ذائما معك؟ .

- لكن اليوم لا أريد فمعطفي الصوفي يكفي.

فقاطعنا صوت خالي و هو ينادي و لقد حمدت الله على ذلك :
- هل انتما مستعدتان؟ فالمطر قد توقف تقريبا.
-نعم خالي هيا لنذهب .

فخرجنا معا وسط هدوء الشوارع , و الأمطار الخفيفة تلامس وجهي برفق ، لا أدري منذ متى لكنني أصبحت أحب صوت المطر و تلبد السماء بالغيوم لأنها تجعلني أحلم و اتخيل أنني معه الآن .. معا نتشابك الأيدي و ننظر لبعضنا بحب كما تنظر خالتي لخالي الآن فإبتسمت بألم لأن الشخص الذي سرق قلبي لن أعيش معه هذه اللحظة .

لماذا كل شيئ يذكرني به ؟ لماذا السماء و الغيوم تذكرني به ؟ لماذا السيارات و الأشخاص يذكروني به ؟ لماذا خالي و خالتي يذكروني به ؟ لماذا نظرات الحب و تشابك الأيدي تذكرني به ؟ لماذا كل ما يتعلق به و لا يتعلق به يذكرني بوجوده ؟ فرفعت رأسي و وجدت بأنني تخلفت عن خالي و خالتي و هذه هي عادتي أنني أتخلف حين اكون مع شخصين او اكثر, فدائما ما كنت افضل أن أكون في الخلف لكي ألاحظ كل شيئ و أيضا افكر .

فلحقت بهما سريعا و سرت بجانب خالتي و أنا أنظر للسماء الرمادية و هي ترسل خيوطها الرقيقة .. حينها انتشلني فجأة صوت عميق .. صوت أعرفه جيدا ممزوجا بصوت خالي و خالتي .. ماذا هل أنا أحلم ؟ لا لا انا لا أحلم انه هو قيصر .
لقد التقت طرقنا أخيرا يا قيصر!.

-توليب كيف حالكِ ؟
فاجئني سؤاله المباغت و بقيت أنظر له نظرة شوق و غرق عله يعرف ما يوجد في قلبي غير ابهة لا بكرامتي ولا بحقيقتي .. غير ابهة بالعواقب الناتجة عن ذلك غير ابهة لا بقلبي الذي سينكسر و لا بالفوضى التي ستعم روحي .

فاصطدمت في الاخير بنظرته الباردة و الخالية من اي تعبير ..فشعرت كأنه يحللني و يجزئني ثم يعيد تجميعي و ذلك بعينيه فقط .. لقد كسرني بنظرة واحدة.
لقد حللتني و جزئتني يا قيصر فلماذا لا ترفق بقلبي و تفهمه ؟
بالكاد استطعت اخراج الحروف من فمي:
- انا بخير و أنت كيف حالك ؟
- انا بخير.
قالها بإقتضاب و التفت يتحدث مع خالي كأنني غير موجودة و انا بقيت أنظر إليه بتوهان و هو يتحدث بهدوء , فلمحت نصف إبتسامة منه حين التفت لخالتي فشعرت كأن

فراشات الدنيا اجمع اجتمعت فوق قلبي و جعلته ينبض بشدة .. و حين التقت عيناي بعيناه للمرة ثانية تأكدت من الحقيقة.. انه رجل لا يُنسى ابدا.
رجل جلبه شهر ديسمبر كيف يُنسى ؟ .
- إلى اللقاء يا توليب نلتقي غدا .
لم أشعر به الا و هو يودعني و يبتسم لخالي و خالتي .. ثم تهت أنا .
لقد توقفت و توقف الوقت و أنا أراه مبتعدا و ظله يختفي في وسط الطريق.. توقفت أنا و جسدي و قلبي .. قلبي الذي لم يستطع الحراك و بقي يتأمله و هو يغادر.
حتى كسرت خالتي توقفي و هي تسألني بتعجب:
- لماذا توقفتِ يا توليب ما الأمر ؟
فتمالكت نفسي و قلت بإبتسامة مصطنعة :
- لا شيئ يا خالتي لقد استغربت و أنا أرى طبيبي أمامي.
- هذا يفسر موقفك اذا .
حمدت لحظتها أن خالتي لا تستطيع قراءة الأعين جيدا فإبتسمت لها ولم اجب .
- ارأيت يا عزيزي كما أخبرتك عنه أليس رائعا ؟
- أنا أرى أنه عالج توليب و تأثيره عليها كبير فشتان ما بينها و ما بين توليب القديمة.
- توليب لقد أخبرنا أن نأتي معكِ في جلستك القادمة لأنه لديه ما يخبرنا به عن حالتك .
- نعم ستذهبان معي في كلتا الحالتين .

ثم التفت لخالتي و هو يتحدث عن كم أنه طبيب ماهر يجيد عمله و موهوب , و أنا كل ما استطعت فعله هو الابتسام أمام مديحهم عنه و كم وددت لحظتها أن اصرخ بهم و اقول لهم انه هو من غيرني.. هو فقط من جعلني هكذا لا دخل لمهنته ولا مهارته في الموضوع .

إن حضوره و وجوده هو ما اعطاني دواءً لروحي ..هو من عالجني بعبناه .. انه هو .. فقط هو .
لكنه الآن اصبح جرحا كلما لمسته آلمني حتى بات ملتهبا لا يوجد دواء له إلا به .

انا اريد العودة للمنزل و لغرفتي .. أنا أريد أن أبكي .. أريد أن أصرخ .. أريد أن اندب حظي .. أريد أن أتحدث و اخبرهم عنه .. أريد أن اشرح لهم معاناتي.. فأنا مليئة بما لم اقله يوما .. أريد أن افضفض و أن أجد من يفهمني .. أنا وحيدة مجددا بدونه أشعر بوحدة كبيرة .

و كم من أريد اردتها لكنني في الأخير أذهب للشيء الذي بدأت أحبه و هو الذي كان يطبطب على قلبي .. الكتابة .

في الأخير ابتلع كل ما مر بي و ما سيمر بي .. اكتمه داخلي و أخرجه في مذكرتي فهي الوحيدة التي أشعر أنها تفهمني .. اكتبني اليه لأشعر انه يسمعني .. يسمع كلماتي و تصله رسائلي .

الحياة قد تسقطنا و تجعلنا نتمنى الموت و لكن في الأخير لدينا خياران اما أن نبقى في القاع نندب حظنا او ننهض و نبحث عن انفسنا مجددا لنجد ما يساعدنا على المضي .
و أنا قررت النهوض و وجدت الكتابة ممسكة بيدي و تساعدني على المضي.. بل لنقل أنه هو من وجدني و أنقذني .

فبقيت اتنقل معهما بجسد حاضر و عقل مغيب و عيناه لا تغادرني ، بقيت أفكر فيه طيلة الساعتين اللتان استغرقناهما و نحن خارجا .

- يا الهي ! لقد تعبت اليوم لم اخرج هكذا من مدة .
- و أنا أيضا يا خالتي لذا أريد أن أنام قليلا فأنا متعبة .
- لكن الن تجربي الملابس التي اشتريتها ؟.
- سأجربها لاحقا حين استيقظ فالتعب قد تمكن مني .

فإبتسمت خالتي بحنان و قالت :

-حسنا لكِ هذا يا عزيزتي اذهبي ارتاحي قليلا.

***

لاطالما كان ذلك الشخص الغائب الحاضر .. الذي كان حضوره يحتويني في وحدتي و كان بروده يمزقني في وجوده .. يشتتني.. ينتشلني من وحدتي ليعيدني اليها بطريقة قاسية .

لطالما كان قيصر بكلماته يؤلمني و يجعلني أشعر أنني لا أحد.. مجرد مريضة .. مجرد شخص خارج الاطار .
مثل ما التقيته اليوم .. و كأن تلك اللحظات التي تقاسمناها كانت وهم من وحي توهاني العميق .

جعلني أشعر أنني هنا و لست هنا .. جعلني أشعر بنشوة الحب و ألمه.. جعلني أشعر بسعادة القدر و بسطوة اللقاء .. بسببه شعرت بتناقضات نفسي و روحي بسببه شعرت بما لم أشعر به من قبل .. شعرت بأنني خُذلت من الحب .. حب لم يبدأ بعد .. حب بدأ مني و انتهى به.

لطالما شعرت بالتشتت و الضياع .. شعرت بأنني لا انتمي لأي أحد .. انتمي لوحدتي فقط و لتلك المفكرة التي أصبحت صديقتي ابث فيها نفسي و اسكب فيها روحي دون خجل .. بت صديقة لرسائلي التي لا تقرا .

غلفتني الخيبة قبل أن يبدأ كل شيئ .. غلفني الخذلان و بعثر قلبي .. بسبب اعجاب بدأ من نظرة واحدة .

لاطالما قلت أنني لن اندم على لقاءه .. لا طالما رددت بأنه مهما بدر منه و مهما بعثرني و آلمني لم و لن اندم لأن الندم هو مقبرة الشعور .
لكني الآن اندم .. فما اندم عليه هو ذلك اللقاء.. استماعي لخالتي و الذهاب اليه بقدمي .. اندم لأنني أعطيت قلبي دون شروط .. اندم لأنني تعمقت .
اندم لأنه حين عصف بي الألم لم أجد سوى ذكريات اقتات عليها لأكمل يومي الطويل.

لكن لو عاد بي الزمن لهمت فيه لأنه يستحق.
رجل مثله يستحق أن يكون تجربة الحب الاولى .. برجولته و جاذبيته و أناقته و غموضه .. رجل غيابه عبث ووجوده أمل .. رجل أشعرني بلهفة الحب لأول مرة .. رجل اشعرني بغياب الحاضرين .. رجل ليس ككل الرجال .. رجل لا ينسى.
رجل جاء في شهر ديسمبر ماذا اتوقع منه ؟ غير أن يكون مقدس كقدوسية هذا الشهر بالنسبة لي.
فأنا اندم لقاءه و لا اندم حبه !

الا ترى تناقضي يا قيصر ؟ هذا التناقض ما زال داخلي و الى الآن.
الندم و اللاندم لوجودك في حياتي .
لطالما أخبرتني أمي رحمها الله أن اعطي قلبي لمن يستحقه .. و آخر ما تحدثنا به كان موضوع الحب , و كأنها كانت توصيني قبل أن تتركني .. أخبرتني أن احفظ قلبي و اصونه لأنه مميز مثلي و لأن تميزي لا يليق بأحد و لا يتقبله أحد و هذا ما لاحظته في كل من التقيتهم .. أن غرابتي لم يتقبلها أحد.. و تميزي عنهم جعلني دائما في الوراء.

لكن يا امي قلبي لم يستمع لوصيتك و ضرب بها عرض الحائط .

قلبي يا امي تركني و ذهب إليه و لم أستطع منعه.
انا لم اصنه يا أمي لأنه شعر بتميزه و ذهب ناحية مميز آخر.
انا لم احفظ وصيتك يا امي .. لكنه يستحق أن أفلت زمام قلبي أمامه.
لو عرفته يا امي لأحببته مثلي .
لكن لو لم تموتا لم أكن لألتقي به .. لم أكن لأذهب للحب مناجية له .. لم أكن لأسقط دون نهوض .. لم أكن لأشعر بالوحدة مرة أخرى و بطريقة امر و اشد .
يا لسخرية القدر !
فأنا كنت و سأبقى امرأة قدرية تقدس الصدف و أبدية العلاقات.
كنت و سأبقى تلك الوحيدة التي امسكت يوما لوحا و فجأة انقلب بها .

***

- لنلخص الأمر أكثر توليب كانت بحاجة إلى مكان يشبهها تسكب فيه قلبها كما هو بدون زيف او زيادة ، فصدمة وفاة والديها و طردها من العمل جعلتها تنكمش على نفسها و تعيش في قوقعة الوحدة التي لا طالما كانت تجدها السبيل الوحيد للبقاء آمنة بعيدة عن الألم .. فكلما كان الألم كبير كلما انغلقت على نفسها و هكذا. عوضا عن عقدة الذنب التي اوهمت نفسها بها حتى باتت ترى أن كل شيئ بسببها و هذا ما جعلها تريد أن تبتعد عن الواقع .

بقيت أنظر إليه مشدوهة و خالي و خالتي ينظرون بحيرة لبعضهما , فكسرت الصمت خالتي بصوتها المتوتر و هي ممسكة بيد خالي:

- انا لم أفهم كيف و ماذا تقصد هل هي مريضة؟

فقال قيصر بعملية و كأنه اعتاد التفسير لأهل المريض:

- هي ليست مريضة كما يصح التعبير لكن هي تجيد الكتمان و اذا تفاقم الأمر سيصبح مؤلما و سيتولد داخلها احساس ان لا احد يفهمها و لن يفهمها احد ، لذا ستبقى معاناتها داخلها و ستعاني وحدها , لذا فهمت أن ما تحتاجه هو مواساة من نوع آخر ففكرت في الكتابة كنوع من افراغ للذات و كوسيلة للإحساس بالفهم و التقبل و لتخفيف من صدمة واقعها الذي عاشته .

فأطرقت برأسي و أنا لا أدري هل أشعر بالدهشة ام بالسخرية , فهناك من قرئني لقد أعطى وصفا دقيقا لما امر به و بما مررت به , فشعرت كأنني أريد أن أذهب اليه و أن اخطو انا الخطوة الأولى و تبا لكل شيئ .. أردت أن اصرخ به و أخبره كيف انك فهمتني و حاجتي للحديث.. أردته في تلك اللحظة بكل جوارحي, لكنني في الاخير اتراجع بخيبة و أنا اقنع قلبي ان هذه هي مهنته و واجبه أن يفهم داخلي و الرضوض التي تقبع بها. في الأخير انتِ لست مميزة عنده يا توليب هذا عمله .

فرفعت رأسي و لم انبس ببنت شفة فقابلتني عيناه و هي تنظر لي نظرة طويلة و غامضة و أنا بقيت أنظر له نظرة وداع و اشتياق و كأنني احفظه داخلي لأنني لن أراه مجددا و قد يكون هذا اللقاء الأخير.. فقد اتخذت قراري لحظة رؤيته و تأكدي التام أنني أتألم وحدي و أعذب قلبي دائما.. أن اتألم و أنا بعيدة خير من و أنا قريبة

فسمعت خالتي تهمس لخالي برقة:

- لقد أخبرتك يا عزيزي إنه ماهر جدا لم يمضي على توليب شهر و ها هي قد تماثلت للشفاء.

شفاء؟ يا لشخرية! فهو السبب .. هو السبب في تقبلي و شفائي .. هو علتي و دائي ، اي هراء يتفوهون به؟ هو من جعلني امضي و هو من عوضني عن الفقد بحضوره .. فأي هراء يتحدثون عنه ؟ فلا المهارة و لا العلاج من ساعدني لا شيئ سوى وجوده.
لذلك دست على قلبي و اتخذت القرار الذي لم اظن يوما أنني سأتخذه أنا! و بكامل ارادتي و قوتي .. سأنتزعته مني انتزاعا و أنا انزف و لن ابالي سوى بابتعادي عنه.
- هل لديكِ ما ستقولينه يا توليب ؟ سألني بنبرته العميقة و أنا أجبت بهدوء :
- لا شيئ سوى أنني بأحسن حال ولا حاجة لي للمجيئ هنا لذا هذه ستكون آخر جلسة بيننا .
لقد انتهى كل شيئ و قتلت نفسي , لا سيما حين وافقني خالي و خالتي فقد كنت اتمنى على الأقل ان يعارضوني و يعارضني هو علني أجد عذرا او سببا اتراجع فيه عن قراري . فتابع خالي يقول بحماس :
- نعم أيها الطبيب أرى انها في أحسن الأحوال لا سيما انها عادت للضحك مرة أخرى و أصبحت لديها هواية جديدة هي الكتابة و هي منشغلة بها ، لكنني أريد أن أسألك هل ستكون بخير؟ فأنا و خالتها سنسافر للعيش بعيدا و لا نستطيع أخذها معنا الا بعد وقت طويل هل ستكون بخير وحدها؟.
فبقي ينظر لي و له و ينقل نظارته بيننا ثم قال بصوت عملي و هادئ :
- حسنا أنا أيضا أرى أنها قد تحسنت مقارنة بأول جلسة بيننا لذا لا أرى داعيا أن نكمل الجلسات , لا سيما اذا كانت الموافقة منها و بما انها كبيرة كفاية ستدبر أمرها وحدها , و اذا شعرت أنها تريد الفضفضة فأنا هنا لأسمعها و يمكنها أن تأتي الي في اي وقت .
كأنه نطق بحكم الإعدام علنا ، ا لهذه الدرجة لم أكن أعني له شيئا ؟ هكذا بكل بساطة قالها دون أن يرف له جفن .
لقد حكمت علي بالإعدام يا قيصر.
فقالت خالتي و هي تهم بالوقوق :
- نحن ممتنون لك أيها الطبيب على علاجها و شكرا جزيلا لك على ما فعلته معها .
فوقف قيصر بدوره و صافح خالي بعملية و هو يبتسم بتهذيب لكنه فجأة قال ما جعل قلبي ينبض حتى كاد يخرج من مكانه :
- لكن ا تسمحون لي بدقيقة مع توليب لأخبرها بما يجب عليها فعله حين تبقى بمفردها.
فإبتسمت خالتي و قالت بلطف:
- طبعا. ثم التفتت لي و قالت برقة :
- توليب نحن سنذهب لأن لدينا أوراق مستعجلة لنخرجها عن الانتقال و هاك المظلة لأنني اظنها ستمطر بالخارج .

فإبتسمت و أمسكت المظلة و قلت بصوت منخفض:
- حسنا يا خالتي صحبتكما السلامة .
بقيت اتابع خروجهما بعيني المتوترة خوفا من أن يستمع لصوت دقات قلبي العالية و ترقبا لما سيقوله.
فتنهد ثم قال بصوته العميق:
- حسنا يا توليب لماذا ستوقفين جلساتك ؟
فأجبت بثقة مصطنعة :
- كما أخبرتك أشعر بتحسن كبير .
- لكنك لم تقوليها المرة الماضية.؟
- ماذا ؟
- بسؤالك شعرت أنكِ لم تريدي التوقف عن الجلسات .
فتذكرت ما حدث في آخر جلسة و سؤالي عن التوقف عن الذهاب للجلسات يا الهي لقد امسك بي ! ماذا يجب أن أقول يجب أن اخرج نفسي من هذه الورطة لأنه اذا استمر بأسئلته هذه سيعرف ما اكنه له , لذا قلت اول شيئ تبادر لذهني :
- الا اتعرف أيها الطبيب أن القرارات تتغير بين يوم و آخر أضف على ذلك أنني شعرت بأنه لا لزوم لهذه الجلسات إذ أنني بخير .
فبقي ينظر لي نظرته الغامضة و الباردة ثم قال :
- هل شعرت بأنكِ بخير و انكِ لم تعودي تحتاجي للجلسات ام انكِ شعرت بشيئ آخر؟
- ماذا تقصد ؟
فقال بتلقائية و ببساطة :
- اقصد الحب أو الإعجاب ؟
لقد امسك بي فنظرة الثقة التي يرمقني بها الآن توحي أنه قد عرف لكنني سأبدد هذه الثقة فأنا اكتفيت منه و من تلاعبه .
- أنت طبيبي و أنا نظرت اليك كطبيب طوال جلساتنا ام هل أنك معتاد على حب المريضات لك؟
فأنزل رأسه و ابتسم ابتسامة ثقة ثم قال :
- نعم لهذا أنا أريد أن اعرف هل انتِ منهن ام لا؟ .
فبقيت أنظر له نظرة طويلة مليئة بالحزن ثم أطرقت رأسي.. أهذا هو الرجل الذي حلمت به طويلا؟ هل هذا هو نفسه الذي عشت ليال كاملة أحلم به و بقربه؟ لم اتوقع ان يُكسر قلبي بقربه و امام عينيه و بحضوره هنا .
و هنا تيقنت ان هذا الشعور الذي شعرت به الآن لم و لن أنساه و سيبقى اثره باقيا.

- توليب أين سرحتِ بنظراتك ؟
رفعت رأسي و التقت عيناي المجردة من المشاعر بعينيه الواثقة فأجبت ببرود :
- لقد كنت افكر في تلك الجلسة حين أخبرتني بأنني مميزة كإسمي ، هل الآن أصبحت مثلهم ؟
- قصدت في شخصيتك و ليس قلبك.
فإبتسمت إبتسامة سخرية و قلت :
- آسفة لأنني خيبت ظنك لكن قلبي كشخصيتي لا اعطيه لأي أحد كان ولا اتنازل عنه مقابل كلمات غزل عبثية . ثم تنهدت وتابعت :
- هل اعتقدت أنني وقعت بسهولة حين أخبرتني تلك الليلة بتلك العبارة؟ حسنا لم تكن الأول الذي تغزل بي لذلك التمست لك العذر، عوضا عن ان العديد من مريضاتك قد وقعن لك بعباراتك و غزلك ، لذا فقد اعتبرتني منهن , لكنني لا انتمي لهن ولا لأي شخص , لاطالما كنت الوحيدة التي لم تكون صداقات و الوحيدة التي لم تدخل في علاقة قط و الوحيدة التي رغم قربها من عائلتها الا أنها لاطالما شعرت بالبعد و اللافهم ، و الوحيدة التي اتخذت الكتمان سبيلا للعيش .. لا تقارني معهن فهناك الكثير مني ، لكن لا أحد مثلي.
ثم ابتسمت بألم حين تذكرت جد الزمن الجميل و قلت :
- الا أنني لم اعتقد يوما أنني مستعدة للبوح لأحد أو أن أشارك أسراري .. و أنني قريبة من شخص رغم البعد المكاني و سأصبح صديقة لشخص يفوقني في العمر كثيرا.
اعتقد أنني رأيت نظرة حيرة للحظة في تفاصيل وجهه و هذا ما أردت بالضبط أن يشعر به ، لكنني و لأول مرة أُعجبت بنفسي ، فأنا لم اتوقع ان تخرج هذه الكلمات مني، فأنا اشعر بالضياع و الألم و التشتت .. و بحجم خيبتي و خذلاني قلت كلام لم اشعر به حتى كيف انساب من فمي لا ارادیا ، فقد علمت أن الشرخ الذي أحدثه كان عميقا .. و علمت أيضا أنه سيحتاج وقت طويل ليندمل و يُشفى لكن اثره لن يختفي ابدا.
تنحنح و قال بصوته العميق ليكسر هدوء اللحظة أثر كلماتي :
- اذا هذه المرة كنت مخطئ إذ أنني حسبتك قد وقعتي فيَّ مثلهن , فأنا لدي حدود مع المرضى و لا أحب اي تجاوزات، اعرف أنني تجاوزت حدودي تلك الليلة و أنا اعتذر فعيناكِ قد اغرقتني للحظة لكنني انتشلت نفسي سريعا حين ودعتك أمام باب بيتكِ.
فسكتتُ و أنا استمع لكلماته التي ضربت جدار قلبي ، هل الومه لأنه انتشل نفسه ام ألوم نفسي لأنني لم انتشل نفسي للآن ؟ الآن فقط عرفت بأن كل الخطأ يقع علي هو لم يكن سوى رجل شعر بالافتتان تجاه امرأة في شوارع الليل المظلم فالليل هو الوقود الذي يجعل الحب يلتهب .. يئن .. و يهوي و يذوب . كما هويت و ذبت أنا فيه .
فقلت بلا مبالاة و قلبي يعتصر من الألم :

- لا عليكِ فهكذا هم الرجال يميلون و لا يقعون .
ابتسم ثم قال و كأنه تذكر شيئا :
- بما انها اخر جلسة لنا أخبريني يا توليب لماذا لا تريدينني أن أقرأ ما كتبته في مفكرتك؟ .
ثم تابع ممازحا:
- انا أراه كدين يجب عليكِ سداده.
- لا أريد لأي شخص أن يقرئني .
- كيف ؟
- لأنك ستقرئني و أنا لا أحب ان يقرئني أحد ، لا أريد لأي شخص كان أن يقرأ تقلباتي و انهياراتي .. تشتتي و فوضى روحي .. ضعفي و ألمي.. مشاعري و سعادتي .. لذا اذا جاء يوم و جعلت شخص ما يقرأ ما كتبت حينها سيكون مميز و استثنائي جدا داخل قلبي .
فأطرق برأسه ثم ابتسم ببرود و قال :
- لم أكن اعتقد انكِ صريحة هكذ لذا أريد سؤالك سؤال آخر و لنجعله الأخير هل تعرفين الجد جمال معرفة وثيقة لأنني اخر مرة رأيتك تتحدثين معه و تبتسمين و هل شعرت يوما بأي عاطفة اتجاهي مهما كانت ؟
شعرت أن قلبي على وشك الخروج و أن يدي بدأت ترتعش من التوتر و الألم ، فأنا لم أعد أستطيع التمثيل أكثر ، اشعر أنني اتمزق و هذا سيبدأ في الظهور على ملامحي ، فتمالكت نفسي اخيرا و قلت :
- هذان سؤالان لكنني سأجيبك عليهم ، جدي تعرفت عليه يوم تقابلنا في المحل فأصبح صديقي الوحيد منذ ذلك الحين.
- اذا لدينا صديق مشترك !
فإبتسمت بسخرية لأنني قلت نفس الكلام حين عرفت أنه صديقه.
- نعم لدينا صديق مشترك ،أما بالنسبة لسؤالك ثاني اظنني اجبتك عليه لكن نعم لقد شعرت بعاطفة واحدة تجاهك هي الامتنان لأنكَ اخرجتني من الدوامة التي كنت فيها ، لولاك لما مضيت و تقبلت واقعي .
- نعم فهذا عملي عوضا عن انني أعلم أن وفاة والديكِ وحدها لم يكن هو ما جعلكِ تشعرين هكذا انها التراكمات التي حملها قلبكِ طويلا.
فنظرت له بحزن و للحظة كدت أن أخبره أن وجودكَ فقط ما جعلني أشعر أنني لم أعد وحيدة .. للحظة أردت أن أخبره أن لقائنا قدر و حضوره نجاة .. أنه الوحيد الذي فهم داخلي .. أردت أن أقول له أن كوابيسي قد اختفت بدخوله حياتي.. اردته أن يعلم أنني هربت من الواقع للأوهام لأعيش معه كل ما لن اعيشه معه في الواقع .. لست أنا من

تغلب على مرضي أنا لم أفعل أي شيئ و هو أيضا لم يفعل اي شيئ .. لقد كان هو فقط .. بوجوده و حضوره.
لكن عوضا عن كل هذا قلت و أنا أنظر لساعتي :
- انا سأذهب لقد تأخرت تشرفت بمعرفتك و شكرا جزيلا لك لأنك عالجتني .
فوقف و نظر لي نظرة عميقة و غريبة ثم مد يده دليلا على الوداع ، اليد التي لمستني مرة برقة ، سألمسها اليوم بوداع مؤلم.
اليد التي كانت دليلا للقاء اصبحت الآن دليلا للفراق .
فمددت يدي و امسكت يده فشعرت بنفس التيار الذي شعرت به كل ما لمستها لكن هذه المرة التيار آلمني.. فأحسست بكل ذرة في كياني تنتفض و تتألم .. شعرت أنني سأبكي و أن عينيان ستذرفان الآن دموعا ، و ما حبسها سوى قبضة يده و هي تشتد على يدي , ثم قال بهمس :
- اهتمي بنفسك و اذا شعرت بحاجة لشخص يستمع لك عودي للاستشارة.
حتى لو كنت انت الوحيد على وجه الأرض لن أعود اليكَ.
- حسنا أيها الطبيب .. الوداع.
- إلى اللقاء .
و افترقنا.. أقصد افترقت عنه.

خرجت امشي منكسة الرأس متألمة القلب و دموعي تختنق داخلي .. امشي تحت السماء الرمادية التي على وشك أن تمطر .. امشي و أنا أحمل قلبي المليئ بالكدمات و اطمئنه من حين لآخر و أعالجه بكلمات لا تسمن و لا تغني .. امشي و أنا أتذكر عينيه التي لن أراها بعد اليوم .. عينيه التي لا اعلم للآن كيف سأصبر لفراقها. اريد اقناع نفسي أنه لم يكن حب بل اعجاب .. أريد اقناعه ليخف حجم الدمار الذي بداخلي .
اقتنع يا قلبي.. اقتنع ارجوك هذا ليس حبا .
حينها تذكرت فجأة اغنية" كلمات" لماجدة الرومي و هي تغني بخيبة :

"يبني لي قصرا من وهم لا اسكن فيه سوى لحظات" .
"و أعود لطاولتي ، لا شيئ معي الا الكلمات " .

لقد صدقت يا ماجدة فأنا عدت للواقع و لا أحمل معي سوى كلمات عبثية و لحظة كانت خيالية .. لقد اعادني لطاولة الحياة و لا شيئ معي سوى الألم .. لقد افقت يا ماجدة من وهم اللحظات التي عشتها معه .
و لا شيئ معي سوى الخيبة التي مازالت تراقصني و تحتضنني الآن.

فوجدت نفسي أمام المكان نفسه .. البحر نفسه الذي شهد إيماني بالحب مع ثوران امواجه و غضبه .. مع نفس الجو الغائم و المطر الذي يوشك على النزول .
لقد أعاد الزمن نفسه لكن الفرق الوحيد كان انا .

ذهبت و وقفت امامه اتأمله بشرود و أفكر في ما كان سيحدث اذا لم التقيه .. ما الذي كان سيحدث اذا لم يموتا والديَّ؟ .. ما الذي كان سيحدث اذا ذهبت لطبيب آخر غيره؟.. ما الذي كان سيحدث اذا لم تلتقي خالتي بصديقتها و لم تخبرها عنه ؟ ما الذي كان سيحدث اذا لم يجمعنا ديسمبر ؟
ما الذي كان سيحدث اذا لم تتشابك طرقنا و لم نلتقي؟

الآن فقط و في هذه اللحظة فهمت عبارة محمود درويش حين قال: "*لم نفترق لكننا لن نلتقي ابدا* " .
نحن لم نفترق ايضا يا محمود لكننا لن نلتقي .. لا في الأحلام و لا في الواقع ..لا اليوم و لا بعد سنوات .. لا في هذه الحياة و لا في حياة اخرى .

فأحسست بقطرات رقيقة تسقط و تلامس كتفيَّ فتذكرت اليوم الذي أتيت فيه هنا و أنا ارقص بعبثية غير آبهة بكل شيئ .. ارقص متجردة من ترددي و من تزمتي و أنا منغمسة في الخيال و الأوهام عنه و فيه و إليه.

فشعرت ان كل شيئ يتحرك ببطئ .. تلاطم الامواج .. سقوط المطر .. دقات قلبي .. و انفاسي .. و اللحظة التي رقصت فيها .

فحملت المظلة التي اعطتها لي خالتي و أنا أشعر بارتطام الأمطار عليها و معها يرتطم كل ما شعرت به.. ترتطم معها أحلامي .. شغفي .. لهفتي .. اشتياقي .. ألمي أحمل مظلتي بكل واقعية و أنا أشعر أنني لم أعد أنا.. لست توليب التقليدية المترددة و لا توليب الحالمة المملوءة بنشوة الحب .

انا نوع آخر.. نوع فارغ مجرد من كل الأحاسيس .. نوع لا يعرف حجم الدمار الذي بداخله .

أنا توليب التي بدأت و انتهت .

أنا توليب التي ما بين لحظات شهر ديسمبر وُلِدت و اندثرت .

فأنا للآن لا أعلم لماذا اختار الحب طريقه ليفاجئني بطريقة قاسية .. طريقة مؤلمة لماذا من بين الجميع جعلتني أتجاوز فقد بفقد آخر؟ ما الذي فعلته ؟ لماذا لست مثل باقي النساء اللاتي جمعهن القدر بمن يحبون ؟ لماذا يا ديسمبر؟ لماذا آلمتني و أنا التي كانت تقدس ايامك وساعاتك؟ .

لماذا يا ديسمبر جعلتني أؤمن بخرافة الرحيل و الغياب و أنا التي كانت تؤمن قبلا بخرافة لهفة الحب و اللقاء الزاخر.. لماذا يا دسيمبر اوهمتني أنه قدري ؟ لماذا؟.

لم أشعر سوى بعينايَّ تفيضان دمعا فجأة , فبقيت اتلمس عيني كالمسحورة .. أنا أبكي! و أخيرا استطعت البكاء .. أنا أبكي! .. انا عدت شخص طبيعي مجددا .. أنا أبكي.

فالأمر بدأ بقطرات ثم اصبحت سيولا تنافس الامطار.. حينها نزلت على ركبتاي بانهيار و أنا أحمل مظلتي و دموعي تنهمر مع انهمار الأمطار .. أبكي بحرقة كما لم ابكِ من قبل و أنا أتذكر اللحظات التي كان من المفترض ان ابكي فيها ، اتذكر وحدتي حين كنت اتمنى اصدقاء .. وفاة والديَّ و برودة جسديهما .. اتذكر عملي الذي طُردت منه .. اتذكر ألمه و معاناته التي عاشها .. و اتذكره هو قيصر.

فالآن فقط تأكدت انني ما أشعر به معه لم يكن مجرد اعجاب لحظي بل أعمق هذا اشد من كل ما شعرت به من مشاعر قط .. أنا أحببت.. أنا أحببته هو .

اتذكر كل ما شعرت به و أنا أبكي و اصرخ بإسمه الذي تبتلعه الامواج معها .. اصرخ به عله يأتي و يأخذني إليه.. اصرخ به و استنجده ليأتي.. لكنني أعلم أنه لن يأتي هو لم يحبني و يشتاق لي كما أحببته و أشتقت إليه.. كلهم تركوني .. حتى هو .. هو الذي اعتبرني مريضة مؤقتة ستتعالج و تذهب في طريقها .. هو أيضا تركني .. هو لم يحبني .. هو مثلهم .

قيصر الذي اصرخ الآن بإسمه و اناديه بكيت لألمه .. لمعاناته.. لطفولته .. لإغترابه لهروبه من الواقع.. أبكي لحياته التي امضاها وحيدا .. قيصر الذي قتلني و آلمني اليوم أنا ابكيه و ابكي عليه .. قيصر الذي اعادني للواقع انا أبكي عليه .

لا لا توقفي يا توليب ! .. لا هو فقط من يستحق أن أبكي عليه بحرقة .. هو من يستحق أن اصرخ بإسمه في الامواج .. هو من يستحق أن أشتاق إليه و لا المسه .. هو من يستحق أن أهيم فيه في أحلامي و واقعي .. هو من يستحق أن أُخلد ذكراه في قلبي و في أوراقي .
هو الرجل الوحيد الذي يستحق أن أحبه و اتعمق فيه هكذا .
لأنه لا وجود لشخص مثله بتناقضاته .. لأنه الرجل الذي لا طالما حلمت بلقائه . لأنه تألم مثلي .. عانى من الفقد مثلي .. لأنني و هو نتشابه .
قيصر و توليب تألما معاً .. و عاشا الألم سويا .
لماذا القدر لا يجمعنا معا ؟ اوليست الحياة تجمع المتشابهين في التجارب و اللحظات فلماذا لا يجمعنا ؟
أيها القدر لماذا جعلتني التقيه اذا كنت ستبعده عني؟
لماذا جعلت قلبي يتعلق به اذا كنت ستمزق روحي هكذا؟
لماذا جعلت يدي تتمسك به اذا كنت ستؤلمني بها ؟
الا ترى أيها القدر أنني أبكي .. الا ترى أنني و أخيرا استطعت البكاء و التوسل. أنا التي كبريائها يصل الى عنان سماء اتوسل أمامك و أمام البحر و أمام خالق الموجودات أن ترفق بقلبي قليلا .. أن تجعله يلتقي بطريقي و لو بعد مئة سنة .. أن يكون هو قدري أيضا أيها القدر .
بحق هذه الدموع التي تهطل مع هطول امطارك .
انقذني !.

***

- توليب أهذا انتِ ؟
- نعم يا خالتي لقد عدت الآن .
- لماذا تأخرتِ كثيرا ؟
ابتسمت ابتسامة مصطنعة و أنا اجيبها :
- لقد كنت عند الطبيب فقد كان يعطيني بعض التعليمات و الإرشادات التي يجب أن ألتزم بها .
فعانقتني خالتي و قالت بدفئ :
-لا بأس يا صغيرتي المهم ان تكون قد شُفيت الآن و اصبحتِ تشعرين بتحسن ، فكل شيئ مُرٍ مَر و الآن ركزي على حياتك في الحاضر و انسي الماضي بآلامه و أوجاعه.
عانقتها بشدة و أنا أبكي فجأة ، لم أستطع تمالك نفسي هذه المرة و لم أخبرها بشيئ فقد كنت بحاجة الى عناق يفهمني بدون أن أتحدث، بدون أن ابرر أو افتح فمي ,ثم أبعدتني خالتي و هي تمسح دموعي التي تنهمر على خدي و هي متفاجأة .
- توليب ما بكِ لماذا تبكين ؟
- لا شيئ يا خالتي أنا اشعر انني بخير لهذا أنا أبكي ولأنني أيضا ممتنة لكِ لأنك بقيتي معي و لم تتركيني و أنا سأشتاق اليكِ كثيرا .
فنظرت لي نظرة حنان و دفئ و أمسكت يدي برفق و قالت :
- لا تقلقي يا صغيرتي فخالك يعمل على أن تسافري معنا و لا تبقي وحدكِ هنا لذا لا تقلقي كثيرا .
ابتسمت ثم قلت بتعب :
- هل لا بأس أن أذهب لأرتاح و أنام قليلا فأنا متعبة و أريد النوم .
- حسنا يا زهرتي اذهبي لترتاحي قليلا فأنا سأخرج مع خالكِ لشراء بعض المستلزمات .
- حسنا يا خالتي انتبهي لنفسك و حين تأتي ايقظيني .

فذهبت اجر اذيال الخيبة و أنا اخذها معي لغرفتي ،لقد شعرت بذنب كبير لأنني كذبت على خالتي و مازلت سأشعر , لأنني لم و لن أخبر عنه احد باستثناء صديقي الكبير في السن فهو يعلم .

دخلت و أنا أنظر في ارجاء الغرفة و اتأملها بسخرية .. أتأمل كل ركن فيها و أنا أتذكر الأيام التي كنت سعيدة فيها بنشوة الحب .. مرآتي التي شهدت تورد الحب في وجهي و الآن هاهي تشهد ذبول ملامحي من الحزن .. خزانتي التي انتقيت فيها اثواب الشوق لمواعيدنا، سيغلفها الآن تراب الانتظار .. السماء خارج نافذتي التي دائما ما كنت اسرح في تفاصيلها و

قمرها و نجومها الآن سيؤلمني وجودها و سيحزنني عدمها .. قيصر الذي كنت قبل أن اسدل ستار الأحلام لواقعي ليكون آخر ما أرى سأراه الان سرابا و وهما بعيدا لن تطاله يداي لا واقعا ولا حلما.. سريري ووسادتي اللتان لاطالما سكبت فيهما نفسي .. سأسكب فيهما الآن دموع الخيبة و الغياب.

هذا هو المكان الوحيد الذي جمع تناقضاتي منذ أن عرفته، لكن مؤخرا و بفضله أصبحت لي رفيقة بكماء لكنها ليست صماء تسمعني و تدعني اسكب فيها ألمي و حبي و شوقي .

هذه الرفيقة التي انتظرت اليوم بطوله لأكتب لها و اليه ما حدث لي .. .. اشتكيه اليه عله يأتيني .. عله يوبخ نفسه على ما قاله لي .

نظرت لها و حملتها و أنا أقرأ ما كتبته عنه لأول مرة بمرارة و خيبة ، فجلست على الكرسي و دموعي قد بدأت تنسكب وحدها و كأنها انتظرت طويلا للحظة ما او موقف ما لتنفجر فيها .. أنظر اليها و الحنين بدأ يتغلغل داخلي , فاحتضنتها و أنا أشعر بطيف ذراعيه الدافئتين تلتفان حولي .. ثم وضعتها في مكتبي و فتحت اول صفحة لأقرأ ما كتبته و أنا تحت نشوة الحب اما الآن سأكتب اليه و أنا تحت سطوة الألم و الخذلان .. سأكتب و أنا مليئة بالرضوض التي خلفها بُعده في قلبي .. سأكتب اليه و عيني تبكي في حين انها قبلا كانت تبتسم .

ثم بدأت أكتب و أبكي و ابتسم في نفس الوقت .. ثم كتبت و ابتسمت و بكيت مرة أخرى ، و بقيت اكتب و اكتب و اكتب بلا توقف إلا أن جفت دموعي و معها جفت كلماتي و لم أجد ما أقوله له اكثر .

فنهضت و ذهبت لخزانتي و أخرجت وشاحه ثم عدت إلى سريري و استلقيت و عانقته بقوة و أنا استنشق رائحته و أتخيله أمامي و هو يمسح على رأسي برفق و يهدئني بكلماته الدافئة , فقلت بهمس و دمعة أخرى وحيدة و اخيرة فرت من عيني قبل أن اغمضهما بتعب .
" قيصر أنا أحتاجك" .

استيقظت فزعة على صوت صراخ خالتي العالي و صراخ خالي أيضا، فنهضت سريعا و خرجت اليهما و أنا بالكاد أراهما

- خالي .. خالتي ماذا حدث !

فنظرت لي خالتي و بدأت تبكي وهي تعانقني فنظرت لخالي و رأيت الحزن في عينيه

- خالتي لماذا تبكين ما الذي حصل ؟

فنظرت لي و قالت بألم :

- الذي حدث انكِ لن تستطيعي المغادرة معنا لأن الأوراق التي دفعها خالكِ ستستغرق وقتا طويلا و هو يجب أن يعود لعمله و مُصر أن أذهب معه و اتركِ.

فنظرت لهما و رأيت الألم و الحزن يغلفهما و هذا آخر ما أريده , فأنا أريدهما أن يكونا سعداء ما داما باستطاعتهما أن يكونا معا , فالموت لا يعرف الانتظار و كذلك الحب .. فالحب لا يطفئه شيئ سوى الغياب , و أنا لا اريد لشعلة حبهما أن تنطفئ.

- خالتي لقد وعدتني أنه عندما تقابلين الطبيب و يطمئنكِ عن حالي ستذهبين معه لماذا اذا تبكين و تعارضين الأمر؟

- الأمر هو أنه كان عندي بصيص أمل انك ستأتين معنا لكن الان أنا لا أستطيع تركِ وحدكِ هنا لأنكِ ستشعرين بالوحدة من دون أي يكون معكِ اي شخص .

ابتسمت بسخرية و أدركت أنني لا طالما كنت وحيدة.. مقصية.. بعيدة كل البعد عن الاشخاص حتى بين الأشخاص الذين احبهم ، الا هو .

هو الشخص الوحيد الذي لم أشعر في حضرته انني وحيدة ، فكرة انه موجود في يومي جعلتني أعلم أن قلبي ألفه منذ اول مرة رأيته فيها .

فابتسمت لها ابتسامة مصطنعة و قلت بهدوء :

- خالتي لقد تحدثنا في هذا الموضوع قبلا ارجوكِ لا تبكي , انا سأكون بخير لقد سمعت الطبيب , و أيضا اعلم أن مكانك الصحيح ليس معي بل مع خالي و سنتحدث في الهاتف وقت ما تريدين ارجوكِ لا تكوني هكذا .

ابتسمت لي ابتسامتها الحنونة و قالت بصوتها الرقيق لكن بنبرة حزينة :

- لقد كبرتِ يا زهرتي فمشكلتي الوحيدة أنني لازالت اراكِ صغيرة .

- لقد كبرت الا ترين و لقد ازددت طولا قليلا .

فضحك خالي و عانقني و قال :

- هذه هي ابنتنا توليب لقد كبرت و ازدادت طولا أيضا. ثم تابع بجدية :

- لكِ وعد مني أنني لن ارتاح حتى اخذك معنا سأجد حلا حين اسافر مع خالتكِ.
ابتسمت و شكرته من كل قلبي ، ثم سألته :
- خالي متى ستسافران؟
- بعد أسبوع من الان في اواخر شهر ديسمبر .
- لماذا لا ننتظر أسبوع آخر حتى اقضي بعض الوقت مع توليب فأنا سأشتاق اليها.
- اعلم فأنا أيضا أردت التأجيل لكن تعلمين بأنني اخذت أيام اجازتي و قد اتصلوا بي في الامس و أخبروني انه هناك مشكلة في العمل و يجب أن أعود غدا لذا أخبرتهم أنني سأحضر زوجتي معي و يلزمني بعض الأوراق فقالو لي أن اسرع بالعودة.
نظرت له خالتي بحزن و كأن خيط املها قد قطع للتو , فأسرعت انا اطمئنها و أخبرتها انه لا بأس و أنني بخير و سأتعود , لذا اقترحت أن نمضي الأسبوع بأكمله نفعل فيه اشياء تحبها , فأنا أعلم أنني انشغلت عنها و بقلبي لذا سأعوضها .
فقالت و هي تعانقني :
- أريد شيئا منك و اريدكِ أن تحققيه لي ؟
- ما هو ؟
- ان تطبخي لنا .
فنظرت لها و تذكرت اليوم الوحيد الذي طبخت فيه ماذا حصل , فسرت رعشة للحظة في جسدي لكني ابتسمت و قلت لها :
- حسنا سأطبخ لكِ لكن بدون تعليقات او نقد مفهوم ؟
فضحكت و قد زال الحزن من تعابير وجهها , ثم قال خالي:
- و أنا أليس لي نصيب من طبخكِ ؟
- انت هي و هي انت فما الفرق .
فخجلت خالتي و قال خالي و هو يغمز لها :
- ارأيتِ عليك اخذ الدروس منها فأنا ارى انها أصبحت خبيرة في الحب .
فإبتسمت بحزن و بخيبة ثم أخفيتها سريعا و أنا أدير ظهري لهما و أقول :
- لست خبيرة بل هو كلام الروايات لا أكثر.
- اذا عليك التقليل من الروايات من يدري قد تقعين في حب أبطال رواياتكِ.
- لقد وقعتُ في أحدهم و انتهى .
- هاه ماذا قلتِ ؟
- لا شيئ لقد قلت أنني سأبدا باعداد العشاء.

***

لقد انقضى اسبوع كامل و لم اشعر لا انا به و لا خالتي .. اسبوع و أنا أقتات على ذكريات مرت و لن تعود.. اسبوع و أنا انفض الغبار على لقاء جعلني اهوي و اذوب كلما تذكرته .. فأنا لم أعد أشعر بأي شيئ .. كأن روحي قد غادرت جسدي منذ ذلك اليوم , فأصبحت جثة متحركة تأكل و تنام و تستحضر الذكريات التي بها تعود لنقطة البداية .. أعود إليه مسلبة الأنفاس و بدون عقل او منطق.

و ها هي الآن خالتي تنظر لي و تبكي و لا تريد أن تغادر و أن تبقى هنا قليلا.

- توليب يا عزيزتي أنا سأشتاق اليكِ.

قالتها و هي تعانقني و تبكي فعانقتها بدوري و أنا أقول لها بحزن:

- و أنا أيضا يا خالتي سأشتاق اليكِ كثيرا لقد عوضتني عن كل ما مر بي و كنتي امي الثانية و لم تتركيني للحظة أنا ممتنة لكِ جدا .

ابتعدت عني و هي تمسح قطرات نزلت من عيني و هي تخبرني بحنان و حب :

- أنا لم أفعل أي شيئ فأنتِ أمانة ياسمين رحمها الله و أنا أحبك بقدرها .

فإبتسمت لها بحب و اشتياق و هي تتذمر حول الاسبوع الذي فات بلمح البصر , فأنا أعلم انني لن أراهم إلا بعد مدة طويلة , لذا على الاقل سأجعل الوداع مليئ بالحب و التمثيل لكي لا يعرف احد منهما الخراب الذي بداخلي و أنني على بعد خطوة واحدة من الانهيار.

- هيا اذهبا الآن لكي لا تفوتكما الطائرة و حين تصلا اتصلا بي لأطمئن انكما وصلتما بسلام.

فجاء خالي يعانقني و هو يأتمنني على نفسي , ثم سمعت خالتي وهي تقول بصوتها الرقيق الحزين :

- حسنا سنفعل يا زهرتي و طمنينا انت عليكِ بين الحين و الآخر .

- حسنا يا خالتي لا تقلقي سأتصل بكِ دوما لكن لا تملي مني فقط .

فعانقتني مرة أخرى و هي تبتسم :

- اتصلي فقط أنا لن أمل لحظة منكِ فأنتِ زهرتي الحبيبة .

قفاطعنا خالي بإنفعال :

- هيا يا عزيزي سنتأخر إلى اللقاء يا توليب سنفعل المستحيل لكي تكوني معنا لا تقلقي.

- و انا اثق انكما ستفعلان إلى الملتقى.

خرجت اودعهما و خالتي تارة تبكي و تارة تلتفت لتراني , كأنها كانت تعلم أننا لن نلتقي مرة أخرى .. فركبا في السيارة و انطلقا و أنا بقيت أنظر لأثرهما بألم و حزن. حينها فقط انهرت أرضا و نزعت قناع التمثيل و أنا أبكي لأن أمي الثانية غادرتي ابكي لأنني سأكون حبيسة الوحدة مجددا .. ابكي لأن جميعهم غادروني فلم يبق لي سواي .

أنا فقط بقيت لنفسي .. لا حتى نفسي لم تعد كما كانت لقد تغيرت .. فقد بت ابكي و أصبحت هشة و سريعة الانكسار .. ابكي و أنا أشعر بأن روحي قد غادرتني .. أبكي لأنني لم أكن أنانية كفاية لأحرمها من زوجها و حبيبها الذي لا طالما اشتاقت إليه.. أبكي و أنا أعلم انني أردت أن اتشبث بقدمها مثل طفلة اعتادت التشبث بقدم امها لكي تأخذها معها اينما ذهبت.

أنا أبكي لها و له و لنفسي.

لقد اتقنت فن الوداع .. لقد ودعت أحبة.

الوداع لهم .. إلى أن يشاء القدر أن يجمعنا مرة أخرى.

شتاء ديسمبر
٢٠١٠

نظرت للسماء من النافذة ، فإذا بالحياة تدب فيها بعد ليل طويل استحضر فيه الحكاية الوحيدة التي انتهت قبل أن تبدأ .. حكاية انتهت بي وحدي اصارع ذكرياني عنه .. حكاية عاشتها توليب وحدها و مازال أثرها لليوم.
لكن وحدتي بدونه كانت قاتلة .. بل قاتلة جدا .

لقد مر عامين و لم انسه و لو لحظة .. عامين كاملين و أنا اقنع فيها نفسي أنني لم أحبه و أنه كان تعلق فقط .. عامين و أنا أشتاق إليه و اذوب في غيابه .. عامين و أنا أبكي كلما رأيت شيئا يذكرني به .. حين أرى البحر الذي يشبهه في بروده.. حين أرى دقات الساعة تتحرك بلهفة و هي من كانت تتحرك ببطء ليكون الانتظار اشد و أحلى.. حين أرى قطرات المطر التي كانت بداية لحظة عبثية غيرت حياتي .. حياتي التي دخلها بحماس و غادرها بهدوء لا يشبه حضوره .

رأيته في الانتظار و الأيدي المتشابكة .. رأيته في العيون العاشقة و القلوب السعيدة .. رأيته و أنا افرغني في رسائل لا تصل .

رأيته مرة في اغنية ام كلثوم *"اغدا القاك؟"* مع كلمات محمود درويش :*" اذا سأعيد ترتيب المساء بما يليق بخيبتي"*

فيكون للخذلان طعم اخر .. مرٌ و لاذع .. و أنا ارتشف قهوة الإنتظار كل مساء .

رأيته في الذكريات العابرة البعيدة و هي تمر في قلبي كل ليلة بعد منتصف الليل .
انا رأيته و مازلت أراه في تفاصيل الاشياء الصغيرة ببساطتها و تعقيدها .
انا رأيته في الكل شيئ فأن لنسيان أن يأتي ؟.
فتذكرت الآن الصديق المشترك بيننا و آخر لقاء لي معه، يوم ذهبت للجد جمال بعد ذهاب خالتي و أنا أبكي بدون ان اقول اي شيئا .. فبقي هو يهدئني و يريد أن يعرف ماذا بي , فأخبرته حينها عن حياتي و عن الذي غير حياتي و غادرها.. اخبرته عن كل شيئ مر بي .

فمارس الصمت بمهارة رجل حكيم و اكتفى بنظرة حانية حزينة و لم ينبس بكلمة. حينها لملمت شتات نفسي و روحي و غادرت المكان بقلب اعلم انه لن يعود كما كان.. فأن للورد أن يزدهر بعد أن يذبل ؟

مثلما دخلت المحل بقوة و يأس .. خرجت منه هادئة و حزينة و مليئة بالدموع..مثل الضيف الذي يأتي مرة واحدة لكنها تكفي لتملئ غياب الحاضرين.

ذهبت مرة للبحر الذي شهد حبي و قلة حيلتي , ثم عدت إليه مرة اخرى ليشهد هدوئي و انهياري .. لقد شهد فصول قلبي التي تفتحت اجوائه تارة و ذبلت تارة و اختفت تارة اخرى.

أخبرت البحر أن اسمي لطالما كان مقترن بالجمال و رقي الحب و أسماه صدقا، إلا انه و رغم جماله فهو يحمل قصة حب غير مكتملة و مأساوية ، اسم اقترن بالفقد و الرحيل. فأن للسعادة أن تكون من نصيبه؟

اخبرته أنني المفهومة لنفسي و الغير مفهومة للآخرين .. لطالما لم يفهمني احد او يتفهم حاجتي لأن أُفهم , فمضيت في طريقي آملة أن أجد من يفهمني .. إلا ان الشخص الوحيد الذي فهمني .. خذلني.
فماذا اقول له اكثر من هذا ؟ لا شيئ .
مضيت مع نفسي اللامفهومة و انزويت في ركنٍ بعيد عن كل شيئ لعامين .. في عزلة و وحدة و بعيدة كل البعد عن العلاقات و الأشخاص .

حتى خالتي أصبحنا نتحدث في فترات متباعدة و قل التواصل بيننا بسبب تغير الأوقات و الانشغالات ، انشغالها هي اما أنا فلست افعل أي شيئ سوى التجول او مشاهدة التلفاز و سماع الأغاني القديمة و قراءة الروايات الرومانسية و تخيل أننا الأبطال الذين ستجمعهم نهاية سعيدة يوما.. و حين يشتد بي الشوق اكتب اليه بكلمات مبعثرة كروحي .
لكنني لا طالما فضلت البقاء في المنزل مع ذكرياتي عنه .. أنعيه عله يسمعني و يأتي.

أما جد الزمن الجميل لم اذهب إليه منذ ذلك اليوم ،فقد قطعت علاقتي معه بدون سبب أتمنى أن يسامحني.

الشيئ الوحيد الذي أصبح عادة لدي و قد ساعدني في خلق شعاع امل صغير في أن القاه قدرا و صدفة , هي الخروج في الأيام الممطرة مرتدية وشاحه و حاملة قلبي بين يدي عله يسمع نبضه و يتعرف عليه .. متعمدة المشي في نفس الطرق التي التقيته فيها قبلا .. مليئة بحب لم تحققه الأيام .
و بالأخص في شهر ديسمبر.

اذكر العام الماضي أنني كنت كل يوم في شهر ديسمبر اخرج للمشي تحت المطر بدون مظلة .. أبتل و أعود للمنزل.. تارة امرض و تارة لا .

اليوم هو الأول من شهر ديسمبر .. شهر لقائنا و وداعنا .
اليوم هي ذكرى موتي و حياتي.

ذكرى الفقد و الحضور .
ذكرى وفاة والديَّ و لقائي بقيصر.

نظرت للنافذة و رأيت قطرات رقيقة ترتطم بها ، فإبتسمت بسخرية كم أن الحياة مضحكة لتعيد نفس القدر .. و حتى و أن اعادته، هل ستعيد لحظة لقائي به و تطفئ نيران قلبي ؟
و ككل عادة سأخرج اليوم بأمل مخفي و بقلب مزال مشتاق و لم ينسى.

فنهضت و أنا أرى الهالات السوداء تحيط بعيني.. و ما الغريب في الأمر؟ ، فقد اعتدت على نفسي منذ ذلك اليوم .. فأصبحت قليلة النوم كثيرة التفكير و البكاء و مشتاقة كثيرا.

ثم ذهبت للمرآة و أنا أرى شحوب وجهي و اصفراره , فغسلته و لم احمل عناء وضع مساحيق التجميل .. فمن يهتم بإمرأة روحها غادرتها منذ زمن ؟.. امرأة معطوبة لا تصلح للحب و لا لبداياته المربكة .. امرأة روحها مبعثرة وقلبها فوضوي امرأة جسدها جثة متحركة تأخذ الأوامر فقط لتعيش .. من سيهتم بامرأة زارها الفقد ثلاث مرات؟
انا عن نفسي لا أهتم.. فمن غيري سيهتم ؟ لا أحد.

وضعت وشاحه على عنقي و الذي اختفت منه رائحته , لكن ذكرى ذلك اليوم مازالت حاضرة و بقوة .. وضعته و لففت به رأسي المجعد لكي لا يبتل , و ارتديت معطفي الطويل الذي يشبه لون وشاحه , و معه سروالي الأسود الطويل و حقيبتي التي وضعت فيها مفكرتي التي اصبحت لا تفارقني, ثم حملت مظلتي و خرجت و أنا أُقفل الباب بالمفتاح .

ذهبت لأزور والديَّ ككل مرة .. ذهبت و أخبرتهما عما فعل غيابهما بي مرة أخرى و أن يطمئنا على ابنتهما الوحيدة.
ثم وجدتني أقف أمام متجر جد الزمن الجميل و الذي التقيت فيه ما جعلني اتمنى ان يتوقف الزمن و أنا معه .. المتجر الذي عرفت فيه قصة خذلان من قلب أحب بصدق .

فترددت ككل مرة و أنا اتساءل أأذهب ام ابقى؟ هل ادخل لأفتح جراح قلبي التي لم تندمل؟ ام ابقى هنا وسط الطريق لا أتقدم و لا أعود ؟ هل أذهب لأطمئن على ذلك الجد الذي قاطعته بدون سبب و أنا أعلم أنه لن يغفر لي انقطاعي الطويل؟.
ففي كل مرة أخرج فيها اتوقف هنا و أنا أنظر و انتظر لا أدري ماذا انتظر بالتحديد؟ لكني اكتفي بالمشاهدة و الانتظار و التردد ، ثم و في آخر المطاف اهز رأسي باستسلام و امضي في طريقي منكسة الرأس متألمة القلب , كنت هكذا لمدة عامين انتظر و اتردد فقط.. اتردد في الدخول و انتظره عله يأتي .

بقيت اراقبه من بعيد ككل مرة ،ثم عزمت قراري فجأة و ذهبت ناحيته، فليعاتبني او يغضب مني ، لا أبالي فأنا اشتقت ليد حانية تربت على قلبي.. و لا اخفي أنه هناك آمل صغير في أن التقي به اليوم .

دخلت و لا شيئ كان قد تغير .. المتجر .. رائحة الحنين مع الابتسامة الحنونة، وجدته كما عرفته بنظرته التي تشعرني أنه يرى ما بداخلي بدون أن أتحدث ,فلمحت حزنا في ملامحه و لا أدري اهو بسبب شحوب وجهي؟ ام لأنني انقطعت عنه طويلا؟ فأنا أعلم أنني تغيرت, فوجهي ازداد نحولا و عيني أصبحت بهما ستائر سوداء .. لذا نظرته لخصت لقاءنا, ثم بادر بصوت منخفض :

- كيف حالكِ يا مطر ؟

- الا زلت تتذكر هذا الاسم ؟

- كيف أنسى اسم صديقتي التي تشبه رقة الأمطار .

فأنزلت رأسي بحزن و تأنيب الضمير بدأ يأكل قلبي ، فهو لم ينسني برغم أنني أنا من انقطعت عنه و بقي يتذكرني بنفس الابتسامة و بنفس النظرة الحنونة ، و بنفس الاسم القديم . ثم قلت بهمس حزين :

- ألم تكرهني و تغضب مني ؟

- بل قلقت عليكِ فلا الغضب و لا الكره كان لكِ منهم نصيب ،لقد خفت اذا ما كان حدث لكِ مكروه , فآخر لقاء لنا يبين سبب قلقي فقد كنت منهارة لدرجة أنني تفاجئت .

- لك كل الحق أن تتفاجئ فأنت لم ترني من قبل هكذا , أنا آسفة أنني اقلقتك يا جدي.

- اتعلمين كيف رأيتك ذلك اليوم؟ لقد كنت تشبهين مطر الخريف الذي يهطل بغزارة بعد جفاف طويل .. انت كنتِ مثل شخص كتم مشاعره مدة طويلة و في الأخير جاء الدافع الذي جعلكِ تفرغين داخلك للخارج. لذا أنا أردت الاطمئنان على حالكِ فقط بدون عتاب او غضب . لكن اخبريني يا مطر كيف حالك؟

فإبتسمت له بحزن و شعرت أن قلبي تنفس قليلا لأن حملا خفيفا قد زال عنه ، لكن حملي الثقيل من الذي سيزيله عني؟ فأجبته بصوت متألم :

- نعم أنا بأحسن الأحوال الا ترى؟.

فقال بصوت منخفض و بألم حاول اخفاءه :

- انا أرى مجرد رمادٍ لشخص احترق ألما ، ماذا حل بكِ يا مطر؟ انتِ لم تكوني هكذا؟ ا فراق خالتكِ و والديكِ أثر عليكِ لهذه الدرجة؟.

نظرت له و شعرت بتضارب في مشاعري لكني قلت كلمة واحدة صادقة بقي صداها يتردد داخلي :

- هو .
- قيصر؟!
- نعم هو .
- ا اشتقت اليه؟
- اشتقت إليه حد الذوبان و الموت.
- امازلتِ تحبينه ؟
- نعم و لم يغادرني قط.
- بعد كل هذه المدة الطويلة؟
- دائما.
- ألم تنسيه للحظة؟
-رجل مثله لا يغادر القلب أبدا يا جدي .
سكت قليلا و هو يفكر و صدى كلماتي تدور داخله ثم قال بإبتسامة ليخفف عني :
- اتعلمين أن الحب الحقيقي هو حب نادر جدا و لا يُنسى؟
- نعم اعلم و أعلم أيضا أنني سأتقدم في العمر عاما بعد عام و لن أنسى.. و قد اتزوج يوما ، و في لحظة فاصلة بين الحياتين سأتذكره بنفس الحنين و الشوق و لن أنسى.. قد أنجب و سأتمنى أن يكن بنات و سأربيهم بكل حب الكون ، و حين يكبرن سأحكي لهن عن حب امهم الأول الذي لم يتحقق , و سأعطيهن صفاته فإذا تشابهت الأوصاف مع احدهم سأحذرهن من أن لا يقعن مثل امهم .. قد يكون للبنات بنات و اولاد و سأكون حينها جدة طاعنة في العمر .. سأحكي لأحفادي عن خرافات العالم و عن الخرافة التي كان لي نصيب منها خرافة الرحيل في شهر ديسمبر .. ستمضي بي الحياة يا جدي و ستأخذني في طرق مختلفة .. طرق لا أعلم للآن أين ستؤدي بي؟ لكن الذي أعلمه أنه مهما تشابكت بي الطرق و مهما نبذتني الحياة و قست علي ، ستؤدي بي في الأخير إليه.. إلى ذكرى اللقاء الأول و ارتباك اللحظات العابرة .
لقد تمنيت مرارا أن لا يكون حبا حقيقيا .. أن يكون مليئ بالزيف لدرجة أنني حين اتذكره سأضحك على نفسي و قلبي حين أحببت شخص التقيت به مرات تعد على الأصابع.. لكن الأمر لم يكن بهذه البساطة يا جدي , ففي كل مرة و يوم كنت أجد نفسي متأصلة فيه و إليه .. اجدني اتعمق فيه و انتظره دون ارادة مني أشتاق إليه بنفس القوة و الاندفاع .. كل يوم أجد بداية صباحي تبدأ به ، و نهاية ليلي تكون إليه ..أجد طيفه ينتظرني في نهاية اليوم ليؤنس وحدتي و معه نجوم الليل تكفكف دموعي ، فهو لم يغادرني منذ أن وطئ حضوره قلبي.

تمنيت أن يغادر و انسى لكن حتى النسيان استكثر علي حضوره .. فاذا كان هذا هو الحب النادر اللذين يتحدثون عنه فليأخذوه أنا لا أريده .
تغيرت تعابير وجهه للتحول إلى تعابير حزينة ،ثم قال بهدوء رجل حكيم :
- لقد علمت منذ آخر مرة ان شعورك لا يمكن أن يكون عابرا و قلبك قد أحب و تعلق و لقد أخبرتك قبلا بهذا .. حبكِ كان نادرا مثل وجودك و هو كان بعيدا مثل ذكراك عنه , لذا لا تفعلي بنفسك هكذا و اعطي لنفسك فرصة أخرى و افتحي شبابيك قلبك ، لا تجعلي من حبه عائق يقف أمام حياتك لا تدمريها يا مطر.
- انا لست أفعل بنفسي شيئ سوى أنني استسلم للحياة فلتفعل بي ما تشاء لقد خسرت بما يكفي و لا اريد المحاربة مرة اخرى.
فسكت قليلا ثم ذهب لرف من الرفوف و احضر لي حلواي المفضلة , فناولني اياها و قال بصوته الحنون :
- تفضلي لعلها تنعش روحك قليلا و لا تقلقي فصديقك لن يكرهك رغم أحوالك جميعها ، الممطرة و المشمسة.
ابتسمت بإمتنان و أنا اتناول حلواي المفضلة فأخذ رزمة منها ووضعها في جيب معطفي و تابع :
- خذي و تناوليها في طريقك للمنزل فأنا ليس لدي ما اقدمه لكِ سوى هذه اعتبريها هدية مني .
- شكرا لك يا جدي على كل شيئ .
فإبتسم بحزن و قال:
- صديقك لم يفعل اي شيئ لأجلك يا مطر فأنت تتألمين منذ مدة طويلة , و أنا بقيت عاجزا دون فعل اي شيئ ، فمالي الان الا ان اقدم لكِ الحلوى التي تحبينها.
- هل تعلم أنني لم أشعر بالسعادة منذ مدة ؟ فكرة أنني رأيت صديقي الكبير اسعدتني و هذا في حد ذاته انجاز تستحق الشكر عليه .. فأنا لم يسعدني شيئ منذ مدة طويلة فشكرا لوجودك و لعدم غضبك مني . ثم نظرت لساعتي و تابعت:
- سأتركك يا جدي فأنا لدي مكان آخر أذهب اليه.
فإبتسم بحنان الكون كله و قال :
- انتبهي لنفسك و تذكري ان القدر يستطيع أن يغير تفاصيل الحكاية فلا تيأسي لعل ذلك البعيد يصبح قريب يوما.
فإبتسمت بحزن و قلت :
- لا تقلق فأنا مزال لدي شعاع آمل طفيف في أن أراه حتى ولو من بعيد .
فتذكرت أنني أردت أن اسأله السؤال الذي ارقني لمدة طويلة:

-جدي اريد ان أسألك شيئ هل أتى قيصر الى هنا ؟
فابتسم وقال :
-لقد انتظرت سؤالك منذ أن وطئت قدماك هنا انت متأخرة قليلا ، لكن سأجيبك لقد كان يزورني بإنتظام مرة في الأسبوع .. يأتي نتحدث قليلا ثم يذهب.
فسألته و قلبي ينبض من سماع الإجابة :
- بالرغم من انها مستبعدة تماما لكن هل سأل او تحدث عني؟
- لا هو في الحقيقة لم يتحدث عنكِ , لكن في يوم لا اتذكره تحدث عن مريضة لديه كانت تشبه شفق التي أحبها , و حين رآها قال لي ان جراح الماضي التي حاول أن يداويها قد نزفت مرة أخرى.
فقلت بفضول و دقات قلبي بدأت في التسارع :
- ألم يخبرك من تكون ؟
- لا لم يخبرني , بعدها تعلل بتأخره و ذهب . ثم ابتسم و تابع :
- هل تتذكرين حين أخبرتك بقصة قيصر و شفق ماذا قلت لكِ ؟
- أنني اشبهها؟
اكتفى بإبتسامته الماكرة و أنا بقيت شاردة افكر, هل أنا هي التي كان يتحدث عنها؟ هل هو شعر بنفس الإحساس حين كان معي ؟ هل أشتاق لي و فكر في حياتنا معا ؟ هل أنا هي التي تشبه شفق أم أنها مريضة أخرى ؟. قطع حبل أفكاري صوت جدي الجاد و هو يقول :
- لم أكن سأخبرك .
فتشاءلت بتعجب :
- لماذا؟
- لأنني لا أريدك أن تصعدي درجة ثم تهوين مرة أخرى.
فإبتسمت بسخرية و قلت :
- انا صعدت مرة واحدة و حين كشر قلبي لم أستطع الصعود مرة أخرى, لذا أنا اساسا في الأسفل منذ مدة طويلة لا تقلق.
ثم تابعت بتردد و أنا أفكر:
- جدي أنا لدي شيئ أريد فعله لكنني مترددة منذ مدة و ليس لدي شخص استشيره غيرك.
- ماذا تريدين أن تفعلي ؟
- حسنا انا أريد أن أذهب اليه و اعيد له المفكرة التي أعطاها لي كطريقة للعلاج و في داخلها رسائل كتبتها في غمرة المي و اشتياقي ، و فيها أيضا رسالة اخيرة كتبتها منذ مدة , وأنا أردته أن يقرأها لأنتهي منه.

ففي اخر لقاء بيننا اخبرني أنه يريد قراءة ما كتبت ، لذا كنت دائما اتردد و لمدة عامين في ان اعطيها له .. لا اعلم هل لأنني لا اريد لأمل قلبي أن ينطفئ؟ ام لأنني خائفة من ردة فعله؟ لكن الآن أنا اريد أن أعطيها له و في نفس الوقت مترددة و لا أعلم ماذا أفعل؟.

- هل تريدين اعطاءها له لأنك تشعرين أنه انت من كان يتحدث عنكِ ؟

- لا بل لأنه دين يجب أن اسدده.

فأطرق برأسه يفكر ثم رفعه و هو يقول بصوت جاد :

- من ماذا انت مترددة. ؟

- من مشاعري لا أريده أن يعرف ماذا شعرت وقتها .. لا أريده أن يعرفني و أن يعيش معي لحظات يأسي .. لا أريده أن يرى دموعي و هي تنزل بسببه .. لا أريده أن يقرأني و أن ينبض قلبه بسبب ما سيقرأه .. انا لا اريد .

- اذًا أفهم انكِ تريدين اعطاءها له كإرجاع لدينكِ لكنكِ مترددة و خائفة و لا تريدينه أن يعرف انك تحبينه هكذا؟

- نعم

ابتسم بحنان ثم قال بصوته الدافئ :

- الندم الحقيقي هو حين تريدين فعل شيئ ما لكن عائقك يكون اكبر ، لذا حين يتغلب دافعك على خوفك حينها امضي و لا تترددي .

- حسنا يا جدي سأتبع نصيحتك و الآن علي الذهاب لأنني تأخرت .

- حسنا يا مطر كوني بخير و لا تنقطعي طويلا فصديقك يحتاج للتحدث بين حين و آخر.

فإبتسمت بصدق و قد كانت هذه أول إبتسامة صادقة لي منذ فترة ، ثم قلت بهدوء :

- لا تقلق سآتي مرة أخرى فأنا أيضا احتاج لصديق أتحدث إليه.

ثم خرجت و أنا أفكر في كلامه ، أفكر و أفكر و أفكر حتى كاد رأسي ينفجر ، أفكر و أنا أشعر تارة بالتردد و تارة اخرى بالشجاعة ، فبقيت أؤرجح الكفتين و انتظر في قرارة نفسي اي الكفتين سترتفع و أيهما ستنزل.

بين الأمل مجددا و الخيبة بقيت عالقة .

بين سطوع امل خفيف و بين خوف من حزن آخر بقيت اصارع نفسي طويلا .

فلم أشعر بقدمي إلا و هي تأخذني امام عيادته ، بقيت بعيدة أنتظر و أفكر في نصيحة جدي " حين يتغلب دافعك على خوفك حينها امضي و لا تترددي" .

و كانت كذلك ، حين شعرت بأن دافعي كان أقوى تجرأت و دخلت بدون خوف و بلا تردد و بدون أن ارجو مقابل او مبادلة لما أشعر به .. دخلت و أنا مقيدة بلحظات من الوهم عشتها وحدي ..دخلت و أنا أرى الذكرياتٍ ترتسم داخل مكان شعرت فيه مرة بإرتباك

اللحظة الاولى .. دخلت و أنا أرى ذلك الكرسي الذي انتظرت فيه اول مرة .. تلك اللهفة التي كنت ادخل بها إلى القاعة شوقا و أعود فيها مليئة بذكرى حالمة ترافقني لأيام .. تلك التفاصيل و الذكريات قد اعادتني لما قبل عامين .. إلى يوم رأيته فيه اول مرة و الى ولادة حب لم اتوقع ان ينمو داخل جدران مكان رأيته يوما مليئ بالمجانين.
فاغرورقت عيناي و شعرت كأنني عدت للمكان الذي لاطالما بحثت عنه .
- عذرا سيدتي هل انتِ هنا لمقابلة الطبيب ؟
فالتفتت لها و أنا اطرق برأسي لكي لا ترى احمرار عيني, ثم تمالكت نفسي و قلت بإبتسامة مصطنعة :
- نعم لكن ليس لدي موعد , ايمكنني لقاءه بدون موعد؟ فأنا كنت اتعالج هنا.
فنظرت لي نظرة شك و استغراب و قالت :
- لكن وجهك لا يبدو مألوفا فأنا اعرف معظم مريضاته.
كلمة مريضاته جعلتني أعود و أتذكر يوم قال لي أنني بالنسبة له مجرد مريضة فقط ,فإبتسمت بألم و قلت بصوت منخفض :
- نعم لأن ممرضة اخرى كانت مكانكِ , فأنا أيضا كنت مريضة عنده منذ عامين اسمي توليب عوض هل يمكنني مقابلته ؟
- حاليا هو ليس هنا ،فقد طرأ امر عاجل و لا أعرف متى سيعود , يمكنكِ انتظاره ان شئتي, حتى اسأله إذا كان بإمكانه مقابلتكِ بدون موعد.
- الا يمكنكِ الاتصال به ؟
- وددت لو اتصلت به لأجنبكِ عناء الانتظار, لكنه طلب مني الا ازعجه بأي اتصال كان, لذا أنا آسفة يا سيدتي .
حسنا هذا عذر جيد للهرب و الاختباء و العودة لما كنتُ عليه ، هيا فلنعد ادراجنا و لننسى أنني جئت هنا ،هذه إشارة جيدة للابتعاد.و العيش وحيدة كما كنت أفعل، هيا توليب عودي لحياتك المنعزلة و تجنبي الألم مرة أخرى .

لكن في تلك اللحظة شعرت أن هناك شيئ داخلي تغلب على خوفي و جُبني اخيرا ، فهل يمكن أن تكون الشجاعة؟ تلك التي بحثت عنها طويلا كي اتخلى و اترك و استسلم و لم أجدها؟ ها هي تأتيني و تجبرني على الوقوف و الصمود .. لأول مرة في حياتي تخليت عن الجبن و تحليت بالشجاعة ، و ما بين تناقضات نفسي قلت بدون تردد و بهدوء:
- حسنا سأنتظره هنا الا أن يأتي .
ثم ذهبت إلى نفس الكرسي الذي لاطالما جلست عليه و بقيت انتظر مع دقات الساعة التي كانت تدور ببطئ و بهدوء و أنا ارسم جميع السيناريوهات المحتملة فالبرغم من

يقيني أنني جئت الى هنا بأمل مخفي في أن يبادلني المشاعر أيضا الا أنني أعلم أيضا أنني سئمت من التعلق بحبال الماضي و آن الأوان لأستسلم و اتقبل رفضه و امضي بعيدا ، فطريق الخيبة سيأتيني لا محالة اما الآن أو او بعد .

فتساءلت و أنا أنظر للساعة هل إذا لم اذهب اليوم لجدي و لم يقل لي انه هناك مريضة تشبه حبه الأول هل كنت سآتي ؟ هل اذا لم اخرج و التقي بجدي الم أكن سأستجمع شجاعتي و اترك؟ فأنا الآن أعلم أنني اتيت الى هنا بكامل قواي القلبية و العقلية .. إما أن اتركه و اقطع كل ما له صلة بي .. أو اكون التي تشبه شبح حبه الأول مع بصيص آمل أن أكون معه.

لكن بماذا اشبهها بالضبط؟ شكلها ؟ نظرتها ؟ اسمها ؟ خيانتها و كذبها ؟ ام قلبها؟ فأنا أرى أنني لا اشبهها في شيئ.
شكلي الهش الذي يوحي بالانكسار.. روحي التي زارها الفقد .. .. وجهي و تعابيره الشاحبة..
قلبي الذي صمد على اشباح الماضي و أحب شخص لم يره لعامين قلبي الذي بقي يردد اسما واحدا .. اسمي الذي يحمل زهرة الحب العميق النابع من الألم و التضحية.
يقولون لكل امرئ من اسمه نصيب و أنا نلت نصيبي من اسمي .. فمن انا لكي اعترض؟.

لاطالما كنت امرأة قدرية تؤمن بالقدر و ترتيباته.. لاطالما كنت و مازلت أؤمن و اعرف ان لكل شيئ بداية و نهاية ، فبدايتي كانت في ديسمبر و نهايتي كانت فيه و عنده و في آخره.

لقد توقفت عن عتاب الحياة منذ مدة ، فلم أعد اغضب .. و لم أعد انهار او أحزن او اندب .. انا فقط لم أعد اي شيئ!
أنا صرت اتقبل الأمور بمجرياتها و بحقيقتها و بهدوء أيضا .. أنا تقبلت قدري و حبي و ألمي و حزني , فلم أعد أشعر لا بالغضب و لا بالسخط.. أنا لم أعد ارجو من الحياة شيئا !.
انا التي تُركت فلماذا الغضب ؟ .
انا التي شبهت بزهرة البدايات و النهايات.. زهرة الحب و الألم فلماذا العتب؟
انا التي بدأتُ به منذ عامين و ها أنا هنا لأنتهي منه في نفس يوم لقاؤنا فلماذا الندم؟

يا لسخرية القدر! لقد اعادني الى هنا ليعيد فتح جراحي و تزويد آلامي ، لماذا اعدتني أيها القدر؟ لماذا جعلتني استجمع شجاعتي الا اليوم ؟ لماذا اليوم بالذات ؟ لماذا في ديسمبر؟ لماذا ؟ .

فإنتبهت انها مرت ساعة كاملة و لم اعد وحدي ،فقد وجدت امرأة جميلة و أنيقة تتحدث مع الممرضة و قد كانت هي أيضا تبحث عنه .

فسمعت ما جعلني اتسمر و أنا تحت صدمة كلماتها .. شعرت أن روحي ستغادرتني .. شعرت أن قلبي ينبض و ينبض و على وشك الخروج من مكانه شعرت أنني انفصلت عن الواقع لأعيس مع كلماتها فقط.

فتمالكت نفسي و اقتربت منهما و أنا أجر قدمي جرا لأقول للممرضة بجمود وبصوت منخفض متجاهلة المرأة الاخرى و قلبي كان يكذب ما سمعه :

- هل الطبيب سيأتي ام لا ؟.

فإبتسمت الممرضة و قالت بمرح مصطنع :

- سيأتي لا تقلقي فهو لم يفوت مواعيده قط .

ثم إلتفتت للمرأة الأخرى و قالت لها :

- انا لا اعلم إلى أين ذهب لكن هل تريدينني أن اتصل به و أخبره ان خطيبته هنا؟.

يا للسخرية ! حتى هذه الممرضة عاملتني كمريضة يجب عليها الانتظار و لا يجب أن يتم ازعاجه من طرفها .. في حين أنها ستتصل به من أجل المسماة "خطيبته" عن طيب خاطر .

في الأخير لقد خطب! على الاقل كان أحدنا سعيدا .. على الأقل هو لم يعش على اشباح لحظات مرت مثلي أنا .. على الأقل قيصر وجد سعادته و ليس مثل توليب التي كانت تنتظر و تتمنى .

فعلمت فورًا ما الذي سينتظرني و علمت كفة من قد ارتفعت .

أنا أدركت أنني أقوى مما كنت أتصور، فأنا قمعت رغبتي في البكاء و قمعت معها كافة احساسي المتضاربة لكي أبدو بمظهر " البخير " بعد سماع ما هز قلبي هزا .. أنا أدركت انني يجب أن أكمل ما جئت لأجله لكن بقلب اختفى منه الأمل كليا.

فإبتعدت و ذهبت للحمام و أنا أنظر لصورتي المشوشة في المرآة و احساس الشجاعة الذي كان لدي بدأ في التراجع .. هيا تمالكي نفسكِ يا توليب ! لا تنهاري على الاقل ليس الآن و هنا ! .. يجب أن اعطيه افكاري و قلبي لأنتهي منه للأبد هذا اخر شيئ يربطنا معا و أنا سأقطعه .. نعم سأقطعه الآن !.. فهذا هو الدين الأخير الذي مزال يربطنا معا لذا سأسدده و انتهي منه نهائيا .

أن توثق نفسك في الاوراق يعني أنك ستترك نسخة منك .. تترك اثرك و روحك.. أثر سيبقى في النهاية ليخبر الجميع أنك أحسست و أحببت و انهرت و حزنت . و أنا سأترك نسختي معه عله يتذكرني بين حين و آخر.. عله يشعر بماذا شعرت .

لقد جاء الوقت الذي ستقرأ فيه رسائلي يا قيصر, لكنني لن أكون معك .

ثم تنهدت و خرجت بهدوء و أنا أنظر للمكان , فرأيت أنه لا وجود للممرضة و لا للخطيبة ، الا من بعض الاشخاص الذين بدءوا في الدخول ، فإغتنمت الفرصة و ذهبت أمام باب مكتبه و بقيت اتنصت فلم اسمع اي صوت .. فتحت الباب بهدوء و دخلت و أنا اتنهد لأنني لم أجد احدا , و لأنني أيضا استطعت أن استنشق رائحته التي اشتقت اليها ، فملئت رئتاي بها لأنها ستكون كذكرى أخيرة أحملها في قلبي.

ثم فتحت محفظتي و أخرجت المفكرة و وضعتها فوق مكتبه , و حملت ورقة كانت مرمية و كتبت فيها ما تبادر لقلبي لحظتها، و وضعتها فوقها.

ثم نظرت نظرة حزينة و أخيرة لصديقتي و لمكتبه و خرجت بهدوء , فوجدت الممرضة في وجهي، فتفاجأتُ و قالت هي بإستغراب :

- ما الذي كنتِ تفعلينه داخل مكتب الطبيب؟

فنظرت لها و تمالكت نفسي ثم قلت بنبرة هادئة:

- لقد اختلط علي الأمر و حسبته الحمام فلم انتبه .

فإبتسمت و لحسن الحظ انطلت عليها الكذبة , ثم قالت بحماس :

- ان الطبيب في الطريق دقائق و سيصل .

- لا لا داعي انا ذاهبة لقد تأخرت و سيحل المساء قريبا.

لم أنتظر اجابتها , فخرجت و انا اهرب منها ، لكنني توقفت و بقيت أنظر لخطيبته و التعجرف يعلو ملامح وجهها لقد كانت قوية و أنيقة جدا.

صحيح فهي ليست مثلي في اي شيئ .

خرجت و أنا اضع حلواي المفضلة في فمي علها تنعش روحي بعد مرارة ما فعلتُ , ثم رأيته آتي من بعيد و توقف كل شي .. رأيته بكامل اناقته و جاذبيته .. رايته بعد غياب عامين .. رأيته بنفس الغموض و الثقة .

رأيته و ادركت أنه و خطيبته يكملان بعضهما .. أما أنا ؟ لا أصلح لأن أكون معه لا في الواقع و لا في الأحلام .

لقد رأيتك أخيرا يا قيصر و لم يعد لألمي أي معنى.

تداركت نفسي بسرعة و ذهبت للطريق الآخر اختبئ وراء الجدار , و أنا أشعر أن نبضات قلبي تناديه. بعد كل هذه المدة لماذا مازلت تنبض له لماذا ؟

فتملكني الفضول لأراه عن قرب و أنا اتمنى ان يكون ما زال في الردهة فلا بأس أن أراه لآخر مرة ! فذهبت و رأيت ما جعل قلبي ينهار و يتفتت .. رأيت ما جعل روحي تئن و تهوي .. فذلك الحضن الذي كان المفترض ان يكون لي بات لها.

هي الان تعانقه مغمضة العينين و قريرة القلب , و هو كان يعانقها بابتسامة هادئة , وما زاد من ألمي سوى رؤية الجميع يضحكون بخجل .. و انا ؟
أنا الوحيدة التي كان قلبها يتفتت و تبكي بقلة حيلة.
فلم أشعر سوى بسقوط حلواي على الأرض كسقوط قلبي و انا أراهم متعانقين .. لم اشعر سوى بدموعي و هي تبلل خدي و روحي

ماذا توقعتِ اذا أن يحبكِ انتِ؟ أنه لم يجد سعادته و ينتظركِ ؟ ماذا يعرف عنكِ اصلا ؟ ليس عدلا ! ليس عدلا أن أشتاق و ابكي و في الأخير تأخذه هي ؟ ليس عدلا أن أحلم و اتمنى و هي تحقق ؟ ليس عدلا أن ديسمبر فرقنا وهما جمعهما ؟
لكن منذ متى كانت الحياة عادلة ؟ لقد اخذت كل عزيز على قلبي فأين العدل في الحكاية ؟ أنني بقيت وحدي بدون امل .. بدون قلب .. بدون روح.. بدون لا شيئ .

لم أكن اعتقد ان رؤيتي للشخص الذي أحبه في حضن غيري أن يجعلني أشعر في الاخير انني لا احد .. انني مجرد نكرة لن يتذكرها احد.. ان الاختباء و الانزواء في الاخير كان الحل الأمثل .. لم أكن أعتقد ان لي دموعا الا حين رأيتهما.

فشعرت بقطرات رقيقة تطبطب على روحي و بدون ان اقاومها او اتحرك بقيت متسمرة فقط انظر اليهما مع دموعي و المي ، فأنا لم أعد اقاوم أي شيئ .. أنا استسلمت.

ثم حملت خيبتي و هزيمتي في قلبي المنكسر و ذهبت بهدوء و بصمت بدون أن يشعر بي أحد كعادتي.
ذهبت و أنا محملة بالخيبات و في يدي خيط الأمل الذي قطعته قصرا ، ما الذي توقعته يا توليب؟ هو ليس مثلك ، سعادته ليست معكِ بل مع غيركِ .
هو لم يجعل من ذكراكِ صورة خالدة تلاحقه يوما بعد يوم دون كلل .
هو لم يكتب لك رسائل يناجيك فيها لتأتي.
هو لم يتمنى في كل ليلة أن يراكِ و لو حلما يزوره لثانية .
هو لم يبكي و يتألم لأنه اشتاقكِ و عينيكِ.
هو لم يذهب للبحر و اشتكى له و انهار أمامه بكل أسى .
هو لم يجعل من ديسمبر شهرا مقدسا لأنه كان البداية لقصة كانت احادية الطرف.
هو لم يحب المطر لأنه يذكره باللقاء الأول .
هو لم يحب و يكره القدر في نفس الوقت لأنه جمعكِ به و ابعدكِ عنه .
هو لم يتألم لألمكِ و لم يحبِ الطفلة التي مازالت بداخلكِ.
هو لم يركِ كإمرأة بل كمريضة جاءت لتشفي روحها.

هو يا توليب قد وجد السعادة و الحب و الجمال مع امرأة أخرى.
كل هذه المدة اتوقعتِ أنه هو أيضا احبكِ و بحث عنك في تفاصيل الأشياء ؟ اتوقعتِ أن النسيان لم يزره مثلك؟ اتوقعتِ أن لياليه و ذكراه ستكونِ انتِ؟ اتوقعتِ كل هذا و لم تتوقعي أن شخص مثله قد يقع في حب غيركِ ؟ شخص مثله قد وجد فيها ما لم يجده فيكِ ؟ ألم تتوقعي أنه سيبحث عن من تملئ فراغ قلبه و تتغلب على آلامه؟ .
اتوقعتي كل هذا و لم تتوقعي أن يزوره الحب ذات يوم او ذات ليلة ، تحت المطر او في الطريق؟ .
ألم تتوقعي انكِ لم و لن تكوني الامرأة التي يبحث عنها ليعيش معها ما كنتِ انتِ تحلمين به ؟
كم كانت توليب حمقاء لتتمسك بأمل زائف لمدة عامين ، كما كانت غبية و يائسة لتمارس التضحية و الإخلاص مع القدر ، كم كنتِ مثيرة للشفقة يا توليب حتى آمنتي بديسمبر و بالحب و أساليبه.. لذا تحملي خسارتكِ وحدكِ و لا حق لكِ بالبكاء او الشكوى .

وجدت نفسي أنني وصلت للمكان الذي أستطيع آن أكون فيه أنا ، المكان الذي شهد اولا لهفتي، و شهد ثانيها انهياري ،ثم كان ختامها انكساري.

مرحبا أيها البحر لقد أتيتك مرة أخرى إشتقت لي ؟ا اشتقت لتوليب البعيدة ؟
ا انت ايضا كنت تراني مجرد إمرأة مثيرة للشفقة ؟ امرأة لا تصلح لتكون مع قيصر؟

اترى ماذا فعل بي الحب أيها البحر؟ اترى ماذا فعل بي ديسمبر ؟ ديسمبر الذي لاطالما ملئني بالفقد و الرحيل .. ديسمبر الذي تحققت فيه خرافتي الخاصة.

اتعلم ما الذي اشعر به أيها البحر ؟ في الحقيقة انا لا أشعر بشيئ ، ألا ترى أن روحي تبكي بصمت ، تبكي خشية ان تزعجني ببكاءها ، ألا ترى أن دموعي قد جفت و ها هو السحاب يبكي عوضا عني .

انا كنت امرأة معطوبة ايها البحر ، امرأة غير صالحة للحب و الأمل، امرأة تملئ روحها الفوضى من الذي سيتحمل ترتيبها ؟
أنا كنت امرأة مليئة بالتفاصيل و بالبدايات.. امرأة قدرية و ديسمبرية للحد الذي ظننت فيه أن كل شيئ كان حلم دائم سأعيشه .. لقد أحببته أيها البحر و تمسكت بالوهم عله يصبح حقيقة يوما .

لكن ذلك الوهم قتلني و دمرني .. ذلك الوهم رماني جانبا و صفعني لأستفيق من غفلتي بطريقة قاسية .. بل قاسية جدا .

لقد كنت طوال العامين ارمم ما أستطعت ترميمه و أصلح كل عطب فيَّ ، لقد كنت امسك يدي بيدي و ابتسم رغم ما بداخلي ، لقد حاولت أن أعود لما قبل اللقاء ، لما قبل الحب ، لما قبل ديسمبر، أردت العودة و المضي .
لقد حاولت أيها البحر لكن اليوم تم تكسيري و بعثرتي إلى قطع و للمرة الثانية .
كيف سأرممني الأن مرة اخرى و اعيد القطع لمكانها ، كيف سأقنعني بالمضي ؟ كيف؟.

لقد كتبت و كنت افرغ شوقي و ألمي و انتظاري و اقول ما لم أستطع قوله اليه، كنت اشكو إلى مفكرتي و كأنه سيسمعني و يقرأني ، لقد كتبت له رسائل لم اعتقد يوما أنه سيقرأها، رسائل كانت ضائعة لمدة طويلة لكنها وجدته أخيرا و ذهبت إليه لتشكوه مني .. من ضياعي و تشتتي.. من انتظاري الطويل و يأسي الدائم.
ثم مرت في ذاكرتي سطور اغنية فيروز " ما قدرت نسيت " لتذكرني بما عشته :

"جرب فيهن انا انساك و مقدرت نسيت"
"و اكتبلك على ورقة حتى ما اقول ما بقدر اقول"
"يا ريتك مش رايح يا ريت تبقى على طول"

فأنا أيضا لم أنسى يا فيروز .. انا أيضا لم أستطع ارتداء وشاح النسيان ، و سكبت كاملي في أوراق خلت انها لن تجد طريقها ، لكنها في الأخير و بالرغم من توهانها وجدته.. لقد كتبته في أوراقي حين لم أستطع الذهاب اليه .
فأي حب هذا الذي يجعلني اخاطب شخصا غائبا بكلمات لم أستطع قولها حين كان حاضرا؟.

لقد ترجيته بعيني أن يبقى يا فيروز .. أن يأتي و لو كذبا.. أن يزورني حلما او وهما او حقيقة لقد رجوته و الخالق أن يحبني بالرغم من عطبي و هشاشتي.. أن يخبرني بصوته الذي اشتقته أنه معي .. يطمئنني بكلماته و يعانقني بعينه .
لقد تمنيته و رجوته و حلمت به .. لكنه في الأخير وضع يديه على قلبه و تظاهر بالصمم ثم ابتعد و ذهب اليها.

اتعرف أيها البحر شعور ان تُحب ثم تُخذل ثم تتمسك بطيف خفي فإذا بذلك الطيف يصفعك و يخبرك أنه غير موجود لتعاود تجربة الخذلان مرة أخرى لكن بطريقة أقسى.

لقد كانت التجربة قاسية أيها البحر .. كانت مؤلمة و شديدة الوقع على قلبي اكنت ستستحمل لو كنت مكاني ؟ اكنت ستتخطى و تعود كما كنت ؟.

لكني تحملت و تحملت .. وقفت ثم سقطت و بعدها وقفت و الآن سقطت .. ثم ماذا ؟
ثم انطفئت و انطفئ معها وهج روحي , فلم أعد أشعر بأي شيئ .
لقد أصبحتُ رمادا اذا .. امرأة بُتر منها ما تحب عنوة و قَصرا .. امرأة خسرت روحها و قلبها ، امرأة أصبحت بلا روح ، أليست جثة اذا ؟.

أيها البحر هل ستبقى معي انت على الاقل ؟
لقد تُركت و وُسمت بالفقد و انكسرت ، اتخال مرأة مثلي ستمضي؟ من سيتقبلني اذا ؟ من سيتقبل بجثة بلا روح و لا قلب ؟ .

لقد علمت فور نظرتي الأولى لعينيه .. فور ابتسامتي اللاارادية و لهفتي عليه ، انه ليس شخص عاديا .. و أن ثمنه سيكون غاليا ، بل غاليا جدا.. لقد علمت فور انغماسي فيه و إليه أن ضريبة رؤيته ستعود علي اما بالمنفعة و هذا كان احتمالا ضئيلا او بالخسارة و هذا كان الأكثر ترجيحا.
لأن احساسي منذ المرة الأولى انبئني أن اثره سيبقى و لا يزول .. فيا ليتني لم أغرق فيه.. يا ليتني انتشلت نفسي منه مثله هو .

أنظر الا تتذكر هذا الطقس ايها البحر ؟
الا تتذكر ؟ اعلان الحب و الانهيار و الآن اعلان الخيبة .
الا تتذكر رقصي و بكائي و الآن خذلاني .
الا ترى أن القدر ما زال يريدني أن أعيش ما عشته لكن بطرق مختلفة؟ .
الا ترى أنني تعبت فلم أعد أستطيع المضي ولا الوقوف مجددا؟ .

انا سأذهب الآن ربما سأعود او ربما لا فكن بخير و شكرا لأنك كنت على الاقل موجودا بثوران امواجك ووقار حضورك .
لقد كنت الوحيد الذي شهد لهفة البداية و خيبة النهاية.

ثم ودعته و ذهبت و جلست على الكرسي و بقيت أتأمل تمرده بهدوء و بدون احساس ، أتأمل و لا أشعر بقلبي او بما يحيط من حولي ، اتأمل و أنا ابتسم بسخرية للقدر و لكل الذين تركوني و عانيت الفقد منهم .

فأنا سأنسى و امضي ، الأن او بعد شهر أو بعد عامين آخرين او حتى بعد خمسون عاما .
سأنسى و لو ارغمت نفسي على أن اغير المدينة و ارحل بعيدا .
سأنساه و انسى حكايتي و ادفنها عميقا لتصبح ذكرى متربة منسية لا استرجعها الا في شهر و يوم لقاءنا .
أنا سأنسى أنني أحببته.

سأنسى أنني أحببت رجلاً جاء به القدر بدون مقدمات .
سأنسى عن تحقق خرافة شهر الرحيل ديسمبر.
سأنسى.

***

دخل بعد يوم متعب بكامل أناقته و هدوءه المعهود فوجد مذكرة مألوفة جعلت قلبه ينبض بقوة و فوقها عبارة مكتوبة بخط اليد , فحملها و بدأ يقرأ ببطئ و بصوت منخفض:

" ان ديسمبر قد جمعنا مرتين و فرقنا مرة ، فهاهي خرافة الرحيل قد تحققت في حين انها كانت يجب أن تبقى خرافة .. .اسمح لك أن تقرئني لأنتهي منك."

حملها و بقي يتأمل كلماتها لقرابة دقيقة و هو يفكر بعمق في تناقضات العبارة , و قد عرف قلبه من كتبها فورا ، فخرج و نادى على الممرضة بصوته العميق ليتأكد .

- هل هناك أحد دخل مكتبي غيركِ ؟

- لا أنا لم أرى احد يدخل هنا .

بقي يفكر قليلا ثم قال بهدوء :

- حسنا يمكنِك العودة لعملكِ .

فذهبت و قبل أن يغلق الباب عادت مسرعة و هي تقول:

- لقد تذكرت لقد جاءت اليوم امرأة و لم يكن عندها موعد فبقيت تنتظرك قرابة ساعة،لقد سألتني عنك فأخبرتها أنك في الخارج و ستعود , فانشغلت بالحديث مع الآنسة خطيبتك ،ثم بعد أن تحدثت معك عدت لأخبرها انك ستكون هنا بعد دقائق فوجدتها اختفت ، و حين ذهبت لمكتبك لأضع الأوراق وجدت انها قد خرجت منه , فأخبرتني انها اخطأت بينه و بين الحمام ثم ذهبت سريعا .

اذا هي! لقد عادت بعد كل هذه المدة , بعد أن بحثت عنها طويلا ها هي قد جاءتني اخيرا بقدميها و بجمالها و لم تجدني .. ثم ماذا خطيبتي!؟ تلك الحمقاء لماذا اختارت هذا اليوم بالذات لتأتي فيه , و لماذا اخترت أنا هذا اليوم لأخرج فيه!.

فأراد التأكد مرة أخيرة فلا ضير من سماع اسمها مرة أخرى:

- هل أخبرتكِ عن اسمها ؟

- نعم اسمها أعجبني لذا ما زلت اتذكره اسمها على ما اظن توليب . ثم تابعت بتوتر :

- هل كل شيئ على ما يرام هل فعلت شيئ سيئ ؟

- لا لم تفعل بل فعلت شيئ تمنيته طويلا .

- نعم ! ماذا قلت ؟

- لا شيئ عودي لعملكِ .

فدخل و طيف إبتسامة شقت طريقها لملامحه و هو يتمتم إسمها بهمس ،فجلس على مكتبه و هو يرتشف من قهوته بهدوء , ثم حمل المفكرة و فتحها و هو يتمتم بهمس:

و أخيرا لقد طال انتظاري و سأقرئكِ يا توليب.

البداية

بتاريخ ٢٠٠٨/١٢/١٥

" أنتِ تشبهين زهرة البدايات الأولى و مطر اللقاء الأول بالأرض .. مذهلة أنتِ حد التعب" .

هكذا كانت هذه العبارة تعبث بقلبي و روحي لأيام , فقررت ان تكون هذه اولى كلماتي و اول ما اكتبه في مفكرتي.

فتذكرت مقطع من اغنية عبد الحليم حافظ "اول مرة تحب يا قلبي" و هي تصف ما أشعر به الان :

"قلبي يعدلي كل كلامك كلمة بكلمة يعدها علي" .

لقد أهداني وشاحه الذي فيه رائحته أيتها المقكرة .. هديته الثانية و التي شأحافظ عليها داخل أعماق قلبي المليئ بالسعادة.

أنا متوترة قليلا لأن هذه أول كلمات اكتبها ، و التي قررتُ أن تكون عنه و ديسمبر فأنا لن أتحدث عن شيئ آخر سواهما.

مرحبا يا مفكرتي انا توليب صديقتك الجديدة و التي اريد أن احكي لها عن حياتي من اليوم .

اتعلمين يا مفكرتي؟ أنني أشعر بشيئ لم أشعر به من قبل ؟. أشعر بتفتح الورود في شهر ديسمبر و أشعر بنسمات البحر و هدوءه الدافئ .. نحن في شهر ديسمبر و أشعر أنني في بدايات فصل الربيع .. ما بالي و ما بال قلبي قد قلب موازين الحياة و كأنه الآمر و الناهي .

أنا أشعر انني واقعة تحت سطوة قيصر و ديسمبر يا مفكرتي .

لاطالما أعجبني اسمه بالمناسبة .. اسم نادر و مميز لا يليق بأحد غيره قط.

بالمناسبة هو الذي اهداكِ لي .

اتعلمين أن أول لمسة يد كانت منه ؟ كانت لمسة شعرت فيها بكل الأشياء الجميلة و التفاصيل المحببة ، كانت لمسة جعلتني انفصل عن الواقع و اغوص في عينيه الباردة.. لمسة قلبت كل الموازين في قلبي .

لكنها قد تكون لمسة طبيب لمريضته و التي تكون نابعة من قلق ظاهر .

لكن من يقنع قلبي بهذا؟

لقد رأيته يضحك و شعرت كأن الصباح قد آتى فجأة في غسق الليل ، لقد سمعت همسه الذي كان كلحن مألوف جميل تريد أن تتذكره لكنك تكتفي بذلك المقطع الذي يجعلك تعيش داخل حلم .

اتعلمين يا مذكرتي انني قد مررت بأمر مؤلم جدا في ديسمبر و في يوم لقاءنا و للآن لم أستطع ان أتخطاه و اتقبله ، لكني لن أتحدث عنه على الاقل ليس الآن بل أريد الحديث عنه و لقاءنا.
لقاءنا الذي كان كصدفة جميلة مقدرة عبثت بموازين الحياة و روحي .. ديسمبر الذي بدأت أحبه لأنه شهر جمعنا و فيه شعرت أنني اتنفس بحرية.
اتعلمين أنني أصبحت أحب المطر ايضا ؟ لقد أحببت المطر به و أحببت ديسمبر معه .. و ما بينهما شعرت بما لم اشعر به من قبل.
و الان سأذهب يا مفكرتي لقد عرفتكِ بنفسي.
لذا إلى اللقاء في وقت آخر.

مفكرتي..
لقد تغيرت اتدرين؟ أنا لم أكن هكذا .. لقد أصبحت ادندن و اغني الاغاني بوله و شوق.. لقد أصبحت ابتسم بلا وعي و أنا اتذكره و كلماته و صوته .
اتعلمين أن صوته ادمان ؟ لقد ادمنته و لو كنت استطيع لجعلته نغمة استيقظ بها كل صباح ليغدو صباحي مشرقا كحضوره في قلبي .. لو كنت أستطيع لجعلته تهويدة ليلية انام عليها حين يشتد بي الخوف .
لقد أصبحت أرى النجوم و أنا اتمنى ان أجده منهم .. لقد أصبحت متخمة به و لا اريد من العالم سواه.
أهذا هو الحب ؟ هل أنا أُحب ؟ أهذا حب ام تعلق و اعجاب لحظي؟.
انا لا اعلم لأنه لم ينبض قلبي و لو لرجل منذ اول لقاء , فالوقت كفيل بتبيان الأمر.
أنا اشعر يا مفكرتي انني اريد الكتابة اليه .. ان اخاطبه في وحدتي و عزلتي .. ان يكون معي رغم بعده .. أشعر انني اريد تقليص الهوة بيننا ليسمعني بهدوء و بدون جدال.
سأذهب الآن , و في المرة القادمة سأبدأ بالكتابة اليه لذا اكتفي بالقراءة فقط و لا تطلقي اي احكام .

الرسالة الأولى
بتاريخ ١٦/١٢/٢٠٠٨

إليك..
يا من التقيتك في شهر اللهفة و البداية الأولى.
أتدري ؟ انا اشعر انني غارقة في تفاصيلك .
لا أدري كيف و متى و لماذا ؟ لكنني لم أفق الا و أنا غارقة فيك .. و انا يا رجل أهوى الغرق و لا أحب النجاة.. .انا لا أريد أن أفيق و استيقظ .. اريد البقاء في حلمي معك .
لقد اشتقت اليك حد تبخر الأحلام و الأيام .. لقد اشتقتك و لا أريد من الدنيا سواك .. اشتقتك و أنا التي لم تلتفت لرجل قط و لم تستهويها نظرات الرجال .
فأنا لاطالما كرهت نظرتهم لي و غزلهم عني , لاطالما قابلتهم عيناي بلامبالاة و نبذهم قلبي باشمئزاز .
لكن أنت؟ صدقني أنني أريد أن أسمعك تتحدث اليوم بطوله و لا أمل .. أن تنظر لي كأنني الموجودة الوحيدة في الكون.. فأنت الوحيد الذي لم ينبذه قلبي بل الفه منذ أول لقاء .
فهلا نظرت لي و تحدثت معي أكثر يا قيصر ؟
.انت تسعدني بمجرد وجودك في حياتي
. انت حلمي .. حلمي الجميل الذي لا أريد أن استيقظ منه
انا أريدك فهل هذا يجوز؟

الرسالة الثانية
بتاريخ ٢٠٠٨/١٢/١٧

إليك..
اتعلم أين أنا يا قيصر؟ أنا أمام البحر و أمواجه اراقبه بهدوء و اشبهه بك .. بتمردك و بهدوئك .
لقد شعرت اليوم أنك تراني كامرأة تريد الفضفضة .. تراني كامرأة تحتاج لعلاج.. بينما أنا لا احتاج لشيء الاك .
أنا احتاجك انت يا خرافتي .
اتعلم لقد أطلقت عليك اسما و سأناديك به بيني و بين قلبي لأنك تشبه الخرافات التي كانت تحكيها لي جدتي.
انت خرافة بعيدة تحمل معنى جميلا و راقيا.
انت تشبه ديسمبر ، تشبهه لحد كبير ، برقيه و حزنه و اناقته .
انت و ديسمبر تشكلان مزيجا نادرا لشيئ خياليا لا يكون الا في الأحلام.
اتعلم أنه منذ أن ذهبت لمكتبك و رأيتك للمرة الثانية قد قلت كوابيسي؟ لم أعد أرى في أحلامي سواك .
لا أدري اذا كنت تتذكر لكننا التقينا قبلا.. قبل اسبوع و بالتحديد يوم وفاة والديَّ ،و منذ ذلك الحين تركت في قلبي اثرا حلوا كصدفة لقاءنا.. حتى انني سميتك بطلي الغامض.. اسم طفولي اليس كذلك! ؟
اليوم شعرت يا قيصر أنني لم احلق كما كنت اظن .. بل وقعت بقوة ، انا أشعر بشعور الحب لكن بنكهة مختلفة ،اشعر ان معه حزن دفين .. أن هذه السعادة ليست دائمة بل زائلة و زائفة , فكل الأشياء التي تسعدني تركتني.. نبذتني و رمتني جانبا .. لكن على الاقل لست وحدي فخالتي معي و لم تفارقني للحظة .
بالمناسبة سيأتي يوم و تراها , فهي جميلة و رقيقة و حنونة جدا تذكرني بأمي رحمها الله.
بالرغم من ترقبي للحزن و مفاجآت القدر المفجعة الا أنني سعيدة ان اول شخص احببته كان انت .
مهلا ! حب؟ هل قلت الحب ؟ أنا الآن لا أدري اذا كان حب؟ أو اعجاب ام تعلق شخص يغرق بأي شيئ؟ لا أدري فهذا الاحساس أنا اختبره لأول مرة و ليست لي خلفية عنه, لذا سأكتفي بهذا الإحساس المبهم حتى افسره. حتى ذلك الحين ، و حين اتأكد. سأبقى على ذكراك .

لأنني أشعر أحيانا انك لست حقيقة بل حلم أريد الغوص فيه و لا استيقظ أبدا.
انت خرافتي و استثنائي .
انت قيصر.

الرسالة الثالثة

بنفس التاريخ قبل منتصف الليل

اليك..

لقد استيقظت الآن يا قيصر و أنا أشعر بشعور غريب اِثر كابوس حلمت به و قد أتيت هربا اليك الا تمانع ؟.

تذكرت حيلة كانت تستخدمها معي والدتي حين كنت صغيرة و لا أستطيع النوم و هي عد النجوم في السماء , و قد كانت تنجح معي في كل مرة .

سأبدأ بالعد الآن , واحد .. اثنان .. ثلاثة .. أربعة.. عينيك خمس.. ستة سبع .. ابتسامتك.. ثمانية .. تسع .. عشرة .. انت !.

انت نجمتي الوحيدة التي تضيئ سماء ليلي لذا سأكتفي بهذا القدر و أذهب لأنام لأنني بدأت أشعر بالنعاس ، كم هو لطيف وجود شخص ينصت لك .

تصبح على خير يا قيصر .

الرسالة الرابعة
بتاريخ ٢٠٠٨/١٢/١٨

اليك..
انا لا اعلم كيف ابدأ او ماذا اقول ،فالصدمة قد الجمت لساني, فبماذا شأبدأ بالتحديد؟
هل أخبرك أنني متألمة لما عِشْته ام متألمة لأنه لم يكن انا ؟أم لأن خالتي ستتركني؟
اتعلم أن الجد جمال قد حكى لي لغزك ، لغزك الذي كنت اتمنى ان أحله و حللته و يا ليتني لم أحله او لم أسعى اليه.
يا ليتني بقيت متدثرة بنعيم الجهل بدل جحيم الوعي يا قصير.
انا أشعر بالغيرة و الغضب و الألم اللذين اجتمعوا في قلبي و بدأو شجارا مازال مستمر للآن ، انا أشعر بالغيرة منها لأنك احببتها بصدق و برغم كل شيئ بقي أثرها داخلك .
أشعر بالغضب منها لأنها آلمتك و جرحتك و سخرت منك, فتمنيت بصمت ان اشد شعرها و اذيقها ضعف ما شعرت به.
أنا أشعر بالألم نيابة عنك ، لأنني لم أكن الأولى و لن أكون الأخيرة أعلم .
شعرت و بالألم لأجلك فلماذا لا أكون هي يا قيصر؟
لقد شعرت بسكين غُرس في قلبي و لا ادري من ماذا بالضبط .. كنت أود البكاء عندك و اليك .. أردت كلماتك .. صوتك .. لمسة يدك .. أردت ان اهرب منك اليك .. برغم الألم الذي شعرت به و لا زلت أشعر به و أنا اتخيلك في ذلك الموقف أردتك و مازلت.
و مع كل شعور شعرته ، و مع كل الم عشته ، علمت أنني أغرق.
امر مثير للسخرية أنني هربت من الواقع إلى حلم بعيد.. حلم فيه من الخيالات ما يجعلني أريد أن أمكث فيه امد الدهر .. حلم تمنيت من كل قلبي أن يكون حقيقة.
أنا الآن اشعر بكافة أحاسيس الكون كلها متمركزة في الجهة اليسرى مني ، أشعر أنني أريدك أكثر من أي وقت مضى، أريدك معي ، أريدك بكل ثانية تمر و بكل نفس أخذه.. أريدك و أريد رؤية عينيك فماذا أفعل ؟.
اخبرني يا قيصر ماذا أفعل لأطفئني ناحيتك؟
لا طالما كنت تلك الجبانة التي تهرب من واقعها .. لاطالما وُضعت في مواقف اخترت فيها الجبن على الشجاعة ، السكوت بدل الدفاع .. لقد كنت و مازلت تلك الجبانة التي تهرب .. و الآن أنا أيضا سأهرب ، سأترك كل ما له علاقة بك على آمل أن انتزعني منك .. فأنا لا زال لدي أمل أن ما انا فيه احتياج و اعجاب و ليس حب .
و هذا قاسي بل قاسي جدا لذا لا بد لي من فعله الآن قبل أن اهوي اكثر فأكثر.

انت لن تشعر بأي شيئ يبدر مني .. لن تشعر بتغيري و بتناقضاتي , فأنا ممثلة بارعة .. بل جدا! لأنني لا اكشف عن نفسي بسهولة .. لذا كل ما علي فعله أن امثل هذا ما يجب علي فعله !.

لكن اجدني في النهاية اتنهد بيأس لأنني أعلم أنه ما بين اللحظات الفاصلة و ما بين النظرات الخاطفة سيظهر ألمي و اشتياقي.

اتعلم ايضا أن خالتي ستتركني؟ ستذهب حيث ينبض قلبها و أنا لا الومها فمكانها بجانب من تحب ، بجانبه هو فقط .. فأخبرتها أن تذهب لأنني سأكون بخير من دونها.

لكني لست كذلك ، انا متعبة و يائسة ، متعبة من كل هذا التمثيل الذي أرهق روحي ، و يائسة من الركض وراء الأشياء التي ليست لي ، أريد أن ارتاح بكلماتك و أن تكون لي.

فما تمنيت شيئ الا أن أعيش معك ما فاتني و فاتك.. أن اعوضك عن حب فاشل و تعوضني عن فقد أليم، فأنت تكملني بكلماتك بينما أنا اكملك بعبثيتي.

الا نكون معاً؟

الست متناقضة يا قيصر؟ روحي تريدك و قلبي يريدك و جسدي يريدك إلا منطقي يخبرني أن أحمل تناقضاتي و أذهب بعيدا.

لقد عوضتني بدون أن تفعل اي شيئ ، مجرد فكرة انك موجود جعلتني أعود للحياة مجددا و أؤمن بالحب حين كنت ملحدة به .. لقد جعلتني اقدس لحظات الحب و رقيها و معها شهر اللقاء الأول .

لقد قدستك و الحب و اللقاء بعد طول الحاد الا ترفق بقلبي و تأتي ناحيتي و لو سهوا؟

لاطالما كنت متدثرة بالوحدة .. وحدة جعلتني ابقى في ركن واحد, مخفية و مقصية عن الجميع، حتى أتيت أنت و كنت جميعهم .. أتيت و جعلتني أريد أن أكون مخفية و مقصية و في ركن واحد لكن معك و بحضورك.

قبل أن اتيك و اكتب اليك كنت اراقب النجوم و اتخيلك معي نرقص و نضحك و في الأخير حين اتعب اضع رأسي على كتفك و نراقب النجوم معا.. في شهر لقاءنا .. في ديسمبر .. فتضيئ السماء بشهاب سريع و أتمنى أنا حينها مغمضة العينين و من كل قلبي أن تبقى هنا و تنظر لي .. تبقى هنا معي نعيش ما فاتنا و نعيش ما سيأتي .. نعيش اللحظات كاملة بدون زيف ولا خداع.

لكن حين فتحت عينيَّ لم أجد سوى بقايا احلام مبعثرة تواسي روحي الثكلى .

في الأخير وجدت انك اختفيت يا قيصر كسراب انار قلبي للحظة ثم اختفى كأنه لم يكن.

مثل ذلك الشهاب !.

فقد علمت أنك لن تتحقق .. بالرغم من روعتك ستبقى بعيدا عن التحقق متدثرا برداء الوهم الذي بقيت الاحقه و أتمناه .

انت الرجل الذي جاء أخيرا و حقق خرافة الرحيل في شهر ديسمبر.
فكيف تأتي ناحيتي و أنت مثلهم يا قيصر؟ .

رسالة الخامسة

بتاريخ ١٩/١٢/٢٠٠٨

اليك..

لقد التقينا اليوم فلماذا تألمت حين رأيتك ؟

لقد تشابكت طرقنا و رأيتك بكامل جذابيتك و اناقتك التي لاطالما رافقت حضورك ، فلماذا حضورك يؤلمني و غيابك يؤلمني أكثر يا قيصر؟

لقد رأيتك و شعرت بتناقضات تعصف بروحي ، شعرت بنبضة القلب الاولى و شوقها .. شعرت بالألم و الحزن من برودة عينيك و رسميتك في الحديث .

أعلم أنني كنت مع خالي و خالتي لذا وجب أن تكون رسميا معي ، لكن لماذا قلبي دائما لا يصدق و يلتمس لك السبعين عذرا؟ ، لماذا يلتمس لك و لا يلتمس لي ؟ لماذا اخبرني! .

لماذا أنا الوحيدة التي تعاني ؟ الأنني قررت أن اتقبل واقعي بدون ندم ؟ ام ان ديسمبر قد وسمني بالألم ؟

لقد بقيت أنظر اليك نظرة نجاة و شوق .. نظرة لخصت شعوري الحقيقي تجاهك لحظة كنت بها أنا دون زيف او تمثيل .. كنت انظر اليك يا قيصر بقلبي فلماذا تجاهلتني و تجاهلَتني عيناك؟.

اتعلم بماذا شعرت؟ لقد شعرت بهامشية حضوري و أن غيابي مرغوب .. غياب اعلم انك تتمناه و حضور لا يسمن و لا يغني.

اتعلم أنك احييتني ثم قتلتني ؟.. احياني حضورك و قتلتني لامبالاتك.

يا رجلا تمنيته الا تكف ؟

انا معجبة بك ، اقولها بقلب مليئ بالندوب ، معجبة بكل شيئ يخصك ، بغرورك ولامبالاتك .. ببرودك و غموضك .. معجبة بك كعادة أعلم أنها تؤلمني لكنني متمسكة بها.

لقد خسرت كل ما هو ثمين بالنسبة لي ، نفسي و عملي و والديَّ و قلبي .. لم يتبقى لي سواك استتركني أيضا؟ اسأخسر مجددا ؟

أنا أردت أن تشعر بي و بوجودي يا قيصر ! ، أن أكون معك.. أردتك بكل ذرة في كياني فلماذا لم تأتي ناحيتي؟.

الآن انا اكتفيت من لعبة الألم هذه! ، لقد اكتفيت و لم تعد لي طاقة أن أتألم مرة أخرى .

فكيف انتزعني منك يا قيصر

الرسالة السادسة
بتاريخ ٢٠٠٨/١٢/٢١

مرحبا ..
لا أعلم هل أتحدث اليكِ يا مذكرتي ام اليه ؟ .
أيهما سأشكيه همي و حزني ؟ أيهما سأخبره عن ألمي و انكساري و خيبتي ، أيهما انت او هو ؟ ما الفرق الذي سيحدثه غير أنني أعطيت قلبي بسهولة كأنه لا يعني لي شيئا .
اتعلمين يا مذكرتي أنني اعطيته قلبي دون أن يعلم ؟ و هو قد حطمه اليوم و جعله يتناثر..
كيف سألملمه و أعيده؟ كيف و انا محطمة سأعيدني و أرممني لما كنت عليه؟.
اتعلمين أنني لم أهتم لشيئ سوى كلماته؟، كلماته التي كانت تخترق قلبي دون مقاومة..
كلمات جعلتني اتيقن أن الحياة لا تريدني ان اكون سعيدة.
لقد اخبرني بكل ثقة و بدون تردد أنه كان اعجابا لحظيا ، اعجاب بامرأة جميلة جعلته يخرج عن مألوف يومه الروتيني .
و قلبي ؟ الا يهمه؟.
اخبرني انت يا قيصر الا يهمك قلبي؟ ،الا تهمك رجفته بقربك؟ الا تهمك تنهيدته العابرة ؟ الا يهمك الحماس و اللهفة التي كنت آتيك بها معلنة عن نفسي بدون قيود ؟ الا يهمك ما كنت عليه و ما أصبحت؟ .
الا ترى الآن دموعي و هي تغرق كلماتي و تجعلها بالية لا صدى لها ؟
أنا اليوم استطعت البكاء بفضلك ، اليوم أخرجت كل ما كان فيَّ و بكيت على الذي فاتني .. بكيت على عملي الذي افنيت حياتي ادرس لأصل له و في الأخير تخليت عنه, اقصد طُردت منه .. أبكي لأمي و ابي اللذان أفنيا عمرهما في اسعادي و من ثم تركاني وحدي اصارع الحياة بيدين داميتين.. ابكي لأيام أردت فيها البكاء و لم أفعل .. و الآن أنا أبكي بسببك ! لأنك كنت تلك القطرة التي افاضت قلبي.
تارة أبكي و تارة ابتسم بالرغم من دموعي ، ابتسم لأنك شخص يستحق أن يُخلد في اوراقي و في ذاكرتي .. و ابكي لأن هذا هو الشيئ الوحيد الذي أملكه
الا ترى ماذا فعلته ؟ في الحقيقة انت لم تفعل أي شيئ سوى اتباع ما يمليه عليك عملك و رجولتك، اللوم كله يعود لي انا لأنني اندفعت و تعمقت دون احساس بالعواقب.
الا ترى أن الحياة صفعتني ثلاث مرات دون أن اتمهل ؟ دون أن اخذ نفس واحدا تلقيت دروسا كثيرة في وقت قصير .
الن يتعب قلبي من كل هذا ؟

أشعر يا ألمي أنني خرقاء و غبية للحد الذي صدقت فيه و آمنت أن الحياة مثل الروايات ، أن البطل في الأخير سيكون من نصيب البطلة و يعيشون في سعادة و هناء .. إلا انني ما علمت يوما أنني سأعيس روايتي الخاصة و أكون ذلك الشخص الثانوي الذي يرى بصمت و يُقتل بصمت دون أن يسمع له صدى.

ان قلبي يؤلمني يا قيصر! فديسمبر اخذ مني الكثير و لم يعوضني , و حين عوضني بك دفعتني جانبا كشيئ لا لزوم له.

أليس القدر قاسيا ؟ أن يأخذ مني كل شيئ دون ان آخذ نفسا واحدا؟ فحتى خالتي الشخص الوحيد المتبقي لي ستتركني .

أتدري أنني شعرت معك بكل شيئ ؟ شعرت معك بكل ما فاتني.. شعرت معك بتغير الفصول و دورانها .. شعرت بحب العاشقين و لهفتهم و بعقارب الساعة و بطئها.. شعرت بالمواعيد المتأخرة و الأماكن الشاغرة .. شعرت بلحظات الحب الأولى و انت لست معي .

و بالرغم من كل هذا بقيت اقنع نفسي و مازلت انه ليس حب ، أن الشوق الذي اشعر به تجاهك هو افتتان لحظي ، انني مثلك افتتنت و انجذبت لك في لحظة كان الليل ثالثنا.

لقد اقنعته و لم يستمع لي لا الآن و لا قبلا و بقي على اندفاعه.. فماذا أفعل؟ ألم يكن هذا كافيا ؟.

لقد كنت وحيدة بالرغم من الأشخاص حولي كنت وحيدة في وسطهم .. وحيدة في كل شيئ معهم .. لقد كانت الوحدة هي من جعلتني اصل لما انا عليه، الاكتفاء بها فقط جعلني استغني عن العلاقات.

لكن منذ أن رأيتك و نبض قلبي النبضة الأولى, جعلتني أريد الانتماء اليك.. جعلتني اترك قلبي بين يديك علك تحافظ عليه اكثر مني .. جعلتني اريدك بكل ذرة من كياني .. وحدك يا قيصر من أحسسته يفهمني بدون كلمات ، بعينيك فقط شعرت أنني مفهومة و لست لغزا ، أنني امرأة عادية تريد أن تُفهم و تَفهم .

هنا عرفت أنني ما أشعر به نحوك شيئ أعقد مما تصورت .. شيئ أعمق من سطحية تفكيرك و من الواقع الذي تعيشه.

انت كنت كالخرافات القديمة مليئ بالحنين و بالبساطة.. مليئ بالحكايات التي قيلت من افواه الجدات المبتسمة .. انت كنت مثل كل شيئ جميل و بسيط.

الا أنني ما علمت إلا الآن انك تحمل الجانب الأخر منهم ، مليئ بالزيف و الكذب للحد الذي يجعلنا نريد تصديقهم و نمضي حياتنا على امل ان يتحققوا.

و هذا ما يجعلني أريد الهرب منك إليَّ.

الهرب من خرافتك و بقاء اثرك.

اليس الأمر مضحكا؟ أن اتخطى و اتقبل بسرعة؟ ان امشي فرحة بغبطة اللقاءات ناسية فقدي و ألمي ؟.
اذا كان هناك شيئ انا ممتنة من أجله، هو أن وجودك قد ساعدني أن اتقبل الواقع الذي حولي ، اتقبل وفاة والدي ، اتقبل نفسي مرة أخرى ، اتقبل الامرأة التي عليها انا .. الامرأة التي عانت من الفقد و الرحيل .
اذا كان هناك شيئ يجب أن اشكرك عليه هو قدومك في شهر ديسمبر ، عفوا ليس انت بل القدر الذي أريد أن أشكره لأنه جعل طرقنا تتشابك و جعل قلبي يسقط ، شكرا له لأنه انتشلني من الوحدة ليرميني إليك و من ثم يعيدني اليها بقسوة.
كل ما كنت اعيشه هو وهم صنعته بقلبي و صدقته حتى أتت اليد التي صفعتني لأستفيق.
و ها أنا احمل قلبي كافة المسؤولية على الخراب و الفوضى التي أحدثها جراء اوهامه و أحلامه.
الومه لأنك خيبتي الكبرى و خذلاني الأول يا قيصر.

الرسالة السابعة
بتاريخ ٢٠٠٨/١٢/٢٢

اليك..
كيف سأخبر هذا الشهر أنه مليئ بنا يا قيصر ؟ كيف سأخبره أن يسرع بالمضيّ و ألا يلتفت؟ فهذا الشهر رقصت فيه على أوتار الحب و كانت أول لحظات السعادة في حياتي.
شهر مليئ بعبق ذكرياتٍ سعيدة في حاضر تعيس.
كيف سأنساك و اتخطى و انت كل الحاضرين في الغياب؟ ، فالليل كان يمر بذكراك و اللحظات العابرة التي عشتها كانت مليئة بالسعادة بالنسبة لي .. لقد كانت تمر بتنهيدة حب تخرج من قلبي لتنتشلني من وهمك و عينيك يا قيصر .
و الآن أنا وحدي مع الليل و الذكريات اتشارك معهما كوبا من الدموع و الشوق و هما يسألاني هل اكتفيتي ؟ و اجيبهم أنا بكل خيبة العالم :
نعم لكن اعيدا سكب الكأس فأنا لم اثمل بعد.

الرسالة الثامنة

بتاريخ ٢٣/١٢/٢٠٠٨

اليك..

هل تعلم يا قيصر انني جعلتك سرا لن اخرجه لأي كان و لن ابوح به لأحد؟ سأدفنك و انت حي ترزق في قلبي .. تارة ازورك لأنعي طيفك المختفي، و تارة اخرى اهيم بك تحت مظلة ذكرياتي سرا.

فأنا اعلم و بكامل يقين العالم انك لن تأتي ناحيتي و لو كذبا ، فواقعي هذا ابعد من أن يتحقق فيه شخص خرافي مثلك .

لذا سأجعلك سري الدائم و أهيم بك في عالمي الخاص, فعلى الأقل فيه لا أتألم او ارتطم بالخيبات .

سأنالك حلما و فقط يا قيصر .

الرسالة التاسعة

بتاريخ ٢٠٠٨/١٢/٢٤

اليك..

هل يجب أن أبتعد أم أبقى؟ هل أختفي ؟ أم أبقى بارزة للعيان؟

هل أُسكت عقلي و أطفئ قلبي؟ هل أقتل مشاعري تجاهك أم أحييها من أجلي؟ هل أقترب أم أبتعد يا قيصر ؟

أنا مليئة بالتناقضات يا إلهي ..أنقذني .

الرسالة العاشرة
بتاريخ ٢٠٠٨/١٢/٢٥

اليك ..
لقد استيقظت اليوم متأخرة و اول شخص تبادر لذهني كان انت.
اليس مضحكا يا قيصر؟! لقد كنت الأول الذي أردت أن أخبره "صباح الخير" .
لقد حلمت ليلة أمس بك ! رأيتك بنظرتك الباردة و اللامبالية , لكن فجأة تغيرت تلك النظرة و أصبحت دافئة و حنونة، نظرة لاطالما تمنيت أن أراها مجددا في الواقع لكنني رأيتها حلما و كان هذا يكفيني .. فعلى الأقل رأيتها .
لقد كنا في حلمي في مكاني المفضل أمام البحر .. حينها لم تقل لي و لو كلمة واحدة , فقد أمسكت يدي و بقيت تنظر لي تلك النظرة الدافئة و الحنونة التي تمنيتها حتى سهوا منك , و لم أفق إلا و الدموع تبلل خدي و وسادتي .
لقد استيقظت يا قصير من حلم لم يتعدى العشر ثوان لكنه سيأخذ عمرا كاملا لأنساه .
لأنني امرأة لا تنسى اللحظات العابرة و لو حلما .. حتى أنت .

الرسالة الحادية عشر
بتاريخ ٢٠٠٨/١٢/٢٦

اليك..
اتعلم با قيصر؟ أن خالتي بعد أربعة أيام ستذهب و سأبقى وحدي ؟ فأنا ليس لدي أقارب غيرها ، اقصد لدي الا انها الوحيدة بينهم جميعا التي تحمل قلبا جميلا كجمال وجهها و ملامحها , فهي تذكرني بأمي رحمها الله و برائحة الصباحات الممطرة.
اتعلم أن أمي و خالتي يتشابهان! ليس في الوجه فقط بل في العادات و الشخصية فهما يمتلكان نفس الذوق في الأشياء و يحبان الاغاني العربية القديمة و مغنيها كفيروز و ام كلثوم و عبد الحليم و ماجدة .
فأنا لاطالما استيقظت على صوت فيروز العذب الذي يصلح ليكون عنوان الصباح الدائم .. و استيقظ على دندنات امي معها و على اغنية "نسم علينا الهوى".
فأصبحت أحبها بل لنقل انها مطربتي المفضلة، فأغانيها لا طالما اخذتني لعالم الحب الخاص .. اغانيها لا طالما جعلتني انفصل عن الواقع بصوتها العذب و بصوت امي معها .. و لا أنسى تلك الصباحات الماطرة و الباردة التي شاركت فيها فيروز و لا سيما اغنية "رجعت الشتوية" التي كانت تتوافق مع القهوة ممزوجة برائحة التراب التي اعشقها .. و هذا كان المزيج النادر الذي أحببته و لا زلت أحبه في يومي .
لكن منذ وفاة والديَّ لم يعد صوت فيروز يصدح و أصبح اليوم و القهوة و المطر مجرد ذكرى تؤلمني حين اتذكرها لأن الشخص الذي اعتاد أن يغني و ينفض الغبار المتراكم من الراديو قد ذهب .
و بذهابه اختفت عادة فيروز و اختفيت معها.
لذا انا اتساءل هل انت من محبي الاغاني العربية القديمة ام الحديثة ؟ اتساءل هل تحب ماجدة و فاتن و ام كلثوم ؟
هل نمتلك نفس الذوق يا قيصر ؟

الرسالة الثانية عشر
بتاريخ ٢٠٠٨/١٢/٢٧

اليك..
ها قد اتى الليل يا قيصر و أتت معه تساؤلاتي التي لا تنتهي.. أتى الليل ليعذبني.بذكراك و غيابك ، أتى و معه نجوم كنت اشبهها بك و بسماء كنت أراك فيها .
هل سيأتي يوم و تقرئني ؟ هل سيأتي يوم و اسدد لك فيه هذا الدين ؟ هل سيأتي يوم و أذهب أنا اليك بقلبي و بقدمي لأعطيك هذه المفكرة و معها رسائل مليئة بي و بك؟
لقد اختنقت يا قيصر! .. أشعر أنني أريد الصراخ و البكاء.. اكسر الأشياء و انهار أريد أن أفرغ شحنتي و ما بداخلي .. أريد أن اصرخ بك و اضربك علك تشعر بشيئ مما أشعر به .
و كم من أريد أريدها الا أنني في الأخير ألملم شتاتي واكتفي ببكاء صامت و برسائل لا أعلم هل ستصل ام لا؟ .
اكتفي بعناق وشاحك الذي بشعرني أنك معي.. أكتفي بدموع جفت ببطئ أثر توقف أفكاري.
انا اكتفيت لم أعد أستطيع التقدم ولا ارتداء قناع التمثيل .. فالأمر مؤلم ! بل مؤلم.جدا!.. و أنا لم أعد احتمل.
لم أعد أستطيع يا قيصر.. انا انهار ببطئ و بدون أن يعلم احد.
فهلا أتيت ؟

الرسالة الثالثة عشر
بتاريخ ٢٠٠٨/١٢/٢٩

اليك..
لقد عاد لي ارقي و عاد معه سهري و ذكرياتي المتربة .. انها الثالثة بعد منتصف قلبي وحيدة مع ليلي و دموعي و انت .
كم أن الليل متعب و مؤلم با قيصر، فحين يأتي الليل تعود الذكريات لتظهر بقوة و بقسوة و بدون ارادة منك لتسلبك خيار النسيان و المضي .
يأتي الليل و تعود معه الأيام التي حاولنا دفنها و نسيانها , تعود و تخرج حية نابضة بالحياة لنشرب منها حد الثمالة حتى يأتي اول شعاع من صباح جديد لتعود لقبرها مطئطة الرأس ، لنعاني نحن بعدها من آثار ما بعد الثمالة ليوم كامل.
ها أنا أنظر للنجوم من نافذة غرفتي و انا اتذكر اغنية " الليل" لأمينة فاخت :

" الليل بدموعه قاسي و يا ويلي من ساعاته."
" الصبر لسه ساكت و ياويلي من سكاتو" .

ا تعلم يا قيصر؟ أن امينة حين غنت اغنية" الليل" يقال انها كانت مخمورة, و البعض الآخر قال إنها غنتها بقلبها و بحزنها و بعذابها حتى باتت تشبه المخمورين.. غنتها بقلب مليئ بالشجن و الألم لذا كل من يسمعها تدخله في حالة من السكر المربك و الانفصال عن الواقع.

لهذا تذكرتها الآن! لأنني أنا أيضا مخمورة بذكرياتي و اشرب من ألمي حد الثمالة اتذكرها و اغني وكل كلمة لم تكن تخرج من فمي بل كانت من قلب انهكه الانتظار.
اغني في الثالثة صباحا مع امينة يا قيصر و نحن مخموران من الألم والترقب و معنا النجوم تراقبنا بأسى و تتمنى أن نتخطى و يكون طريق النسيان إلينا سهلا.

الرسالة الرابعة عشر
٢٠٠٨/١٢/٣٠

اليك..
غدا ستسافر خالتي يا قيصر! و سأبقى وحدي.. سأبقى وحدي مع مفكرتي و ذكرياتنا .. سأبقى وحدي مع خيالك البعيد الذي يعانقني.. سأبقى وحدي مع رسائلي.
فلماذا لست حزينة ؟ هل أصبحت أخيرا متبلده المشاعر و لا أشعر بشيئ؟ كل ما أشعر به أن هناك هوة فارغة في قلبي .. ثقب صغير كنت تملؤه بوجودك و الآن بات بغيابك اكبر و أعمق.
انا أشعر باللاشيئ .
انا اتعامل مع كل شيئ ببلادة و برود .. لا أدري لماذا؟
انا إشتقتك يا قيصر! لكن لا أستطيع الإقتراب منك , فأنت الواقع الذي لن أعيش فيه يوما .. واقع لن انتمي له ابدا.
سأعيش منذ الان مع وحدتي و سأقتات من الذكريات ما تبقى من عمري سأعيش معك وأنت قريب و داخلي .. و ستعيش انت خارجا و بعيدا مع سعادة أخرى ستجدها يوما .
سأخبرك بسر لم استطع الاعتراف به بيني و بين نفسي و الان سأخبرك به !، حين اخبرني خالي انه لا استطيع أن أذهب معهم لا اخفيك أنني شعرت بسعادة خفية لم ابينها ، فأنا لا استطيع الذهاب لأي مكان . اتعلم لماذا؟
كيف سأذهب و روحي هنا ؟ كيف سأذهب و أنا عشت طفولتي و مراهقتي في جدران هذا البيت ؟ كيق سأترك امي و ابي و هذا البيت ؟
كيف سأتركهم و اتركك ورائي كشيئ مات و انتهى ؟ .
من سينفض عنكم اتربة الغياب و ينعيكم بين حين و آخر؟
كيف سأذهب و جذوري متأصلة هنا ؟ بهم و بك ؟.
لا أستطيع يا قيصر! قلبي و روحي لا يستطيعان .. لن و لم اذهب , فوحدتي هنا بين أحبائي الغائبين خير من وحدة بين غريبين موجودين .
ارأيت !؟ أن حياتي توقفت منذ يوم لقاءنا ؟ حياتي متوقفة بسببك .
متوقفة بسبب خطيئة فعلتها في حق نفسي و للآن لم أجد طريق الغفران اليَّ.

الرسالة الخامسة عشر
بتاريخ ٢٠٠٨/١٢/٣١

اليك ..
لقد أتيت بعد توديعي لخالتي و لا أدري ماذا أقول او بماذا أشعر؟.
لقد انهرت يا قيصر فماذا أفعل؟
لم اعتقد اني سأشعر بهذا التشتت و الضياع بذهابها.. انا أشعر بالفقد مجددا .
لقد كنت بخير مع ذهابها فماذا حدث ؟ لماذا دموعي لم تتوقف و لماذا أشعر بهذا الألم؟
لقد انهرت يا قيصر و لم أجد حولي احد ، لقد ذهبت لصديقنا المشترك الكبير و انهرت أمامه و لأول مرة انهار امام أحد .. لقد انهرت و بكيت و حكيت و في الأخير عدت مغلفة برداء الفقد و كأنها قدري الوحيد .
انا وحيدة تماما الآن و لا قدرة لي على المضي و التقدم، لقد توقفت في مكان واحد و انا التي كانت تظن انني سأتخطى و امضي .
لقد كنت اظن انك فاصلة سأتجاوزها و اكتب بعدها سطرا آخر من حياتي, لقد كنت أظن أنني سأتجاوز و سيكتب القدر فصلا آخر أعيشه بعد تعب طويل .
إلا انني ما علمت انك يا قيصر سطر واحد جمع معاني الحياة كلها .. انك ختام جميع الفصول من حياتي .. نقطة منفردة انهت حياتي في الآخر من ديسمبر.
اليوم هو الآخر من ديسمبر .. ديسمبر الذي عشت فيه تفاصيلا لحكايات حدثت مع بعضها.. ديسمبر الذي تعلمت منه و خسرت فيه و عشت الحب معه ديسمبر الذي ختمها اليوم بذهاب خالتي .. ذهاب أمل آخر .

ماذا فعلت و اي فعل سيئ جنيته حتى يعاقبني ديسمبر هكذا ؟ ماذا فعلتُ لك يا ديسمبر حتى جعلت مني مليئة بالندوب و الفقد؟
ديسمبر الذي راهنت على انه شهر اللهفة و الحب الأول إذ به أصبح شهر الرحيل و الفقد.
ديسمبر الذي أصبح يحمل خرافة الرحيل .
لقد كان بدايته فقد و خسارة , و وسطه حب ولد في الخفاء , و نهايته الرحيل و الغياب .. الا يقولون خير الامور اوسطها و انت كنت كذلك! .
غدا سيبتدأ عام جديد .. فصل جديد أنسجه و لا ادري اسأنساك و امضي و اتجاوز ؟

لا أدري لعل العام الجديد يكون عاما أتقدم فيه .. عاما اتجاوز فيه و انتهي منك و افرغ روحي من وجودك.
اتمنى ان أصبح صديقة للوحدة علها لا تؤلمني و ترفق بقلب انهكه الرحيل .
اتمنى ان يكون يناير بداية لنسيان و لحياة جديدة.

الرسالة السادسة عشر
بتاريخ ٢٠٠٩/١/١

اليك..
انه عام جديد و شهر جديد .. شهر البدايات الجديدة و الأحلام يناير .
اتمنى ان يكون هذا العام بداية لحياة جديدة أنسى فيها الحياة القديمة .
لقد خرجت اليوم ياقيصر حين رأيت الثلج يهطل .. خرجت لأرى العالم فرأيت أن الجميع يبتسمون .. الأبناء مع آبائهم و أمهاتهم.. المتزوجون مع ازواجهم .. و العاشقين ممسكين بأيدي بعض و السعادة تحيط بهم.
و أنا وحدي أسير يتيمة الأبوين ويتيمة القلب بغيابك .
لا اخفيك أنه كان عندي امل صغير أن نلتقي.. أن أراك و لو سهوا .. و لو من بعيد لجزء من الثانية .. المهم ان اراك فقد اشتقتك! .
مشيت و أنا أشعر بالسعادة و الحزن في نفس الوقت , سعيدة لأنني أحب الثلج فهو يذكرني بطفولتي ، و حزينة لأنك لست هنا لأحكي لك عنها .
فرأيت اطفالا صغار يبنون رجل ثلج ,فذهبت و ساعدتهم و بنيته معهم و في الأخير واحد منهم قبلني على خدي و الآخر عانقني ، و بدون سابق إنذار بكيت !
لقد تعمدت اليوم ان امشي في نفس الطريق الذي التقينا فيه للمرة الأولى و الثانية، لا أدري اذا كنت تتذكره ام لا؟ مشيت بقلب فيه امل صغير للقياك تحت الثلج و كلي ارتباك و توتر .. بقلب لم ينسى بقيت اصنع السيناريوهات المحتملة كيف و متى و ماذا اقول ؟ هل أخبره بحبي بغتة ام انه سيسخر مني لأن الحب لا يأتي على عجل؟ هل ابتسم ام لا ؟ هل أنظر في عينيه ام لا ؟ هل امسك يده ام افضل الاحتفاظ بها لي ؟ كل هذا صنعته و أنا امشي ببطئ و أفكر فيك .
لكن لم نلتقي و عدت امشط شعر الخيبة مجددا.
عدت بدموع شوق احرقت قلبي و روحي .
عدت بقلب لم يعد يحتمل و مليئ الندوب .
عدت مليئة بالتمني في أن تمضي من ذاكرتي و تختفي من قلبي .
حتى العام الجديد خذلني .
حتى يناير آلمني .
كل عام و أنت يا قيصر البداية الأولى التي لن يأتي الزمن بمثلها.

الرسالة العشرون
بتاريخ ٤/١/٢٠٠٩

اليك..
كم كنت أريد يدا حنونا تخرجني من الوحدة التي فيها! ، تكون معي في الليل الكئيب و النهار الطويل ، و تمنع فزعي المستمر .
كم كنت أريد أي يد بعد منتصف قلبي لكي لا أشعر بالوحدة .
كنت أريد يدك يا قيصر!. فأين هي ؟

رسالة الواحدة و العشرون
بتاريخ ٢٠٠٩/١/٦

اليك ..
كيف حالك يا قيصر؟
لقد غلبني الشوق بعد منتصف الليل و أردت أن أطمئن على حالك .. فعيني لا تكف عن البكاء و قلبي يهفو لمحادثاتك و عقلي يخبره ان لا يكون غبيا مرة أخرى.
و أنا هنا أرثيك و أُبكيك في رسائلي التي لن تقرأها علها تطمئن قلبي الملتاع و تجعله ينام .
لقد اشتقتك و كثيرا يا قيصر .
و أنت ؟

الرسالة الثانية و العشرون
بتاريخ ٢٠٠٩/١/٧

اليك..
يوم بعد يوم.. و مازال كل شيئ في نصابه.. وكأن ما حدث قد حدث الآن .. نفس التفاصيل.. نفس الذكريات.. نفس الأحداث .. و نفس كل شيئ .. كنت و مازالت عالقة في نفس المكان.. مكان يأبى أن يغادر ذاكرتي .. كأنه بتفاصيله يقول لي لن أغادر سأبقى ذكرى حية تطاردك مدى الحياة.. و يا لها من ذكرى!.
ذكرى كنت الوحيد فيها يا قيصر! .. ذكرى تشعرني أن ما حدث مازال يحدث.. انت ذلك الرجل المستحيل الذي تمنيته في كل دقيقة فيها .
انت يا رجل كالخطيئة و الغفران.
أنت جعلت من ذكراك حية .. أنت ليلي و نهاري.. شتائي و صيفي.. بداية الحب الأول ،و اندثار التفاصيل و اللحظات.. الذكرى الحلوة و الأثر المؤلم.
لكنني في الاخير توصلت إلى شيئ أن لا شيئ يبقى. حتى الحياة لن تبقى فما بالك بذكرى كانت يوما ما كل شيئ.. ذكرى ستبدأ في التلاشي بمجرد تغير الفصول و الأعوام.
ذكرى كانت يوما ما لكنها في القريب لن تكن
أنا سأنساك يا قيصر!. .

الرسالة الثالثة و العشرون
بتاريخ ٢٠٠٩/١/٨

اليك..
اشعر أن شيئ داخلي قد تغير يا قيصر و لا أدري ماهو ؟
هل هي روحي التي تلفظ أنفاسها الأخيرة أم انه قلبي المحطم؟
كل شيئ صار رماد.. هل هي نهايتي؟.
في وسط كل هذا الخراب ظهرت " أنت" كذكرى كانت واقعا يوما ، و الآن بت وهما أبكي لبعده و أشتاق لخياله.
انت جعلت من الخراب ورودا و من اللا شيئ كل شيئ .. ما الذي فعلته حتى جعلتني حية بينما روحي تلاشت؟
أنت يا من جعلت من قلقي راحة و من حزني إبتسامة و من عتمتي نورا .. أنني اهوي و انكسر كل يوم .. يأسي و معاناتي تزداد كلما اقنعت نفسي و قلبي أنني بخير .
لكنني لست بخير والله لست بخير .
أريدك يا قيصر! .. فتعال و خذني اليك.

الرسالة الرابعة و العشرون
بتاريخ ٢٠٠٩/١/٩

اليك..
كنت أريد دائما أن أسألك يا قيصر !.. هل أنا مميزة حقا مثلما كنت تخبرني ؟
هل الواقع دائما مؤلم؟ هذا الألم الذي ينهش صدري هل تشعر به أم لا؟
كنت بالنسبة لي كحلم تمنيت ألا أستيقظ منه .. حلم تمنيت لو أظل فيه معك.. أنظر إليك و تنظر لي، أبتسم لك و تبتسم لي.... أردت دائما أن أسمع نبض قلبك، تلك النبضة الوحيدة التي تعادل عاما من الفرح،، نبضة أردت دائما أن أسمعها تهمس بإسمي، إسمي أنا فقط لا غير.
أردت دائما أن أفهم عيناك يا قيصر!.. تلك النظرة أردت دائما أن أفهمها.. نظرة كلما تعمقت فيها وجدتني أغرق و أغرق كبحار تائه لم يجد طريق العودة.
لقد كنت الكل شيئ, ليست عيناك فقط بل أنت.
و كم من أردت تمنيتها, لكنه في الأخير القدر و مشيئة السماء.
هل تصدق إن قلت لك أن عيناك كانت ملاذي ؟ هل تصدق إن أخبرتك أنني عشت ما لم اعشه من قبل ؟ عشت معك شعور الأول مرة .. شعور الانتظار .. شعور الشوق و الحب و الألم .. شعور الابتسام لذكراك .. شعور الانكسار .. الخيبة و الأمل و الخذلان .. عشت معك كل شيئ . فهل تصدقني؟
لن تصدقني يا قيصر!، لن تصدق لأني لست الأولى و الأخيرة .. لن تصدق لأني لست مميزة مثلما اخبرتني .. لن تصدق لأنك لم تشعر بنبضات قلبي .. لن تصدق لأنني في نظرك لست سوى امرأة تعلقت بطبيبها.
و لأصدقك القول انا ايضا قلت لقلبي و لعقلي فكرتك ، لكنني علمت انه ليس كذلك فشعوري الآن اصدق من ان يكذبه شخص مثلك .. أعمق و أشد مما كنت أشعر به في حضرتك .
الان صدقتك يا جدي! أنت عرفت الحب الذي خط تفاصيله في وجهي لكنني كابرت و لم اعترف .. كابرت و كلما مرت الأيام وجدت ذكراه نابضة بالحياة و لا تأبى روحها المغادرة.
أنت لن تصدق لأنك لا تعرفني، و لن تصدقني لأنك لا تعرف انني همت و حلمت فيك طويلا .. حلم مستحيل و بعيد عني.. حلم تمنيت ألا أستيقظ منه.. لكن شاء الله و القدر إني إستيقظت و فهمت أن بعض الأحلام تبقى راسخة لا تنسى .

كنت في أحد الأيام كالحلم لكنك اليوم واقع .. كنت أتمنى في أحد الأيام أن يتوقف الوقت و نحن معا يا قيصر، لكن اليوم لست معي و الوقت يمضي.. قلبي الذي كان في أحد الأيام لا يستطيع العيش بدونك و اليوم تأقلم و هو ينزف .
أنت ستبقى القصة الوحيدة التي عشتها مرة واحدة و لن تتكرر.

الرسالة الخامسة و العشرون
بتاريخ ٢٠٠٩/١/١٠

اليك..
مازالتُ و لحد الساعة تنتابني نوبات اشتياق و حنين إليك يا قيصر ، مازلت و لحد اليوم أتنفس ذكرياتنا ، مازلت و لحد اليوم اذوب في ذكراك و ابتسم كلما لمحت شيئ يذكرني بك .
لأنني اليوم أدركت هذا فقط، اليوم أدركت اني ما نسيتك قط ، بل تقبلت حقيقة أنك لا تشاركني المشاعر .. اليوم ادركت أني ما تجاوزتك بل تعودت غيابك اليوم أدركت و يا لفجاعة ما أدركت أني لن انساك و لا أتخيل الحياة بدونك.
لا أتخيل حقيقة أنني سأعيش المشاعر ذاتها مع شخص آخر ، لا أتقبل فكرة أن يناديني شخصا آخر بإسمي .. أن ينظر لي نظرتك الباردة و الدافئة في نفس الوقت أن احلم به في واقعي و ان اعيش واقعي معه .. أن تذكرني سطور الاغاني القديمة به.. أن يكون له نفس صوتك و حضورك .
أنا لا أتقبل يا قيصر لأنني أدركت انك ضربت بجذورك أعماقي و أنني لن اقدر على انتزاعك مني.

الرسالة السادسة و العشرون
بتاريخ ١١/١/٢٠٠٩

اليك..
أكاد أموت من الشوق إليك لكني لا أستطيع الإقتراب منك ..لا استطيع أن اتي ناحيتك خوفا من قلبك .. فإذا كان التعبير عن الحب بشوقٍ يأتي ليلا نهارا.. فأيها البعيد عن العيني القريب من قلبي.
إشتقت إليك كثيرا .. كثيرا .
انني اغرق فيك .
فأنجدني با قيصر.

الرسالة السابعة و العشرون
بتاريخ ١٢ /١/٢٠٠٩

اليك..
انا وحيدة بعد منتصف قلبي، يغلفني حزن كبير.. لا أحد يعرف كم أنا متعبة .. لا أحد يعرف ألمي خلف ابتساماتي المتكررة .. لا أحد يعرف شعور قلبي و هو يتمزق .. لا احد يعرف يا قيصر .
حتى انت !
لا ادري هل وجدت من يؤنس وحدتك أخيرا؟ أم انك مثلي وجدت الوحدة و ليلها الطويل و معها منتصف الليل الذي يطبطب على ذراعك و قلبك بسكوته الهادئ .. انت وجدت راحتك في غيابي و أنا وجدت وحدة الحاضر .
فأنا أعلم أنك لن تشعر بي .
لا أحد يعرف و لا أحد يشعر .. أنا فقط من أعرف و أشعر.
أنا فقط يا قيصر .

الرسالة الثامنة و العشرون
بتاريخ ١٣/١/٢٠٠٩

اليك..
لقد إمتلئت روحي بكلمات لم تقل و بكتمان أرهقني حتى بِتُ لا أقوى على الحزن، لقد تعبت روحي من كثرة اليأس الذي غلفها يا قيصر.
لقد صرت شخصا آخر ، شخصا فاقد للإرادة و الشغف ، شخص منفصم ذاتيا ، أحدهما يريد العودة للحياة و الآخر يريد الإبتعاد و أنا مشتتة بين هذا و ذاك و لا ادري ما العمل ؟
أنا لا ألوم أي شخص تسبب لي بالأذى بل ألوم نفسي لأنه ما زال عندي أمل أن أجد شخص أبديا لا يزول ، فبعدد الفقد الذي مررت به و بحجم الخيبة التي نلتها، مازال عندي بصيص أمل أن أجد مأمني و موضع إطمئناني .
لقد كنت خائفة منذ البداية من الإعتراف بهذا لنفسي فكيف بأوراقي و كلماتي أو انت الذي يقرأ الآن .
أنا صرت أخاف العلاقات.. صرت أخاف التعلق و الحب،فأنا لا طالما أردت موضع إطمئنان بعيد عن عبث هذا العالم .. موضع اكون فيه انا على حقيقتي.
فوجدتك لكنك لم تراني كإمرأة.. وجدتك و لم تنظر لي.
لذا في الأخير كان من نصيبي العدم أو الرقم صفر او غيابك.
لقد أصبحت أرى النهايات قبل أن تبدأ ، فكلما مررت في الشارع و وجدت صديقين جميلين أتذكر أنه لم يكن لي يوما أصدقاء او صديقة مقربة ، فتأتي النهاية لتظهر أمام عيني كشريط عتيق فيه إفتراق هذين الصديقين و خسارة أحدهما للآخر .
كلما رأيت المتحابين و نظراتهم العاشقة في الأيام الممطرة و الباردة اتذكر لقاءنا أننا نحن أيضا التقينا في مثل هذا اليوم ، فأعود للبداية محملة بذكرى عابرة تؤلمني و تجعلني ابتسم و أنا أتذكر كلماتك بقلب امتلئ بك مرة و خُذل من كلماتك مرة أخرى.
لقد أصبحت أرى النهايات في كل البدايات يا قيصر الا انك كنت البداية الوحيدة التي لم أرى لها نهاية .
لذا فضلت الإبتعاد عن كل شيئ و الإلتزام بوحدتي التي تعلقت بي و المضي قدما بدون أصدقاء ، يتيمة للحب و العائلة.
أنا لم أعد أهتم بأي شيئ يكفي أنني أتنفس و أعيش و هذا كافي جدا .
فلا احد إستطاع التعرف على وحدتي سوى الوحدة نفسها .

الرسالة الثلاثون
بتاريخ ١٤/١/٢٠٠٩

اليك..

"اي وهم انت عشت به .. كنت في البال و لم تكن" .

لماذا لا تتركني أعيش في سلام يا قيصر ؟ لماذا لم انسك ؟ لماذا لا يندمل هذا الجرح و يختفي اثرك .. لماذا مازالت متمسكة بوهم لن يتحقق ابدا ؟
أليست الحياة قاسية يا فيروز ؟ أنا أيضا عشت في وهم حضوره و الآن أعيش وهم غيابه.
اعيش و اراقص خياله عله يأتي يوم و تجمعنا صدفة ما .. اغنية ما .. أو طريق ما!.
لقد كنت أظن نفسي نجوت .. لكن ذكراك تسللت لي و طوقتني بحنينها لأعود لأول نقطة نسيان بدأتها ، الأمر مضحك ! لأنني لم انسك و او امحو اثرك من اول مرة .
أليس هذا انجاز في حد ذاته ؟ .
أن أكون مهزومة و أنا ارفع راية الانتصار ..
أن أعيش مع وهم و أنا انتمي للواقع ..
أن أشتاق للذكريات و أنا امضي مع الايام..
لكنني أعلم ان الانهزامات و الانتصارات لطالما كانت تدون في تواريخ الأيام لتبقى خالدة في الاذهان .. راسخة في القلوب .
سجل عندك اذن .. انك اول انتصار عشته و اول هزيمة دونتها يا قيصر.

الرسالة الواحدة و الثلاثون
بتاريخ ١٥/١/٢٠٠٩

اليك..
طيلة هذا الوقت كنت متناقضة مع أفكاري في الإبتعاد أو الإقتراب .. فكنت اعزي نفسي أنني فعلت الشيئ الصحيح حين وضعت حدا لما كنت فيه ، و في النقيض كنت أتألم بذنب انني لو استطعت التماسك و اخفاء ما في قلبي لكنت الآن مازلت اراك و أتنعم بحضورك يا قيصر.
فضلت الابتعاد لكي لا أتألم كثيرا و ان يكون الضرر خفيفا على الروح و لينا على القلب .. لكن في الأخير مازلت للآن الملم روحي المنكسرة و ارمم ما بقي من قلبي.. في الأخير غيابك زلزل قلبي و أحدث به اضرار و شروخ لا تكفي اسعافات الكون كلها في معالجتها.
أنا أراك في وجوه العابرين و في الأغاني و القصائد و الكلمات .. اراك في الغياب و العدم فتتألم روحي و أعود مشتاقة لقلب شخص لم يراني يوما .. فأتألم و أستمر بالتألم .
فما الفرق إذا بين غيابك و وجودك في حين أن المصير و العذاب واحد .
لكن الشيئ المحزن و المخزي في الأمر أنني مازلت أهتم .. نعم أهتم .. أتألم لألمك حين اتذكر ما مررت به.. أفكر بك و بمصيرنا اذا ما بقينا معا.
اراك في كل شيئ في العالم .
لقد أدركت أنني أصبحت مع الجميع هكذا .. متبلدة و باردة لا تهتم بأحد و لا أحد يهتم بها .. إلا أنت! آتيك كل يوم مشبعة بحب دفن قبل أوانه و بألم يزدادا يوما بعد يوم.
الا تأتي و تخلصني يا قيصر؟.

الرسالة الثانية و الثلاثون
بتاريخ ٢٠٠٩/١/١٧

اليك..
لقد كنت مريضة بالأمس فلم أستطع الكتابة اليك .. لقد داهمتني حمى لأنني وقفت تحت المطر حين سمعت القطرات تنزل برفق .. فتخيلتك أنت.
فخرجت لأجعلك تهطل في روحي.
لكنني دفعت ثمنها غاليا , فأصبحت مريضة و طريحة الفراش و لا أحد بجانبي وحدي عانيت مرضي .. و وحدي تألمت.
اتعرف محمود درويش يا قيصر؟ ذلك الشاعر الذي أحدثت كلماته صدى و صخب في العالم .. كلماته التي لاطالما لامشت روحي برقتها و حزنها .. و هو أيضا شاعري المفضل..
لديه قصيدة تعجبني و فيها ابيات لاطالما حفظتها عن ظهر قلب.

تُنسى كأنك لم تكن ..
تنسى كمصرع طائر ..
ككنيسة مهجورة ..
تنسى كحب عابر..
وكوردة في الليل..

لا اعلم ما الذي مر به محمود لكي يكتب بهذا الحزن .. لكنني عشت شعوره أمس، لأنني نُسيت .
انا نُسيت في منتصف الطريق..
انا نُسيت في وسط الأيام..
انا تلك الزهرة التي نُسيت و تُركت..
الجميع نسوني فلماذا لا أنسى؟
الا ليتني مثلهم .
انا أردت أن أبكي و افرغ داخلي ، لكن ليس معي احد استند عليه و افرغ له قلبي ليفهمني .
فتذكرت جدي صديقنا المشترك .. أردت الذهاب اليه فوحده من يفهمني .. وحده من يعرفني.. وحده من يعرف قلب توليب و ما الذي يوجد فيه.. أردت الذهاب اليه رغم مرضي علني اراك فأشفى.
لكنني لم أشتطع لأنني لم اذهب منذ مدة و أنا أعلم أنه سيكون غاضب مني , و لأنني أيضا كنت مريضة و لا أقوى على النهوض.

انا احتجتك يا قيصر و لم أجدك .

الرسالة الثالثة و ثلاثون
بتاريخ ١٩/١/٢٠٠٩

اليك..
اتعلم يا قيصر؟
لقد اصبحت دقات قلبي هادئة ، لقلة زائريها و سكانها، فلا الحب عاد مهما و لا الحياة كانت بهذه الأهمية .
أنا الآن ارى من نافذتي وجوه أشخاص عديدة تجسدت فيها آلاف من الحكايات حكايات مرسومة لتخبر العالم بتفاصيل ايام حزينة و سعيدة مرت عليهم.
فهل يا تُرى ماذا يحمل وجهي؟.
في الحقيقة، لم أعد أعرف نفسي حقا لأن الخطأ الوحيد الذي اقسمت على عدم تكراره و الوصايا التي كررتها على قلبي مرارا و تكرارا قد ضُربت عرض الحائط لمجرد اهتمام صغير بحجم حظي.
ان روحي مليئة بما لم اقله يوما .. مليئة بخيبتك و عينيك يا قيصر.
فلا الحب من الأول كان لي و لا الحياة كانت تفضلني.
من الأول كنت شخص هامشي.. و سأظل.

الرسالة الرابعة و ثلاثون
بتاريخ ٢٠/١/٢٠٠٩

اليك..
لقد راودتني الآن نوبة بكاء أخرى ، فبكيت كما لم ابك من قبل و كأن فراقنا كان امس و ليس منذ شهر مضى .
و لحد اليوم مازالت اشتاق اليك و ابكي لفراقك و بعدك .. إلى الآن مازلت اراك في كل شيئ يا قيصر .
غبية أنا لأنني مازلت احب شخصا تجاوزني و دهس على قلبي .. غبية لأنني مازلت أبكي عليك و انت لا تعلم اصلا ما الذي شعرت به.
غبية جدا لأنه و بالرغم من خذلاني و خيبتي إلا أنني مازلت اكتب لك كل يوم و كأنك هنا تسمع ألمي و شوقي.
في الحقيقة إنني فعلا اكتب اليك هنا لأنه ليس لدي احد اشكيه و يفهمني .. انا اكتب اليك لأنه المكان الوحيد الذي اكون فيه بدون تصنع .. ضعيفة و هشة و سريعة العطب .
أنا أريد تجاوزك ، كلا!. .. بل نسيانك فاخبرني كيف يا قيصر؟ .

الرسالة الخامسة و ثلاثون
بتاريخ ٢٣/١/٢٠٠٩

اليك ..
أين أنت .. و أين أنا ؟
أين ذهبت و تركتني اصارع وحدتي و ألمي وحدي ؟ أين أنت أيها البعيد أين ذهبت يا غيابي؟ .
اه من حرقة قلبي التي جعلتني هشة التفكير .
و انني اليوم خرجت و كلي امل يائس ان القاك و ألمحك حتى ولو من بعيد..المحك لأطفئ نار شوقي بك .
كل ما كان يهمني هو أن أراك يا قيصر هل طلبت الكثير؟ .
لقد رأيتك اليوم في جميع الأشخاص الغير المباليين.. و شممت رائحتك في عطور المحلات.. لقد رأيتك في المقاعد الفارغة و الضحكات المختلسة و شعرت بحنين قاتل يجذبني إليك.
لكن ما الفائدة و قلبي قد تم كسره و رميه جانبا .. ما الفائدة يا قيصر و قلبك فيه امرأة غيري تعذبك و تعذبني اضعافا حد انكسار روحي .. ما الفائدة و أنيني و عذابي لا يصلك و لا تشعر به .
أين أنت .. أنت في داخلي لا تموت و لا تهرم.
أين أنا .. أنا في قاع اليأس أحلم بطيفك و أعانقه بقوة عذاب الكون و اشتياقه

الرسالة السادسة و ثلاثون
بتاريخ ٢٠٠٩/١/٢٦

اليك ..

"و تعشق موجة أخرى و تهجر دفئ شطآني"
" و يسقط كالمُنى اسمي و سوف يتوه عنواني" .

أتراك وجدت موجة أخرى يا قيصر؟ .
مجرد فكرة أن تكون مع أخرى آلمتني فكيف إذا تحققت؟ .
أشعر أن تلك المضغة التي في صدري تختنق و تأكلها نيران عاتية ، فلا الوقت ولا الانشغال اطفئها بل زادها اشتعالا فوق اشتعال .. هل هي الغيرة من أفكاري؟.
كم أنني غبية!.
مازلت و للآن اغار و أشتاق و أتألم لشخص لا يعلم بوجودي .
ما زلت للآن على خطى ذكراك يا قيصر.
مازلت و كلي يقين أن اسمي قد زال من حياتك و عنواني قد تاه في قاموس ايامك.

الرسالة السابعة و ثلاثون
بتاريخ ٢٠٠٩/١/٢٧

اليك ..
أتساءل إلى متى سأنعي فراقك و أبكي لحاجتي اليك و أتألم لبعدك يا قيصر.
أنا اكرهك كرها يجعلني أريد نسفك نسفا..
اكره اليوم الذي التقيتك فيه ..
اكره الحياة لأنها سلبتني أغلى ما أملك ..
اكره القدر لأنه جمعنا في طريق واحد ..
اكره انفرادية شعوري و وحدتي البائسة ..
اكره فراغ قلبي و اكره وحدتي التي خلفها فقدك ..
اكرهك لأنك لم تُعِدني لما كنت عليه بل خلقت مني نسخة لا اعرفها ..
اكره ابتسامتي حين ارى المطر و اكره حنيني الجارف للقياك ..
اكرهك و اكره كل ما يذكرني بك ..
لكنني أتراجع في الأخير و أعيد ترتيب الكلمات و المشاعر و اقول .. كم أهواك!.

الرسالة الثامنة و الثلاثون

بتاريخ ٢٠٠٩/١/٢٨

اليك..
لقد كاد شهر يناير أن ينتهي و أنا لم انتهي منك بعد.. لم انتهي من مشاعري العالقة و التي أعلم أنها ستؤدي بي في النهاية الى الهاوية معك.
لقد كنت أول رجل ابكيه بحرقة يا قيصر .. يوم أخبرتك أنك مجرد طبيب عندي و اخبرتني انت بدورك أنني مجرد مريضة عندك .. بكيت بعدها حتى كدت اخُرج قلبي الذي نبض لك يوما من ضلوعي .
لقد أصبحت أتألم على أتفه الأشياء بسببك .. انفصال الأحبة يؤلمني .. لمحات الانتظار تقتلني .. رؤية النجوم ليلا تحزنني .. جلوسي في مكاني المفضل يعذبني رجائي الخافت يبكيني .
لقد أصبحت شخصا لا أعرفه.. لقد تغيرت يا قيصر و أصبحت هشة التفكير و كثيرة البكاء .
لقد تركني الجميع و تركتني معهم.
فبكيت لأجلك ألف مرة و الى الآن أبكي عليك ، علني انساك و قلبي يهدأ قليلا.
لكن كيف يهدأ و انت مازلت تسكنه؟
كيف و انا مازلت انتظر النسيان أن يأتي .

الرسالة التاسعة و ثلاثون
بتاريخ ٢٠٠٩/١/٢٩

اليك ..
سينتهي يناير قريبا و لم تتحقق خرافة نسيان .. و اتى المطر معه محملا بذكريات باردة لم تحقق حلم رؤيتك .. بل تحطمت و أصبحت رمادا الملم شتاته بعد الثانية عشر بتوقيت الحنين.
لقد صَدقتُ أنني شخص ستأتيه السعادة يا قيصر .. ستطرق بابه مبتسمة محملة بأمل جديد في ايجاد حب كان مختبئاً. لقد صدقت أنني سأكون المفضلة لديك لقد كذبت و أنكرت و فندت شعوري المحمل برائحة اليأس.. لقد كذبت قلبي و قلت أن الحدس وحده لا يكفي،
لقد كان هناك بصيص من الأمل يدغدغ قلبي بترقب سعادة ستأتي في يناير شهر التخطي و النسيان.
لكن كيف بامرأة فيها من العيوب ما يغطي روحها أن تستطيع النجاة في خضم عالم محبٍ للمزايا؟.. كيف بامرأة مليئة برائحة الحزن أن يحتويها الأمل؟ ..كيف بامراة مثلي أنا أن تأتيها السعادة ؟ .
قد أدركت و علمت و عرفت أنني كنت أعيش في وهم نسجه قلبي و ديسمبر.
يقولون بأن ديسمبر هو شهر توديع الأحلام و الأحزان و ما يناير الا بداية لآمال جديدة، فلماذا اذا انتهت أحلامي في ديسمبر و حزني حزن باقٍ يتجدد و لا ينقضي؟.. فلا ديسمبر حقق حلمي ولا يناير ابتسم لي.. لقد انتهيت و انتهت معها توقعاتي في تحقيق حلم قديم اندثر.
لقد علمني يناير ألا أثق في البدايات و أن أتعلم من النهايات، فما البدايات الا نهايات شتأتي يوما تحت قناع أخرق مزيف .
لكنني في الأخير وثقت و علمت أن النهاية كانت نهاية كل شيئ ، نهاية حلم.. أمل انتظار .. شغف.. وحب.
و بعدها انتهى ديسمبر و لم تأتي البداية و انتهى يناير و انتهيت معه .

الرسالة الأربعون

بتاريخ ٢٠٠٩//١/٣٠

اليك ..
لقد حلمت بك اليوم يا قيصر .
لقد أخبرتني في الحلم أنك هنا و كم أعجبتني تلك الكلمة لأنني على الأقل سمعتها حلما.
لقد كنتُ أبكي بحرقة و يأس و أنا ممسكة بيدك و أنت بالمثل ممسكا بها ، و تتظر لي نظرة دافئة كدفئ يدك يوم التقينا .
فإستيقظت و مازالت يدي دافئة أثر تمسكي بيدك .. استيقظت و أنا ما زلت أتذكر رائحتك .. اشتيقظت و ما زالت عيناك تراقبني
اه لو علمت أنه حلم ما كنت استيقظت و لتمنيت أن أبقى نائمة مدى الحياة ، فبعيدا عن كوابيسي أخيرا حلمت بك حلما تمنيته ان يكون ابديا يا قيصر.
حين عزمت الليلة الماضية أن اتقدم و احاول نسيانك مجددا و تجاوزك ها أنت تطاردني في حلمي و كأنك تخبرني أن جذورك ستبقى في اعماقي و لم و لن تذبل.

الرسالة الأخيرة
بتاريخ ٢٠٠٩//١/٣١

الى البدايات التي جعلتني أؤمن أن بعد كل نقطة هناك سطر آخر تنسجه الأيام و لكنك كنت النقطة الوحيدة التي لا وجود بعدها.
الى لحظات الإرتباك الأولى التي بعثرتني و شتتني و الى الآن مازلت ألملمني سيرا مع ذكرى اللقاء الأول .
الى الذي كانت به الأيام تزدهر و الحياة به تتجدد.
اليك..
لقد قررت أنني لن اكتب اليك بعد اليوم .. لن اتعذب و أتألم و حتى انني لن آتيك هنا .
لقد كانت هذه المفكرة منك و هذه الكلمات اليك ، و أنا لم أعد أريد أن أكون الطرف الوحيد في حب لم يكن يعني لك شيئ .
انا اريد الانتهاء منك .
أريد لقلبي النسيان .
و أنا هكذا لن انتهي منك و لن انساك .
على الأرجح ستكون هذه هي الرسالة الأخيرة التي سأتحدث فيها عنك و التي لن تقرأها او ربما سأدعك تقرأها يوما .. رسالة كأوراق الخريف الباهتة التي فقدت لونها و كانت في اوج صيفها متفتحة .
لقد بدأت قصتي في شهر ديسمبر و انتهت مع انتهاءه او لأقول مع بداية زخات المطر و تصديقي لخرافة الرحيل.
سأتحدث و افتح قلبي و اقول ما لم اقله لك .. اشياء كثيرة يا قيصر كنت أريد اخبارك اياها لكن القدر سرقك مني او أقول خرافة ديسمبر .
شهر كامل و أنا أبكي لفراقك و انعي بعدك و ألعنك و القدر على حد سواء فأنا كنت و مازالت عالقة في ذلك اليوم .. الاول من شهر لهفة الحب ديسمبر فكنت انعي فراقك في رسائلي وابكي كل ليلة بحرقة ارملة فقدت زوجها و أب تخلى عن ابنته الوحيدة .
أنا من كنت يا قيصر أتألم لبعدك و انفض الغبار كل يوم عن حب عشت حالمة به مدة طويلة .
هل تعلم لماذا سميتك الخيبة الكبرى ؟
لأنك كنت اكبرهم .. كنت اشدهم و أكثرهم في وقت كنت اعاني فيه من فقد والديّ .. كنت اول رجل بكيت من أجله.. كنت الوحيد الذي شاهدت النجوم ليلا من أجله و أنا اتمنى بقلب طفلة صغيرة ان تنتهي قصتي مثل القصص الخيالية و أن يأتي في الأخير الفارس او الأمير الذي ينتشلني من الخراب المحيط بي.
أن تأتي في الأخير انت يا قيصر.

انت كنت الوحيد الذي أحدث في قلبي شرخا اعتقد انه لن يندمل و ستبقى آثاره إلى يوم النسيان.
هل أحببتك لهذه الدرجة ؟ أنا عن نفسي لا أعرف لكن الذي أعرفه انك لم و لن تتخيل يوما ان تغرق فيك امرأة حد الثمالة من ثاني لقاء.
انا أعلم أنك تتساءل اذا كنت تقرأ الآن متى كان اللقاء الأول ؟ أعلم أنني كنت امرأة عادية جدا لتتذكرني.
بالنسبة لي كنت مثل زخات المطر التي تجعلني اتساءل بذهول كيف لقطرات من الماء أن تنزل من سماء واسعة لا نهاية لها؟.
كيف بشخص مثلك رائع .. مذهل .. و مليئ بالتفاصيل أن يلتفت لعاديتي انا؟
لكنني سأخبرك متى كان أول لقاء ، لقد كان يوم وفاة والدي لهذا اتذكر تفاصيله حين كنت عائدة من العمل و أنا العن المطر و فجأة اصطدمت برجل كان حلما رجل كان مثل خرافة صعبة التصديق.. كنت ذلك الرجل البعيد الذي يكاد يكون وهما يا قيصر .
لقد تبادر لذهني لحظتها سؤال هل يمكن الوقوع في الحب من النظرة الأولى؟ لا بل اقصد من لمسة اليد الأولى؟
كان ذلك الموقف هو البداية.
و بسبب تلك البداية انا انتهيت .
ها أنا ارمي اليك برسالة وداعي الأخيرة مغلفة بكلمات حين تقرأها ستعلم أنني قررت محوك من حياتي و قطع جميع الروابط التي تصلني بك ,.اما الآن لا اخفيك سرا أنني مازالت أشعر نحوك بأكثر ما يمكن قوله ، فأنت مزالت تسكنني و تسكن حياتي .
لقد اخبرتني جدتي حين كنت صغيرة عن الخرافات بصوتها المليئ بتجارب السنين و أنا كنت انصت لها بلا تجارب و لا سنين .. انصت لها بقلب طفلة صغيرة مليئة بالاحلام.
لقد أخبرتني عن العديد من الخرافات .. و قد قصت على روحي حكايات غريبة لا يستطيع المرء أن يصدقها .
حتى جئت انت و علمت أن جدتي لم تخبرني عنك.
لم تخبرني عن الخرافة المهمة التي ستغير حياتي .
لم تخبرني عن خرافة شهر ديسمبر المليئ بالرحيل.
لم تخبرني عن حضورك المتوشح برداء الفقد و الغياب.
لم تخبرني عن استحالتك و بعدك .
لقد خسرت اتعلم؟ خسرت والدي و عملي و خسرتك و الآن اشعر أنني خسرت نفسي و روحي و قلبي حين اعطيتهم لك .
لقد خسرت قلبي يا قيصر في شهر ديسمبر.. شهر نهاية الأيام و الرحيل .

لقد كنتُ و قلبي الوحيدان اللذان يعرفان أنني احببتك بعمق و انتماء .. أنا وحدي من كنت أعاني و ابكي و أتألم و احترق تحت مسمى برود و لامبالاة .. وحدي من كنت اتمنى سرا أن تتمسك بي و تحارب من أجلي.
لكنك في الاخير رميت يدي و ابتعدت .
اتتذكر يوم التقينا في متجر الجد و لحقتني و اكملت معي طريق؟ حينها تمنيت ان يطول الطريق و ان يتوقف العالم ، أن نتوه في الشوارع و نتأمل النجوم ، تمنيت توقف الزمن عند تلك اللحظة التي لا تتكرر الا في الاحلام.
وحين اوصلتني اخبرتني بعبارة لم اعتقد يوما ان تُقال لي لكنها جاءت منك يا قيصر.
ثم بعدها و بلامبالاة تشبهك قلت أنه مجرد انجذاب رجل لإمرأة في وسط الليل و أن كل شيئ كان عبارة عن لحظات عابرة .
و قلبي؟ ألم تسأله حين لفظت كلماتك؟ ألم تسأله عن ماهية مشاعره الحقيقية ؟ ألم يتبادر لذهنك أن تلك اللحظة لم تكن ذكرى عابرة بل خالدة اتذكرها كل يوم بعد منتصف الليل ؟
لحظة لم تكن تساوي عندك شيئ لكن بالنسبة لي كانت كل شيئ يا قيصر.
فأنا صدقني لم أكن سوى فتاة حالمة و جبانة ترقص على أوتار الحب الأول .. تلك الفتاة لم تعلم حجم المصيبة التي أوقعت نفسها فيها الا بعد فوات الأوان .
فبدايتي كانت عبارة عن ثوان لا تعد .. ثوان بتت اقتات منها ما يجعلني لا أريد شيئا غير العودة لذلك الوقت.
هل حين يزورني النسيان سأنساك مثل ثوان لقائنا؟
الا ليت النسيان كان سهلا كالوقوع في الحب .
هل تعلم شعور ان تستثني شخصا و تميزه عن الجميع وفي الاخير يخذلك؟ اشك انك تعلم لأنك تعرضت للخيبة في منتصف الطريق ، لقد اخبرني جدي عن قصتك و لقد تألمت كثيرا لأجلك و لأجلي.
هل تعلم أيضا شعور إكمال الطريق بالرغم من غياب الأحبة؟ هل تعلم شيئ عن حياة مليئة بالفقد و الغياب و انه هناك فكرة جميلة سرية تنسيك كل شيئ ؟ هل تعلم شعور ان تكون شخص معطوب و لا يصلح للحب و لا للعلاقات ، مجرد شخص عابر للكل ؟.
أنا مليئة بما لم استطع قوله لك .. أنا تركتك لأفكارك عني , ففي الأخير كنت مجرد امرأة تحتاج للعلاج بالنسبة لك .. امرأة تعاني من الكتمان و الفقد .
و انا التي كنت اذوب كل ليلة على ذكراك .
انتظر النسيان كل يوم على صوت فيروز و معه فنجان قهوة و أنا أحدث النجوم عنك لينقلوا لك سلامي .. أو حبي .

حب؟ اتعلم للآن بأنني لست متأكدة اذا كان الذي اشعر به حب ام اعجاب، انجذاب ام نزوة فراغ ؟ لا أعلم هل يحب الشخص شخصا في ثلاث اسابيع ؟ اخبرني انت علك تعرف الإجابة فأنا عن نفسي لا أعلم.
كل الذي أعلمه أنه كلما مرت بي ذكرى تكون انت فيها أجد دموعي تتكلم عني بصمت و بهدوء.. اجدني ميالة للحنين لتلك الجلسات التي لا تتعدى الثلاثين دقيقة لكنها تتعدى عمرا كاملا عندي .. يجد الحزن طريقا لوجهي حين تغني فيروز و تقول:

"و يروح ينساها و تذبل بشتي".

فذبلت توليب في شتاء ديسمبر.. و منذ ذلك الحين لم يعد يُسمع لقلبها صدى.
هل تعلم بأن هذه اطول رسالة كتبتها .. لا أدري ابسبب ان كلمات الوداع دائما ما تكون طويلة و مبعثرة؟ ، ام بسبب أنها الرسالة الاخيرة ؟ ام لأن الذي داخلي يفوق هذه الكلمات أكثر بكثير ؟.
لقد التقينا بنظرة .. و لمسة .. و مطر.. و عشت قصة حب كاملة الفصول, ثم مضيت بمزاجية الألم و السعادة معك .. و ما بين هذا و ذاك كنت أفقد مجموعة من الدموع تسقط تباعا .
و اخيرا لقد قلت كل ما كان في نفسي و لم أخبرك به لكنني تذكرت شيئا اخر انا يا قيصر لن اقترب منك او ذلك الطريق الذي جمعنا .. لن اذهب لصديقنا المشترك لكي لا يذكرني بك .. و لن ابذل اي مجهود في سبيل لقاءك وسأتركك سري الجميل الذي ادفنه في قلبي و ازوره كل ما سنحت لي الفرصة لأبكيه قليلا ثم اتركه للزمن بعدها .
لكن سأخبرك سر جميل كجمال عينيك أنه حين التقينا لأول مرة شعرت بقلبي و هو يدق كطبول الحرب و تلك كانت المرة الأولى في حياتي كلها التي نبض قلبي فيها لأحد .. لقد تجاوزت فراشات المعدة لأول مرة لتصل و اخيرا لقلبي .. لقد استطعت تحريكه من نظرة واحدة .
و الآن سأتركك لتعيش حياتك متجاوزا امرأة احبتك بكامل
جوارحها .. و أنا سأكمل حياتي مرددة بخيبة العالم أجمع أنك كنت الخيبة الكبرى و الخذلان الأول .
يوما ما ستشعر بما شعر به قلبي لحظة دخولك حياته يا قيصر .
يوما ما سنلتقي انا و انت في عالم آخر او طريق عابر او أغنية قديمة حينها فقط سأمسك قلبي و بدلا من أن اسقط و استمع لك سأنهض و اتجاهلك.

يوما ما ستصبح خرافة شهر الرحيل مجرد ذكرى عابرة و سيصبح بعدها ديسمبر شهر نسيان الحب الأول و البداية الأولى لحب جديد.
يوما ما ..

تمت في ٢٠٢٥/١٢/٢٤